

ثرثرة..

زمن تسقط بس

محمد إبراهيم محمد

٢٠٢٠

اسم الكتاب: ثرثرة زمن تسقط بس

اسم الكاتب: محمد إبراهيم محمد

تصميم الغلاف: مي مجدي

تنسيق: نورهان هاني

رقم الإيداع: ٢٠٢٥/٥٢٩٧ م

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٦٣٣-٨٢٩٧-١٢-١

كافة الحقوق محفوظة للناشر والمؤلف

لا يُسمح بإعادة طبع أو توزيع أي جزء بأي طريقة، بما يشمل ذلك التصوير أو الطباعة أو التسجيل الصوتي أو أي وسيلة أخرى إلكترونية أو غير إلكترونية، دون إذن كتابي مسبق من الناشر، ويسمح فقط في حال الاستعانة ببعض الفقرات لغرض النقد والدراسة، طبقاً لما تحدده قوانين واتفاقيات حقوق الملكية الفكرية.

ثرثرة..

زمن تسقط بس



إهداء

إلى كل شهيد وشهيدة...

إلى كل نائر وثائرة...

إلى كل حر وحررة...

إلى كل من قال كلمة حق في وجه سلطان جائر.

افتتاحية

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى كل من والاه،
أما بعد:

هذه ثرثرة بريئة لمجموعة مكونة من أناس غبش، شعث، غير،
ينتزعون لقمة عيشهم انتزاعاً بصعوبة بالغة، في ظروف مؤلمة
قاسية، طال أمدها حتى ظنوا أن غضباً من الله حل بهم وبلدهم. نعم
إنها ثرثرة بريئة لأنها تأتي من أناس لا يعرفون هرطقة، مباحكة،
ولف ودوران، ولأن قلوبهم ما زالت صادقة طاهرة نقية لم تدنسها
أطماع سياسية دنيوية، ولا تطاول في بنيان أو سلم اجتماعي، أو خم
وكنز لأموال.

ثرثرتهم تشي بالعين التي ينظرون بها لما يجري في بلدهم
المسلم، وتنم عن حسهم البسيط الذي يكشفون به زوايا قاتمة قد لا
تكون مرئية وواضحة لكثير من قراء عاديين، مراقبين، محللين،
وحكام، داعين المولى عزّ وجل، أن يقيض لأمتهم من يأتي ليطبق لها
نموذجاً إسلامياً سليماً، مبرأ من شوائب وعيوب، يفهمون جوهر دين
ولا يتمسكون بقشور، ولا يتكالبون على متاع دنيا حقير، يتحلون
بصدق توجه، ويؤمنون بربانية رسالة.

ثرثرتهم غوص فيما وراء دموع، وزغاريد، لمعرفة دوافع
حقيقية أفرزت ثواراً لا يهابون عذاباً ولا موتاً، يقدمون تضحيات تلو
تضحيات، في سبيل حرية، سلام، وعدالة.

والله الموفق

شلة أنس ثوري

(١)

العودة إلى الوطن

عاد في أغسطس من العام ألفين وسبعة عشر ميلادي من مهجر اختياري، عاد من بلد محسوب ضمن بلدان ربيع عربي، هذا الربيع الذي يعتبره مؤيدوه نعمة، ومعارضوه نقمة، وأصبح من بعد فزاعة لكل نظام استبدادي يخشى أي همسة رقيقة، أو ريحانة عطرة، أو سريان لحن لشيء جميل نبيل اسمه حرية، قامت من أجله حروب، قدمت في سبيله تضحيات، ونصبت له تماثيل، وهذا قليل من كثير. هذا لا يعنيه الآن، ما يعنيه أن ذلك البلد الذي كان مهاجراً به، في سنواته الأولى التي أعقبت ثورة شعبية كان قوياً و متماسكاً اجتماعياً واقتصادياً، ثم من بعد ذلك عانى من ويلات كثيرة بسبب تدخلات من قوى شريرة خارجية، تربصت به، استغلت واستثمرت بيئة موالية، زرعت فيه بذور فتنة، وفرقة، وردة بسبب هشاشة بنيوية، عدم نضوج وعي سياسي بعد سنوات طويلة من عزلة وحكم فرد، ظهرت انقسامات سياسية داخلية، استأسدت جماعات مسلحة، تفاقم شعور بعدم أمن وأمان، انخفضت قيمة عملته مقابل الدولار، زادت معدلات تضخم وغلاء...، رغباً عن كل ذلك كان يمتلكه شعور - وهو هناك - أن الحياة تسير بصورة طبيعية، أهل تلك البلاد لا يحسون أن فرداً ما، جماعة ما، جهة ما، تقوم بإذلالهم، إهانتهم، حط من إنسانيتهم، أو لعب بمقدرات بلدهم.

حزم حقائبه، عاد نهائياً إلى أرض آبائه وأجداده بعد أربع سنوات قضاها هناك. عاد متوكلاً على حيّ قيوم تاركاً كل مدخراته من ورائه، نصفها في بطن حسابات الجهة التي كان يعمل بها، والنصف الآخر في بطن البنك الذي يغذونه بمرتباته، فلا الأول أفرج عن مستحقاته المالية رغم مطالبات متكررة، لأسباب لا يعلمها إلا الله، ولا الثاني بسبب شح السيولة أفرج عن أمواله. مطار المغادرة الذي خلفه وراءه كان بانسأ، بسبب أنه مطار بديل لمطار دولي رئيس دمرته الحرب، وبسبب سوء حال من تدهور مريع في كافة الخدمات. أما مطار بلده، حدث ولا حرج، كان أكثر بؤساً مقارنةً بمطارات أفريقيا، بسبب ما آلت إليه أحوال الاقتصاد. مضت الستة أشهر الأولى بسرعة وهو قابع في بيته لا يغادره إلا لماماً، بسبب ما أصابه من ضيق، برم، وقرف لما جرى هناك ولما يجري هنا، كان عازفاً عن البحث عن عمل في أي نيلة من النيلات، عازفاً عن الاقتراب من معارفه وأصدقائه الكثير. عمله الوحيد اقتصر على ذهاب صباحاً لمخبز الحارة لإحضار خبز البيت، وذهاب كل ثلاثة أيام لإحضار لحماً وخضار، وذهاب كل آخر شهر لإحضار احتياجات من تاجر إجمالي. أطلق على هذه الفترة اسم (العزلة المجيدة)، كان فيها تائهاً، أعمى، أصم، وأبكم، كأنما يمشي على تراب أرض غريبة لم تمسه قدماه من قبل، يشم هواءً لم تألفه رنتاه من قبل، ويعيش بين ظهرائي أناس غرباء ما كان في يوم من الأيام واحداً منهم. أصبح عنده حس ترمومتري يقيس به حركة أشياء، بعد فترة قصيرة من قدومه لاحظ أن أمور الناس حياتية ومعاشية بدأت تتدهور، ظهرت صفوف أمام مخابز كأنما صفوف نمل صيف يجمع مؤونة شتاء، اصطفت سيارات عند محطات

وقود كما سيارات قديمة في مكبات خردة، شح دواء، أصبح نيله بعيد، قفزت أسعاره قفزات ماراثونية، انعدمت سيولة جيوب مصارف، أصبحت في خوائها أكثر من خواء جيوب الناس، راجت قصص عن فساد دولة، تفشي محسوبية، رشوة، تمكين، وعن فساد ناس كيهود يتعاملون بربا على عينك يا تاجر، يتشدقون بأن ضرورات تبيع محظورات. في ظل ظروف ضاغطة، منرفزة، محبطة، كان يرقب حركة الشارع بعين مفتوحة ثلاثمائة وستين درجة، محللة وفاحصة، مفارقات، تناقضات عجيبة، شوارع مهترئة بحفر، تعج بحركة سيارات فارهة لا تُرى في بعض دول خليجية، وبسيارات كورية رخيصة، وبركشا ثلاثية عجلات ابتدعها الهنود ليستعيضوا بها عن مركبات يجرها الأوامم بدلاً عن الدواب، وبعربات كارو تجرها خيول وحمير بدلاً عن محركات ديزل، يتزاحم مترفون داخل محال تبيع أطعمة جاهزة، هوت دوق، كشري، كبسة، شحاذون يرتادون المساجد يجوبون الشوارع، نكاشون جوعى يزاحمون ققط وكلاب فوق صناديق مكبات قمامة، يأكلون يبعثرون محتوياتها، عمارات تحت إنشاء تنموا بسرعة عجيبة في كل مكان بدون استثناء، خريف يهد بيوت الطين فوق رؤوس أصحابها، مأواهم البديل مقابر أو يفترشون عراء. الناس، غني وفقير، كبير وصغير منكبون على الحياة، يمشون على عجل لأنهم خلقوا من عجل، أمانهم وأحلامهم يريدون تحقيقها في لمحة بصر، والغاية عندهم تبرر الوسيلة. كم من مشاهد وصور مرصوفة، متراكبة، ومتراكمة أصابت رأسه بدوار مزمن، وخلفت فيه عاهة من علامات استفهام محيرة كثيرة (؟؟؟؟؟)، تزاحمت فيه، اشتجرت، وتناحرت بقوة، كيف تسنى لأضداد أن تتجمع في مكان

واحد، في زمان بهذه توليفة عجيبية؟ ثراء فاحش وفقير مدقع، يسريان في سلكين عريانيين دون أن يحدث بينهما تماس وشعلة احتراق؟ كيف يتسنى العيش لفقراء تركتهم سياسات سوق حر لمؤسسات دعم اجتماعي فاشلة لكي تتكفل بأمور رعايتهم وتخفيف الضغوط عليهم؟ وهل هذا السوق حراً، كيف يكون حراً في ظل احتكار مقيت، تاجر أوحد يشتري كل مخزون صنف من مؤرد أوحد، ثم يحدد سعر جديد كيفما يشاء، إن عجبك شيل ما عجبك غور. بعض من حملة شهادات جامعية، تحت شمس حارقة، يدفعون درداقات، يحملون باقات بلاستيك يبيعون ماءها في الأسواق، وزملاء أقل كفاءة - بسبب سياسات واسطة وتمكين - يتدرجون منعمين في أعلى مناصب حكومية! حاله كحال غالبية الناس تنتابه مخاوف مثيرة، هناك أمور غير عادية تجري في الخفاء، تجعله في شك دائم بأن كل شيء يجري من حوله كاذب زائف، وأن كل كلام معسول يسمعه مجاف للحقائق، وأن ما يعتمل في دواخل نفسه ينذر به بشر مستطير، نعم إنه يدمن الصمت، ولكن دواخله تفور كمرجل بالكُره لطبقة حاكمة ظالمة، هذه المشاعر جرت معها كوابيساً، خزعبلات، وهلوسات كانت تقض مضجعه، تشحن ذاكرته بصور وآلام ومآسي صاحبت انتفاضة سبتمبر الموءودة، التي مضت قبل سنوات خمس، دماء سالت ما زالت تعطر أرض وطن حبيب مسلوب إرادة، انتفاضة اندلعت عقب إعلان دولة مجحفة بحق شعبها رفع دعم عن محروقات ودقيق، ظنت، وبعض الظن إثم، أن شعبها قد مات، شبع موتاً، وما لميت حركة أو ردة فعل، ما لجرح لميت إيلام. انطلقت من الدمازين، ثم ود مدني شرارة مظاهرات باسلة، عمت بعدها ريف وحضر، أما في الخرطوم الباسلة،

رأس حية في نظر نظام حاكم، استعان نظام الهناء والسرور بعصابات مجرمين مخربين، دسوهم وسط الثائرين، حرقوا سيارات، محطات وقود، ونهبوا محال تجارية، دُق الفُرَاف خلي الجمل يخاف، إما نحن أو الفوضى، إما نقتلكم أو نحكمكم، ضرب بمسيل دموع، هراوات، خراطيش بلاستيك، رصاص حي، سقوط ما يزيد عن مائتي شهيد، إصابات كثيرة بالغة في صدور، رؤوس، وأعضاء حساسة، اعتقال آلاف، كونوا لجان تحقيق في ممارسات همجية غير قانونية، ولكن! لسخرية القدر، لم يحاكم أحدٌ تجاوز حدود، ولم يعرض أحدٌ تضرر.

الآن بعد مرور خمس سنوات، بعد تضحيات جسام دفع فاتورتها شعب مقهور، يعيد التاريخ نفسه، لم تتغير أحوال اقتصادية إلى أحسن وإنما ازدادت سوءً، تكرر نفس المقلب القديم بثوب جديد، إرهابات برفع دعم عن محروقات ودقيق، عادت صفوف تلهث وراء رغيف خبز، عادت صفوف سيارات تسير بالدفر عند محطات وقود، وصفوف صرافات آلية في ظل انعدام سيولة مصارف، كساد يضرب أسواق، شلل تام في كل مرفق من مرافق الحياة، مصائب اقتصادية لا تأتي فرادى، تجر وتقطر خلفها ويلات إنسانية، اجتماعية، وأمنية خطيرة. يرمون اللوم على انفصال جنوب، وتقاعس مجتمع دولي، إلى ذهاب ثلثي عائدات بترول مكتشف إلى دولة صنعناها بغائنا وقصر رؤيتنا، خمول شعب لا يهتم بعمليات إنتاج، الشعب بدوره يرمي اللوم على الدولة، دولة في نظرهم تمتلك على أقل تقدير أربعة أنواع ذهب، ذهب أحمر (معدن)، ذهب أسود (بتترول)، ذهب أخضر (برسيم)، ذهب أبيض (صمغ عربي)، كل ذلك ذهب أدراج الرياح، بسبب سوء إدارة، فساد متجذر، مالي، إداري، سياسي، تجاري، دبلوماسي، تعليمي، كل ما يخطر بالبال من أنواع الفساد التي عرفتها البشرية،

صاحب هذا العفن غياب رقابة ومحاسبة على مال عام، صرف بذخي على صفوة دستوريين وأمنيين، هياكل خدمة مدنية وحكم اتحادي مترهلة، لذلك، قعدت أمفكو، بلا ثوب يستر عورتها، غير قادرة على سد رمق شعبها، مصنفة راعية إرهاب، ريسها مطلوب للمحكمة في جرائم حرب، لا تتمتع بأي حقوق في معونات، مساعدات، قروض، ومنح من مؤسسات مال دولية، خيارها التسول من دول غنية، وهذه لا تعطي بغير من، بشروط تخدم مصالحها، تطالب بمزيد تنازلات مهينة تريق ماء الوجه، شعبها مولع بالمقارنات، يضرب مثل بأثيوبيا، أنها كانت أرض مجاعات والآن أسرع دول أفريقيا نموا، رواندا، شهدت أكبر تطهير عرقي، نهضت من رماد وركام، بلده سلة غذاء العالم، الآن رجل أفريقيا المريض، يصارع الموت داخل غرفة عناية مركزة.

عندما كان يتمشى في الشارع، أو يجلس في حافلات المواصلات، على مقاعد مقرزة غير مريحة لا تليق بآدميين، أو يدخل محلاً تجارياً، أو يجامل في بيت فرح من أفراح قلت، أو يشيع مع مشيعين في جنائز موتى زادت، كان يتطلع في وجوه الناس، يحاول أن يستجلي بعضاً مما تخفيه نفوسهم، أن يستنبط بعضاً من حكاياتهم، كان يثرثر كثيراً عندما يلتقي بأصحابه، (أطلق اللسان تلقى الناس خلان)، الصدفة جمعتهم مع بعض أهل صحبته، كانوا أربعة التقوا في مآتم، لا داعي لذكر أسمائهم لأن ذلك لا يقدم ولا يؤخر، ولا يضيف معلومة مفيدة:

أولهم * شخصه الضعيف، أستاذ معاشي، في خريف عمره.

ثانيهم * على باب الله، سائق ركشا.

ثالثهم * حنة موظف، على قدر الحال.

رابعهم * رجل أعمال، يعرف من أين تؤكل الكتف.

بعد فراغهم من أداء واجب عزاء، وإلقاء تحية على معارف اكتظ بهم المكان، انزروا بالجلوس على أربعة كراسي على مبعدة من القوم. هز رأسه، وطقق بأذنيه، كحمل رضيع مريض، محاصر من كلاب صيد ضارية، هتف قائلاً:

(يا أخوانا الحكاية شنو؟ اللعنة حلت بالبلد، سرطان، فشل كلوي، قلب، ضغط، سكري، موت فجأة، جلطة، بقت شيء عادي، أخوك يودعك في أمان الله، بعد ساعة تسمع خبر وفاته، مقابر أكلت بيوت، موت يأكل حياة، الميت أبقى من الحي، أكوام زباله في كل مكان، هواء دخان مطاط محروق، زق كلاب، ققط، وأبراص، مرض تحت وفوق، جوة مخدرات، علاج عشم إبليس في جنة، إنه آخر الزمان، جحر تحت الأرض ولا قصر فوقها).

سائق الركشا، كأنما كان في انتظار مثل هذا الكلام، اغتم الفرصة، لعل صوته، إبرُّ وخزوها في طبول أذن مسمطة بوقر قائلاً: (أخز الشيطان يا رجل، ما أنزل الله من داء إلا وله دواء، خلينا من دواء صيدلية، ثمنه بالشيء الفلاني، الدواء الشعبي راقد بالهبل، والعمر إن تمَّ لا ينفع معه دواء حكيم ولا فكي، ما في عاقل يتمنى الموت، أنا صحيح على باب الله، والحياة مرة، لكن عشمي في الله كبير).

رجل الأعمال، بعد أن برم شنباته ونفخ جُصُومه، تلفت يميناً، وشمالاً، ووراء وقدام، وتأكد تمام التمام إنه لا يوجد كديس مُشْتَبِطٍ يَشْمِثِم حائم في الجوار، هتف قائلاً:

(يا ركشا خلي عندك دم، كبر عقلك شوية، وطى الصوت،
صحيح الجو صافي، ولكن هل نسيت إننا في بيت بكاء، ولبيوت
البكاء حرمت).

الموظف، بعد أن تنتح وعطس، وكح وبزق، ووضع سفة
سعوطة في شفته السفلى، سخط قائلًا:

(فضّل فيها عقل، القصة خربت، سيونا من كدائس، خلونا في
موت وحياة، واحد من أصحابي ما عارفه نصيح ولا مجنون، كل ما
الأقيه يقد رأسي بكلام واحد، حفظته من كثر ما سمعته: (عارف يا أبو
الصُحْب، الولية، أم الولايا، مراتي، الجميلة سابقاً، المبرية زي عود
حلاوة حربة حاضرأ، أم عيال وبنات، فاتوا خلونا، واحدين في بطون
قرش، واحدين صير مع الصراصير، واحدين في صقيع في بلاد
الخنازير، وواحد في كَتّاحة عدو عوين وعيون ومناخير، في سوق
نخاسة مربطين بالجنازير، أم طيور مهاجرة ضربها سكري، أبو
الساكر، إمّا نهشك اليوم ينهشك باكر، لازم تمشي لتأليم صحي مع
طلوع كل هلال قمري، قبل صياح ديك دجاج فيومي بلدي).

قال في نفسه: (الوقعة وقعت فيها دي، مخارجه منها كيف، أديه كلام
بارد، يمكن ينفع):

(ربنا يعدل الحال).

رد قائلًا:

(قال حال، لسه ما عرفته حاجة، حبيبة عمري، تقوم بدري مع
آخر نجوم سماء، قبال شمس وشماسة، تحرس باب مستوصف خمسة
نجوم لمن يجي ناظر مدرسة، يمشي مشي طواويس، يفتح بمزاج خشم
قربة على مصراعيه، حبيبة عمري تقعد على واحد من عروش

مرصوفة، يسبقوها جماعة كثير، الحكاية مدافعة، مزاحمة، مناطقة
بقرون مسلولة، قوي يأكل ضعيف، وبعد ما حبيبة عمري تنوم
وتصحو، تنوم ثاني، يصحبها عيانون دائخون، نص مفتحين، نص
واعين، من الدغشة مخلبتين، ولسه لا شاي ضائقين ولا فاطرين).
زود برودة الكلام شوية:

(الحمد لله).

رد قائلاً:

(الحمد لله شنو، لسه ما عرفته حاجة، الله أكبر، تدخل حبيبة
عمري على طبيب دائخ من كثرة ما شاف عيانين، يكتب دواء بدون
نفس على صفحة دفتر أبيض أخضر، كفن وجنة، ينفذوها من موت
محقق، وتنسل بطلوع روح، دائخة، مسطولة، متورمة، تشوف طشاش
في طشاش، وعلى خشم القربة دغري، وعلى ركشا فون دغري،
وعلى قصر شعبي دغري، غرفة، ومطبخ، وأدب خاني، وديك يا
رقدة، بعدها بالكاد نصف قومة، لا تجر يد، ولا كراع، برنامج
شهري، لا يتغير، لا يتزحزح، وإلا! خلاص علينا عوض، نأكل
ونشرب قرص).

رد الموظف ضاحكاً بعد أن هرش جلدة رأسه الأصلع، التي تغطيها
قشور بيضاء تلمع كقشور سمك بلطي عندما تلامسها أشعة شمس
صيفية، ناسياً أنه فرغ للتو من دفن جنازة، تمتم قائلاً:

(صاحبنا الرکشجي ده في نعمة، تعال شوف جن مراتي الكلكي،
أقوم مع دغشة الرحمن، أفتش جيوب بنطلوني، من برة بنطلون ومن
جوة مُشَرَطُون، من كثرة لبس، غسيل، وكى، أنفضه فوق تحت ما فيه
غير خمسين جنيها، في زمن ولى خمسين جنيه تجيب عربية بنق،

وبعدين مع حكة رأسي أقول في الزنقة دي ماذا أنت فاعل يا بطل،
حافضة أسعار كل السلع، ضروري، كمالي، موجود، معدوم، عارفة
مرتبي كم، زيادات، بدلات، مأموريات، حوافز، كله عارفاه، كثيرا ما
تهجم عليه، نفتشه، فوق تحت، تنفضه لمن يعيط، أنظر ليها، تديني
عين حارة، تَشْحُطْ: (أمور مكاتبكم دايرين تعملوها في البيوت كمان،
ما في طريقة، خربتوا هناك يا خرايين عامرة، خراب هنا ما في، هنا
ضبط وربط، نحن لكم بالمرصاد، زود المصروف زي باقي الرجال،
إن غلبتك الحيلة، بقيت ما قادر، رجعتي بيت أهلي، ولا شوف ليك
شغل إضافي، قدرة فول، صاج سمك، شوال بصل، مناديل ورق،
إتْلح يا راجل، خلي عندك همة، الدنيا معافرة، ما سهلة، أعمل
حسابك، حد الله بينا والحرام).

انتفخت أوداج رجل الأعمال، خرجت كلماته في نبرة لا تخلو من
أريحية وانبساط قائلا:

(يا أخوانا الدنيا دي ما دام فيها موت ما فيها حلاوة، ومع ذلك
كلنا جارين وراها، وراء القرش، لأنه ده زمن قرش، قرش يجيب
قرش، القرش ولاد زي الأرنب، ما داير مخ، بضاعة، في الرف
سعرها زائد، دولار، الله فتحها عليك، بيوت، عربيات، طيارات يا
بختك يا عم، القروش ما عارفين نوديتها وين، قرفنا منها، لازم نشوف
لينا حاجة نتسلى بيها شوية، تنزل ضغطنا، وترفع معنوياتنا).

الموظف في صوت خفيض متهدج سال خضوعاً، قنوعاً،
وتسليماً بقضاء وقدر، وأن ليس في الإمكان أحسن مما كان، تتمم

قائلا:

(الله في خلقه شئون، ناس ما عارفه تودي القرش وين، من كثرة جريانه في اليبدين، وناس حق الرغيف في تلتلة، الحكاية دي ما راكبه عدلها، الله يجازي اللي كان السبب، بلدنا ما هو فقير، بلد سمن، عسل، وودك، شيلوا الفاتحة، مع السلامة يا حجاج، ربنا يكفينا شر ملمات، ويجعلنا من أهل باقيات صالحات).

دائما ما كان يرى وجوه غالب الناس صارمة، جامدة، ميتة، لا تنورها مسحة أمل، ولا ترف عليها إشراقة ابتسام، ولا يبدو عليها أنها ذاقت يوماً طعم فرح. إنهم مطحونون، طحنهم واقع أليم في ظل دولة فاشلة، ولكن! ما يحيره إلى درجة الهلوسة أن هؤلاء الناس لا يتكلمون، لا يشكون، ولا يتلاومون، يسأل نفسه: (أهو في بلد أهلها عميان، خرس، وبكم؟ أفي بلد أصابها غضب، رجز، ومسخ من الله؟ أفي بلد ألقيت عليها قنبلة كقنبلة هيروشيما؟ أفي بلد حكامه بلا رحمة، يحكمون شعبا من عبيد؟ أم تحت الرماد وميض نار؟)

كثيراً ما فضفض مع نفسه، (الناس في بلده في أزمة اقتصادية طاحنة منذ سنوات عدة، دولتهم عاجزة عن إيجاد حلول ناجزة، ليس لها رؤية واضحة لتجاوزها، آمالهم كانت معلقة على رفع عقوبات أمريكا، لعنة الله عليها وعلى عقوباتها، رُفعت العقوبات والحال هو الحال، ساء أكثر، جنيه واحد كان يعادل ثلاثة دولارات وأربعين سنتا في الستينات، يعادل خمسة عشر جنيهاً مصرياً صيفاً وثلاثة عشر جنيهاً شتاءً، في الثمانينات جنيه واحد يعادل دولارين، مرض بعد ذلك، عادل اثنين ونصف دولار، في التسعينات حدث مرضه الفتاك، تخطى سقف الأربعة دولارات، ثم بضربة شلوت واحدة حذفوا ثلاثة أصفار من العملة، بعد بترول وسلام شامل، تحسنت حالته المرضية،

استقرت درجة حرارته عند حاجز معقول، بعد أشهر قليلة هبط الدولار إلى ستة جنيهاً، ثم ارتفع حتى وصل إلى تسع، ثم تخط حاجز اثني عشر بعد سنتين، ثم وصل إلى أربعين بعد سنتين آخرين، ثم هبر إلى تسعين، كل ذلك كان بسبب (زراعة وصناعة) راحتاً في حق الله، انهيار وتفكك مشروع (الجزيرة)، ومؤسسات وهيئات استراتيجية كبرى، سكة حديد، نقل نهري، خطوط بحرية، ونقل ميكانيكي، مشروعات مثل سد مروى أغرقت البلاد في ديون، مشروعات كثيرة أنشأت بقروض، فساد مستشري مغتربون لا يتقون في حكومتهم يحجمون عن تحويل مدخراتهم للداخل، صرف على أمن وأعداد مهولة من دستوريين. حال الناس يغني عن سؤالهم، مغيبون عن وعي، ما عليهم إلا رضا بأمر واقع، إنه قدرهم، ولا راد لقدرة الله إلا الله، نظام فاجر، نكل، استبد، حاول تعديل دستور ليبقى ريسه في حكم مدى الحياة، لا اعتراض دولي، لا مقاومة داخلية قوية رافضة، قوى سياسية تقليدية في سبات شتوي عميق، شعب مشغول بلقمة عيش غير قادر على حركة، ولا حتى على احتجاج، نخب في حكم أموات منذ زمن طويل. وهكذا الحال، لا يرضي صديق ولا عدو، عاقل ولا مجنون، ثم تفجرت مفاجأة مدوية صادمة، مفاجأة حيرت العالم، أسوده، أسمره، أصفره، وأبيضه، أصابت داخل وخارج بدهشة مدهشة، حيرت عقولاً فقدت قدرتها على فهم وإدراك، مفاجأة من العيار الثقيل، بعد ثلاثين سنة من كبت، وقهر، تسلط، جبروت، تمكين، كذب، وخداع، خرجت مظاهرات عارمة تطالب بإسقاط نظام ورأس نظام في عدة مدن؛ مقهورون، مظلومون، مغيبون عادوا يدقون طبول، نعم إن الله في خلقه شئون، دولة الحق باقية، ودولة الباطل لا محالة زائلة.

ديسمبر، خبز أم حرية؟

عدوى التظاهر عمت ربوع البلاد، بسبب سلطة ضعيفة عاجزة عن توفير احتياجات ضرورية لمواطنيها، مع قبضة أمنية باطشة؛ هبت مدينة عطبرة عن بكرة أبيها بسبب عدم توفر دقيق، قلة وزن رغيف، سعره ارتفع ثلاث مرات في زمن وجيز، خرج تلاميذ مدارس أساس بسبب وجبة إفطار، لحق بهم طلاب ثانوي وكليات جامعية، انضم إليهم أهل المدينة، تدفقوا في الشوارع وهم يهتفون (شرقت، شرقت عطبرة مرقت)، (الشعب يريد إسقاط النظام)، صبوا جام غضبهم على كل ما يرمز في وجدانهم للظلم، أحرقوا دار الحزب الحاكم رمز غطرسة وفساد، فعلوا به أكثر مما فعل العراقيون والسوريون بتمثيل طواغيتهم، أحرقوا مبنى ديوان الزكاة، الذي يمثل لهم تلاعبا بدين، جباية الزكاة وإنفاقها في نظرهم لا يتم بما يرضي الله ورسوله، تصدت لهم بعنف مفرط أجهزة أمنية، ضربت من ضربت، اعتقلت من اعتقلت، وقتلت من قتلت، لم يستقبل الناس الحدث بدهشة واستغراب، متوقع في ظل حكم باطش استعداد لمثل هذه اللحظة بسن قوانين مقيدة للحريات، وبحشد قوات أمنية مطيعة لا ترحم، استقبلوه بدرجات متفاوتة من رفض وقبول، لمن قرأ الواقع بعين حسيبة فإن هذا الأمر ما كان مفاجئاً وإنما متوقع حدوثه في أية لحظة، ومن مستغرب تأخر حدوثه نظراً لأن كل المعطيات من سوء أحوال سياسية، اقتصادية، ومعيشية تشير إلى أن هناك قطاعات شعبية عريضة نفذ صبرها وبدأت تتملل منذ زمن طويل، نعم منذ زمن طويل، حكام في وادي وشعب بأئس ينادي: نريد دراهم تعيشنا،

مواصلات تليق بإنسانيتنا، تعليم لأولادنا، مستشفيات لعلاجنا، علاج ودواء لنا ولأطفالنا، حرية كرامة، لا لتضخم احتكار، لا لأسعار تطلع ليل نهار، لا جبايات، رسوم، رشوة، محسوبة، واسطة، تمكين، فساد، كبت حريات، اعتقالات، تفتيق قضايا، لا نريد النظام برمته.

لديه عادة لا يحيد عنها، في طريقه للبيت عائداً من المسجد بعد أدائه لشعيرة صلاة العشاء، يمر على صديقه (أميرو) صاحب ورشة إصلاح الإلكترونيات، جامعي خريج إعلام، لم يفتح الله عليه باباً للرزق، أينما ذهب سدت في وجهه الأبواب، وجد نفسه مجبراً لا بطلاً على ممارسة مهنة يراها أشق من تكسير صخور الجبال، المعاش جارة، وما جابر على المر إلا الأمر منه، أبو عيال في زمان يا ويل فيه لمن له عيال، طويل قامة، نحيف جسم، تقاطيع وجه مسالمة، جاب دول مغرب عربي، قضى فيها شطراً كبيراً من عمره، اكتسب قدراً كبيراً من حكمة ومعرفة، يتحدث في بطنه محبب بعد أن يقوم بغرلة وترتيب ما يعن له من أفكار. بدون مقدمات وجدا نفسيهما يخوضان في خير الساعة، الخبر الذي زلزل كل أركان البلد، الخبر الذي دق ناقوس الخطر لنظام نام نوم عافية، ظناً منه أنه باق إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

سأله بعفوية:

(هل سمعت يا أميرو بأحداث عطبرة؟).

رفع رأسه، نظر نحوه بعينين مشرقتين بآمال وأحلام عريضة، ثم أجاب بابتسامة نبيلة بعد أن وضع كاوية لحامه بقرب جهاز تلفاز معطوب مفتوح أمامه قائلاً:

(يا أستاذ ناس عطبرة ديل رجال وأولاد رجال، سبقوا الناس، عملوا المفروض يعملوه كل الناس من زمان).

شجعته الإجابة، سأله ثانية:

(يعني أنت معهم، ومؤيدهم؟).

أجاب في نشوة:

(كيف ما معهم، في زول فاهم ما معهم، في زول عاقل ما معهم، الحالة قرف وزفت، وصلت إلى ما دون الحضيض، رغيف بالصف، بنوك بالصف، سيولة (باح) يعني ما في، علاج صف، بنزين وجاز صف، علي بالطلاق بول السوق بالصف).

أردفه بسؤال آخر:

(وحكاية مظاهرات عطبرة دي ماشه لي وين؟ فورة ملح أندروس، وبعدين كل واحد يمشي في حاله، وخلص يا دار ما دخلك شر، ولا البلد كلها ح تولع نار؟).

رد بنشوة أكبر:

(يا أستاذ الحكاية دي كبيرة، أول شيء عملوه المتظاهرون قاموا بحرق مقر الحزب الحاكم، عارفين السرطان وين، عارفين يمشوا وين، عارفين المصائب من وين، عارفين التماسيح، والثعابين، والعقارب طالعة من وين).

سأله:

(يعني الدنيا ح تتركب وتولع؟).

رد بلهجة حاسمة قائلاً:

(علي بالطلاق تولع نار، نار جهنم، ما تخلي فاسد ولا حرامي).

في هذه الأثناء جاءت (تونة) المشاعبة للمحل، سألت في عصبية ظاهرة:

(أها يا (سانيو) إن شاء الله صلحت لي تلفزيوني؟).

رد بنبرة لا تخلو من ضيق:
(تلفزيونك موديل قديم جدا، قطع غياره معدومة، إلا تشليح، شوفي ليك حل ثاني).

ردت بنبرة لا تخلو من مرارة:
(من وين يا ود الحلال، الظروف إنت عارفها، التلفزيون ماسك العيال في البيت، بدونه ما معروف يحصل عليهم شنو).
صمتت لبرهة، همهمت، ثم استطرقت قائلة وهي تجرر رجلين ثقيلتين:

(خليه معاك، يمكن ربك رب الخير يفرجها).
هز كل منهما رأسه في حسرة، خاطبه قائلاً:
(أنظر إلى أي درجة وصل بالناس الحال، نرجع لما انقطع من حديث، أنا خائف نار الثورة تحرق شبابنا، ونحن العجائز نقعد نتفرج عليهم).

رد ساخطاً:
(يا أخوي وصلونا لي حنة لا وصلها يمني، لا سوري، لا صومالي، نتفرج على شنو، على سجم وجوهنا؟ ولا على رماد كال عيوننا؟).
قال في مرارة:

(ثلاثين سنة حولتنا إلى دجاج، نعاج، غنم، حمير، ثلاثين سنة ما شميننا فيها ريحة حرية، أيام البترول اقتصادنا تحرك شوية، طفرة، لكن قطار حريرتنا لم يتحرك، كتموها، خنقوها، راحت أيام وانفصل جنوبنا الحبيب، بعده ما شُفنه إلا سود الليالي).

رد في حسرة:

(يا رجل أحسبها صاح، طفرة قال، أدونا فُتات وباقيه لهفوه، أمشي ماليزيا ودبي، عشان تعرف حاجة، عشان تعرف طفرة وين، مشت وين).

قال:

- (يعني نفهم إنه البلد خلاص انتهت، عليها العوض، إقطاعية، إمارة، مملكة مسجلة باسمهم، خلاص بلد جميل سقط، وقع، برك، لن تقوم له قائمة بعد الآن، إلى متى خوف وسكوت، الساكت على الحق شيطان أخرس؟).

رد قائلاً:

- (يا راجل كيف تقوم ليها قائمة؟ بلد في قبضة واحدة، حزب حاكم هو حكومة، جيش، شرطة، خدمة مدنية، الكل في الكل، يعني بلد مبلوعة في كرش، يعمل فيها زي ما داير، ما في زول يتكلم، الكلام قلة أدب، قطع لسان، طاعة للنهاية، رأس مطأطأ لتحت، وإلا عصا، خرطوش، كرباج، شلووت، وبيت أشباح).

قال:

- (يا خوي بلدنا دي مش ماسكاها قبضاية واحدة، ماسكاها ثلاث قبضايات، أسرة حاكمة (همس قائلاً: خليها سر بيني وبينك دي حته خطرة جداً ممنوع كلام فيها)، حزب حاكم، ورأسمالية طفيلية، عفنة، فاسدة، نبتت ترعرعت تحت رعايتهم، الثلاثة عاملين رباطين علينا).

في تلك اللحظة أتى زبون أثيوبي، سأل بلهجة مكسرة:

(يا أَسْتَى، تلفزيون خلاص شوف؟).

أجابه قائلاً:

(إنت جيب تلفزيون عصر، يتصلح مغرب، في تلفزيونات كتير قبله، إنت يجي بكرة).

رد بنبرة ممتعضة:

(كويس، لكن صلح كويس).

مد للأستاذ كوب ماء بعد أم ملاء من حافظته العتيقة التي أكل عليها الدهر وشرب ثم خاطبه قائلاً:

(الله يطولك يا روح، نحن نطلع القروش بسل الروح، ما علينا، نرجع لحديثنا، قلنا سرقونا، قالوا لينا الطير بأكلكم، وقالوا نحن حساد لا نحب الخير للناس، قالوا ديل عملوا ثرواتهم بعرق جبينهم، بهمتهم، ونشاطهم، وعقولهم، وأنتم كسالى تنقصكم ثقافة عمل، إنتاج، وتدوير رأس مال، قالوا نحن ناس شمرات لا نحسن إلا قوالات، شمشرة، وإشاعات، وتدبيج قطيعة، نميمة، وقيل وقال، وكُن وكان).

رد بنبرة ساخرة:

(خلاص نمشي حسب الموجة على هواهم يا أسطه، الهوى هوايا، نأخذ الحكمة ولو من أفواه المجانين، شهادة الجامعة أنساها أرميها في برميل زباله، الشهادة وسيلة ليست غاية، الحمد لله الآن عندك صنعة، صنعتك تكسب ذهب، أسمع كلامهم، كُد، اجتهد، تلحج، طور محلك الظريف ده لورشة حديثه، وبعدها طوره لشركة، وبعدها طوره لمصنع قد الدنيا).

رد بلهجة غاضبة تأثرة:

(يا خوي دي أحلام زلوط، أنا مش من النافذين، ولا واجهة لأحدهم، ولا بتاع كده وكده، ولا نزلت علي ليلة القدر، بس يخلونا في حالنا، يمسكوا مننا أوباش محليتهم، جننونا، عذبونا، كل ما أشوفهم النار تولع جواي، الشيطان يوسوس لي أحرقهم، ولع فيهم، بلاء يأخذهم، أحرق نفسك، أحرق الورشة، أحرق البلاد كلها).

رد قائلاً:

(يعني الحكاية خرابانة شديد، لا أمل في إصلاح أو تغيير).

- (قنعنا من خيرٍ فيها، راحت علينا، الخلاص إلا من رب العالمين).
- (السماء لا تمطر ذهباً، نسعى وربنا يعدلها، الناس مخدرون،
نائمون، شبه ميتون، يعني نمسكها من نهايتها، نجيبه على بلاطتها،
تغيير حالنا من المحال).

- (ابن آدم أمره عجيب، حيله ميت، أهون من دجاجة، تشوف منه
عجب عجاب، يشتم، يضرب، يسرق، ينهب، يغتصب، يقتل، يرتد
أسفل ساقلين، يتحول إلى شيطان رجيم).

- (الأيام بينا، وربنا يكذب الشينة).

- (يا عزيزي في كتب التاريخ القديم والحديث، ما من ثورة شعبية
قامت ماتت أبداً، الثورة مد وجذر حتى تحقق أهدافها، الثورة قبل
خمس سنوات طلعت فوق ثم انحسرت، الآن تطل برأسها من جديد، ما
معروف تهمد ثم تولع مرةً أخرى، أم تنتصر).

- (يا عزيزي الفاضل، ظروف داخلية راهنة تساعد على إزكائها،
اقتصاد منهار، فساد مستشري، عدم مصداقية، الخارج لا يعول عليه،
ما دام النظام مطيع لهم، ينفذ لهم ما يريدون، لن تحرك لهم شعرة
أفعال وحشية يمارسها ضد المحتجين، مصالحهم تبقى، الشعوب تغور
في سنين ألف داهية، وتغور معها الحرية، لأن الحرية ليست للجميع،
الحرية حصرياً لهم وليست لنا).

سأل قائلاً:

(حيرتني معك، يعني حكاية هبة عطبرة دي الله يكون في عونها، ما
معروف ترسى على وين؟).

رد قائلاً:

(المنفائلون يقولون ثورتنا هذه المرة ستنتصر، بشرط أن تظل مواكبها سلمية، مدورة لا تتوقف مهما استخدم النظام من آليات عنف وأساليب بطش، المتشائمون يقولون النصر بعيد المنال، الجماعة ديل ماسكين فيها بأيديهم وكرعبيهم، أمورهم خربانة، يتبعون خطوات معلم كبير اسمه بشار، أرض محروقة، إما أن يحكمونا بحديد و نار، وإما كل واحد منا يشيل بقجته ينزح أو يلجأ في أرض الله الواسعة).

رد بنبرة لا تخلو من مرارة قائلاً:

(حيرتني يا صديقي ذكرتني أستاذنا العقاد:

حيران، حيران، لا نجم السماء، ولا معالم الأرض في الغمام تهديني يقظان، يقظان، لا طيب الرقاد يدانيني، ولا سمر السمار يلهيني — غضبان، غضبان، لا الأوجاع تبليني، ولا الكوارث والأشجان تبكيني). نهض وقف على رجليه بصعوبة بالغة لأن طول القعاد أبطأ من دورته الدموية، خدر وخشب بدنه، ثم في تناؤب خاطبه قائلاً:

(الثورات أمرها عجيب، مخاضها يأخذ وقت طويل، عوامل كثيرة تتداخل، وتتشابك، وتتفاعل، لتمهد لها الأرض الخصبة التي تضمن لها البقاء، الناس تفعل وفي النهاية الله يفعل ما يريد، السلام عليكم، تصبجون على خير، الصباح يا عزيزي رباح، وغداً لناظره قريب، والنصر لكل حر ثائر، والخزي والعار لكل مستبد طاغ، نحن عجائز وقودنا قليل، نلملم باقي عظامنا من بدري، ويله يا أيها الفراش، يا وثير، شد حيلك، يرقد عليك الليلة ثائر غضنفر).

هتافات ثوار

الناس بعد ثلاثين سنة كبت، قهر، وظلم، رأوا فيها نجوماً في عز
الظهر، معبأين جاهزين للانفجار، مع ضربة البداية سرعان ما
استشرت المظاهرات كالنار في الهشيم، كرة من لهب، لحقت بركب
المظاهرات بورتسودان، ثم القصارف، ثم دخلت الخرطوم على الخط،
وتبعته مدينتا أم درمان والخرطوم بحري، ثم الأبيض، سنار،
وكوستي، بعد أن كانت القضية تتمحور حول مسائل اقتصاد ومعايش،
تطورت إلى مناداة بحرية، ديموقراطية، وحقوق إنسان.

هتافات جماهير غاضبة وصلت عنان السماء، هزت أرجاء
الكون، زلزلت الأرض تحت أقدام طغاة، صحت نائمين وغافلين،
أدخلت شجاعة وحماسة في قلوب جناء ومترددين.

(حرية.. سلام.. وعدالة.. الثورة خيار الشعب).

ما أحلاها وما أبسطها من عبارة، لخصت ملحمة وثورة شعب
في ست كلمات، في ثلاثين حرفاً، كل حرف بسنة، ثلاثون سنة
انعدمت فيها هذي الثلاثة أشياء الجميلة، أصبحت إكراميات، يستجديها
مواطنون طيبون، من جلادين حرموهم متع الحياة، ما تركوا لهم من
خيار غير خيار نضال صعب، اختاروه مجبرين، ولجأوا
إليه مكرهين.

هتافات ثورية عبقرية، مترعة بقوة، إصرار، وتحدي:

تسقط بس..

حكومة الذل تسقط بس..

حكومة الموت تسقط بس..

حكومة القهر تسقط بس..

حكومة العسكر تسقط بس..

حكومة الجوع تسقط بس..

حكومة الجبهة تسقط بس..

حكومة الكوز تسقط بس.

اقتربت الحكومة عندهم بذل، قهر، جوع، عسكر، جبهة، وكوز؛ وما من سبيل للتخلص من كل هذه المصائب إلا باقتلاع النظام من جذوره، كفاية، جثم على صدورهم ثلاثين سنة، وسعى لأن يحكم إلى أن تقوم الساعة، مسخرة، حكام ينادون بتطبيق شرع الله، لا طبقوه لهم، ولا أعطوهم حريتهم، ولا عدلوا بينهم، يعيشون في رغد وبحبوحة، وهم، ملح الأرض يعيشون كمعيز تخرط صفق شجر القرض.

(يا خرطوم ثوري.. ثوري ضد الحكم الدكتاتوري.. تسقط بس).

الخرطوم هي الرأس وباقي الأقاليم الذنب، لذا إذا ما ثار الرأس قطعاً يثور الذنب، وثورة الخرطوم تأثيرها أكبر، عدد سكانها يمثلون تقريباً ثلث سكان البلد، وفيها حكومة، رموز حكومة، رموز نظام، مال، حسابات بنكية، خزن، حاويات محشوة جنيهاً، ريالاً، دولارات، عمائر سامقة، مزارع، حدائق وارفة الظلال، شركات متعددة الأغراض، سفارات أجنبية، وجامعات.

(كتمت، كتمت)

الطلقة ما بتكتل

بكتل سكات الزول).

خلاص البلد هبت، الثوار نزلوا الشوارع، هتافاتهم أسمعت من بأذنه تُقل، ومن بها صمم، أسمعت قاصي وداني، نزلوا وهم يؤمنون أن من يموت منهم بطلقة زبانية نظام.. شهيد، لأنه يقول كلمة حق في وجه سلطان جائر، والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، يؤمنون بأن السكوت على الظلم، علامة رضا، وذلك عين الموت، السكوت على الظلم يغري الظالم بالتمادي في ظلمه أكثر فأكثر، ويُمكنه من رقاب الناس أكثر فأكثر، ويجعل المظلوم في نظره يصغر، ويضمحل، ويتلاشى أكثر فأكثر، مجرد مريض ميؤوس منه في غرفة عناية مركزة، في حالة احتضار دائم، لا هو ميت يُدفن، ولا حي يُرجى.

(يا ماشي أم درمان

جيب لي معاك بمبان

شرطاً يكون مليون

لا فاضي لا كملان).

أم درمان عاصمة وطنية، عاصمة ثورة المهديّة، الثورات كلها ترضع من ثدي واحد، ثدي نضال ضد استبداد، البمبان سلاح كل نظام باطش، الثورة تنادي على عشاقها، يا أحبتي اذهبوا إلى أم درمان المهدي، التعايشي، النجومي، أحضروا لي مهري، انتزعوا بمبان مليون من أيدي قتلة، ذئاب مسعورة، ليكون قلاذتي التي أزين بها جيدي، في يوم عرسي.

(سلمية، سلمية)

ضد الحرامية).

هنا يقع بيت القصيد، ما كلهم حرامية، منهم حرامية، ولكن من هم الحرامية؟ الناس لهم عيون ترى، وأذان تسمع، يتداولون حكايات، منها صدق ومنها كذب، يقولون الحرامية مواطنون عاديون، كانوا يعيشون وسطهم عيشةً أقرب للكفاف، يروحون ويجيئون ماشين على أرجل نصف حافية وبملابس أسمال رثة قديمة، منهم من كان موظفاً عادياً يركب مواصلات، منهم من كان يشحذ سفة سعوط، منهم من كان عاطلاً يتردد على ستات شاي، منهم من كان يعمل كمساري حافلات، منهم من كان يركب موتر أو دراجة، منهم من كان يبيع كرور أمام مستشفيات، ومنهم الأمي الذي لا يفك خط، أمثلة عديدة يصعب حصرها، خلال هذه الثلاثين سنة قفزوا بقدره قادر من أسفل سلم اجتماعي إلى أعلاه، بعد أن كانوا لا يملكون من الدنيا إلا حطامها صاروا أصحاب عمارات، مصانع، سيارات فارهات، وبدلاً من زوج واحدة أربع أزواج، قانون من أين لك هذا يفرون منه كما يفر المعافى من الطاعون والجذري، لأنه يكشف المستور، لن تعود (ريمه) إلى عاداتها القديمة، لن يرضى مغفل الخروج من زمرة أولاد العز ليلتقط ساقط الرزق مثل أولاد الوز، لأن اللعب كان على المكشوف، على عينك يا تاجر، لا خوف من الله ولا من زول، ما دام لا رقيب لا حسيب، (البلد بلدنا ونحن أسيادها)، (من زرعنا يجي يقلعنا)، (الدايرنا يلحس كوعه)، نسوا أن للناس حواس شم قوية، وعيون لها نظر حاد ثاقب، وعقول تفهمها وهي طائفة، يميزون بها بين خبيث وطيب، وذاكرات تحتزن حقير، تافه، وجليل من الأمور، وأن سنة الله ماضية في الكون، لكل بداية نهاية ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام، صدق من قال: (إذا رأيتمونا بنينا عمارات قولوا علينا حرامية)، لذلك فإن أخطر الفئات، فئة رأسمالية طفيلية فاسدة، هم عتاة مجرمين، أعظم خطراً على ثوار الشوارع، لأنهم ملثمون، يستهويهم عمل عتمة

وظلام، مسلحون يقاتلون لآخر رمق، إنها مسألة حياة أو موت، قاتل أو مقتول، كيف لمن ذاق يوماً طعم جوع، فقر، فاقة في حفرة، أن يفرط ليعود مرةً أخرى إلى تلك الحفرة؟.

(يا عنصري ومغرور

كل البلد دارفور).

و(تكسر سنك

تقلب هوبه

كل البلد

جبال نوبة).

نظام أعاد أشياء بغیضة ظن الناس أنها تلاشت اندثرت إلى الأبد، ذهبت إلى غير رجعة، حذفوها من قواميس لهجاتهم المحلية، عنصرية (عربي، زنجي)، قبلية (دنقلاوي، شايقي، جعلي، بديري، نوباوي، زغاوي، رزيقي...)، جهوية (شمالي، غرباوي، شرقي، جنوبي)، مما زاد الطين بلة اتهامات موجهة من قبل محكمة جنایات دولية بارتكاب جرائم إبادة جماعية في حق مواطنين مدنيين فور ونوبة، شعارات ثورية وحدت شعباً، ذمت ممارسات خاطئة قسمت مجتمع واحد متجانس، إلى كيانات متفرقة متصادمة، يجاهر كل منها الآخر عداءً ومسخرة، أما كسر السن، حكاية لسین رئاسية وقعت لطالب خلال عطلة مدرسية، طاح من سقالة بناء، جاءت بنتائج عكسية، رد الناس كان مفحماً، البسطاء لا يعرفون تزلفاً ونفاقاً سياسياً، لا يطمعون في منصب أو جاه، لا يتهافتون على موائد سلطان، (الفقر عندهم ليس عيباً، ولكن العيب في أن ينسى فقير أنه كان فقيراً، ويزدري فقراً وفقراء).

(نحننا طلعلنا من الحوش
يسقط ويسقط قوش).

(قوش) رجل مخابرات النظام، ارتبط في أذهان الثوار بأسماء مصاصي الدماء على مر التاريخ (نيرون، هولوكو، جنكيزخان، هتلر، موسوليني، فرانكو، دينوشييه)، رسالتهم له، مهما تفننت في أساليب بطش، تعذيب، وتنكيل لن نخاف، لن نركع، لن نرفع راية بيضاء، لن نترك شارع، سننتصر، لا بد أن ينتصر خير على شر، كما ذهب الطغاة وبقيت شعوبهم، سوف تذهب أنت إلى مزبلة التاريخ، غير مأسوف عليك، ويبقى الثوار أهل الأرض.

(سقطت، سقطت، يا كيزان

سقطت، سقطت، علي عثمان).

نائب أول سابق للرئيس، استفزته هتافات ثوار، دفعته في لحظة تهور غير محسوب سياسيا لأن يبوح على الملأ بسر مزلل مدفون، أطلق تصريحات خطيرة (الذي يظن أن الجيش سيتدخل هو واهم، الجيش لن يتدخل أبدا)، (أن هناك كتائب ظل تحمي الرئيس ومستعدة للدفاع عنه بأرواحها)، والثوار يردون في جسارة (لن تنفع كتائب ظل أو غل، القوة مع الحق، من عدل لا يلجأ إلى فضائح ومهازل، شعبٌ أجيُّ قال كلمته، هي أعلى، وما دونها أسفل).

بدون ترتيب أو تخطيط مسبق أصبحت ورشة أميرو منتدى يرتاده شلة من الناس، بعضهم لهم صلات بينية ومعرفة سابقة، وبعض آخر يلتقون لأول مرة، تبادل وتناقل أخبار الثورة هو ما يدفعهم للمجيء إلى هذا المكان، مروان (تفطيس)، يعمل في السعودية، عاد للبلد في إجازة طويلة، سمسار سيارات، قسماات وجهه ضاحكة

مستبشرة، بشرته سمراء، سودتها أشعة شمس حارقة، طوله متوسط ، هادئ الطبع، يتحدث بصوت خفيض، في صوته لثغة خفيفة، يتخير كلماته بعناية، لا يجنح للشتم والسباب، (عدولة) صحفي مارق لا يتعاطى الصحافة، ومعلم لا يتعاطى التعليم، قامته قصيرة، متوسط العمر، نحيف بصورة باننة، سمرة بشرته فاتحة، أصلع الرأس، تقاطيع وجهه حادة، الكلمات تخرج من فيه كسيل ماء جارف، يرمي بما عنده من كلام في سرعة البرق تجعل من مستمعه أطرش في زفة، سموه (قَرَبَت)، كلمته السحرية التي يستخدمها لحل أيتها مشكلة، محمد، صاحب مائة صنعة، قامته قصيرة، صديري سواكني فوق جبة يميزه عن مخاليق الله، أسمر بشرته سمراء، سمرة داكنة، محياه حسن، بابتسامة لا تفارق وجهه أبداً، سموه (ثنو)، أداة استفهامه التي يرددها باستمرار، سفيان، بناء محترف، بشرته سمراء سمرة غامقة، قامته قصيرة، جسمه ممتلئ، عضلاته مفتولة تمكنه من أداء أي عمل شاق، اغترب في بلاد عربية كثيرة وعاد بعد سنوات طويلة بخفي حنين، لا يطيق كثير كلام، لا يميل إلى التحدث كثيراً، يحسن الاستماع، لا يطيق الجلوس طويلاً، يعود أدراجه من حيث أتى، سموه (سلمون) لأنه يتحدث بثقة فائتة الحد، وليد، سائق ركشا، داكن البشرة، قصير القامة، صارم قسمتات الوجه، شحيح الكلام، سموه (يا عم)، لأنه ركشجي، يظهر لبرهة ثم يختفي من المشهد لأنه في حركة دائبة، لا يهدا له بال، إلا إذا اصطاد راكباً لركشته القديمة التي عفا عليها الزمن، وكثيراً ما يعمل في أجزاءها فكا، وربطاً، وإصلاحاً، علي (الصامت)، عاطل عن العمل، خفيف الجسم، خفيف الظل، خفيف الروح، سموه (الصادق) لأنه لا يتحدث إلا لمأماً، يأخذ ولا يعطي،

الصديق، تقاطيع وجهه هادئة، يظهر ويختفي لأيام، سموه (تكتك)، سائق تكتك، كثيراً ما يكون مشغولاً بِتُكَّتِكِه الذي يشبه حمار حرون، وكيف لا يكون كذلك، صنع في الصين، (مييد إن جاينا)، التي أغرقت البلد بمنتجات صنعت لتفنى لا لتدوم، حسن، أسمر داكن البشرة، طويل القامة، قوي البنية، مستمع جيد ومتحدث جيد، معرفته جيدة بوسائل الاتصال الاجتماعي، سموه (أبو علي)، لأن كل من يحمل اسم حسن في البلد هو (أبو علي) (أبوه علي)، تيمناً ومحبةً في الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما.

على الطرف المقابل من الميدان الذي يتوسط الدكاكين كان هناك منتدى آخر، إنه مغلق أبو العباس، صاحبه أسمر البشرة، مربوع القامة، باسم الوجه، سمح القسمات، مع أنه في مقتبل العمر إلا أنه أصلع الرأس، ذو ثقافة عالية في شئون تجارة وحية، منذ أن أكمل مدرسته الثانوية وهو يعمل في مجال تجارة مواد البناء، مولع كأبيه بالشأن العام، عمل الخير، يؤم منتداه ثلاثة أشخاص، (شنيبو)، صاحب عربة كارو يجرها حمار أبيض، يحمل عليها طلبات زبائن المحل، قصير قامته، حاد وصارم قسمات الوجه، وخط الشيب شعر فوديه، نحيف الجسم، ولكنه ذو قوة بدنية هائلة، تمكنه من القيام بأعمال لا يقدر على فعلها الشباب، اغترب في شبابه عمل سائقا للشاحنات في بلاد عربية، بعد تقاعد اختياري، طلق مهنته السابقة، تحول طائعا مختاراً إلى سائق كارو، أمي لا يفك الخط، موسوعة في الأدب والحكايات الشعبية، عبد الحليم، قصير القامة، لا تفارق النظرات السوداء عينيه أبداً، نحيف الجسم، سريع حركة المشي، كان في شبابه مكتنزاً شحماً ولحماً، أنصاري على السكين، سموه (الزعيم)، لأنه لا يقبل البتة أية إشارة سالبة أو غير مليحة في أنصار المهدي، احتكاكه

بعدد كبير من الساسة وأعيان المجتمع أكسبه قدراً كبيراً من المعرفة التي تعينه على جذب الأسماع، عزيز، أسمر البشرة، فاتح اللون، قصير القامة، ضخم الجثة، يعاني من مشاكل صحية، يتوكأ على عصا خشبية، ساقاه اللتان يشتكى منهما لا تقدران على حمله، سموه (هندسة)، لأنه عمل مهندساً ميكانيكياً بعدة شركات ومصانع قبل أن يداهمه شيب ومرض.

كان الأستاذ محافظاً على ارتياد المنتدى الأول مساءً بعد صلاة المغرب، والمنتدى الثاني نهاراً بعد صلاة الظهر، لم تقتصر هذه العادة عليه لوحده وإنما عمت الجميع، كلهم كانوا يأتون محملين بالأخبار، يتصلون بأهل، بمعارف، بأصدقاء في كل ربوع البلد، منهم من يدخل مواقع تواصل اجتماعي، على شبكة عنكبوتية عالمية، بالبلدي كده كان هو همزة وصل بين شلتين، ما يستجد من أخبار هنا ينقله إلى هناك والعكس صحيح، كل الرواد كانوا من أنصار تسقط بس عدا شخص واحد، (شنيبو) شيخ العرب كان من أنصار تقعد بس، بحسابات بسيطة إذا اعتبرنا رواد المنتديين عينة إحصائية حجمها اثنا عشر مفردة، منها إحدى عشر تسقط بس وواحد تقعد بس، فإن نسبة تسقط بس تمثل اثنين وتسعين في المائة من إجمالي مفردات العينة، وبتعميم هذه النتيجة على جموع الشعب بنسبة خطأ عشرة في المائة، إذن نسبة أنصار تسقط بس تصل على أقل تقدير إلى اثنين وثمانين في المائة.

(٤)

تجمع مهنيين

استمرت المظاهرات لأسبوع أول وثاني، مع استمرارها أصبحت اللقاءات في المنتديين يومية راتبة، من الصعب رصد كل ما ورد فيها من أحاديث، دردشات، مُلح، طرائف، لأن هذا ليس الهدف، وإنما الهدف نقل نبض شارع صامت، ردّ على مُدعين يلعلعون في وسائل إعلام محلية وعالمية زوراً وبهتاناً، بأن من يتظاهرون يمثلون أقل من خمسة في المائة من الشعب، بينما الحقيقة الدامغة العكس تماماً، وإن كانوا فعلاً صادقين، فلينفتح باب حرية التظاهر على مصراعيه، لينفضحوا أمام العالم، أكثر مما فضحتهم صور صادمة، حيرت عالماً حراً وأذهلته، صور قتل، سحل، وركل لمتظاهرين سلميين عزل، لا يرفعون سوى أكفأ عارية، تحمل أغصان زيتون، يصدحون بحناجر جافة، يتغنون بحرية، حب، وسلام.

جاء مبكراً، جلس على مقعد وحيد طرف ورشة الإلكترونيات، أميرو لا يرحب بالضيوف لأنهم يطفشون الزبائن، هتف قائلاً:
(يا خوي البلد دي ماشه لي وين؟).

رد بنيرة ساخرة:

(ماشه لي بئر أم جُب، ألم تشاهد ما جرى في المظاهرات، وكيف تم فضها بقوة غاشمة، ساحقة، ماحقة؟).

صمت لفترة، أطفأ الجهاز الذي يقوم بإصلاحه، ثم استطرّد قائلاً:

(يا خوي بشارة خير، في هذا الظرف الدقيق الحرج من مسيرة الثورة، ظهر في الساحة ماردي جبار اسمه تجمع مهنيين، هدية من السماء لشعب بئس تعبان، الثورة محتاجة لقيادة، خلاص القيادة جات، الثوار اصطفوا صف واحد خلفها).

سأل قائلاً:

(من هم هؤلاء المهنيين، من أين أتوا؟ ماذا يريدون؟ ما هي أهدافهم؟).
أجاب قائلاً:

(إنه تنظيم ثوري ظهر بعد انتفاضة سبتمبر، كونه مهنيون لا ينتمون لنظام أو حزب سياسي، مستقلون، يتحالفون مع كل معارض يسعى لإسقاط النظام، يقود المظاهرات السلمية في كافة أنحاء البلاد، دعوا له عبر مواقع تواصل اجتماعي معروفة، مطالب ثورة وحراك الشعب لخصوها في ثلاثة نقاط محفوظة هنا في ذاكرة هاتفك الجوال).
مدّ يده أمسك بهاتفه الجوال، فتحه ثم دفع به إليه.
بدوره أمسك به في لهفة، قرأ مرة، مرتين، ثلاث، وهو غير مصدق لما يقرأ:

أولاً: التنحي الفوري للرئيس ونظامه من حكم البلاد دون قيد أو شرط.
استخدام كافة أساليب النضال السلمي حتى يتم الخلاص من نظام الإنقاذ الشمولي وتحقيق الأهداف.

ثانياً: تشكيل حكومية انتقالية قومية من كفاءات وطنية يتوافق عليها جميع أطراف الشعب السوداني تحكم لأربع سنوات وتطلع بالمهام التالية: وقف الحرب بمخاطبة جذور المشكلة السودانية. وقف التدهور الاقتصادي وتحسين حياة المواطنين في كل المجالات المعيشية. عمل ترتيبات أمنية نهائية مكملة لاتفاق سلام عادل وشامل. الإشراف على تدابير الفترة الانتقالية وعملية الانتقال من نظام شمولي يتحكم فيه

حزب واحد إلى نظام تعددي يختار فيه الشعب ممثليه. إعادة هيكلة الخدمة المدنية والعسكرية (النظامية) بصورة تعكس الاستقلالية والقومية وعدالة توزيع الفرص فيها دون المساس بشروط الأهلية والكفاءة فيها. إعادة بناء وتطوير المنظومة الحقوقية والعدلية وضمن استقلال القضاء وسيادة القانون. العمل على تمكين المرأة السودانية ومحاربة كافة أشكال التمييز والاضطهاد التي تتعرض لها. تحسين علاقات السودان الخارجية وبنائها على أسس الاستقلالية والمصالح المشتركة والبعد عن المحاور مع إيلاء أهمية خاصة للعلاقة مع دولة جنوب السودان. التزام الدولة بدورها في الدعم الاجتماعي وتحقيق التنمية الاجتماعية من خلال سياسات دعم الصحة والتعليم والإسكان مع ضمان حماية البيئة ومستقبل الأجيال. إقامة مؤتمر دستوري شامل لحسم كافة القضايا القومية وتكوين اللجنة القومية للدستور.

ثالثاً: أن هذا البيان سوف تظل بنوده مفتوحة للإضافة. وقف كافة الانتهاكات ضد الحق في الحياة فوراً وإلغاء كافة القوانين المقيدة للحريات وتقديم الجناة في حق الشعب السوداني إلى محاكمة عادلة وفقاً للمواثيق والقوانين الوطنية والدولية. دعوة القوات النظامية للانحياز إلى جانب الشعب ومصصلحة الوطن والمواطن وبعدم التعرض للمواطنين العزل بالقتل والتنكيل.

بوجه طفق بشرا وسرورا خاطبه قائلاً:

(الآن فهمت يا عزيزي، أنه لم تعد مظاهراتنا عشوائية، وليدة لحظة، وإنما لها قيادة، ولها عقل مدبر، ولها تكتيكات، ولها أهداف محددة).

رد في تفاؤل:

(ألا تر كيف يقمعون المظاهرات، يفعلون ما لا يفعله اليهود بأهل فلسطين، لكنها تكبر وتتنظم أكثر وأكثر، يرتعدون خوفاً منها، لأنها تثبت هشاشتهم، وأنهم لا يقفون على أرضية شعبية صلبة).

رد في حسرة:

(زمان الشرطة قبل ما تقوم بفض مظاهرة يكون معها قاضي يأمر المتظاهرين بالتفرق، وبعدهم تنفيذهم للأمر، يأمر باستعمال غاز لطيف مسيل للدموع لإجبارهم على فعل ذلك، الحال اليوم تغير، مدنيون وعسكر يتصدون للمتظاهرين بوحشية، لا يتورعون عن ضربهم برصاص حي).

أطل تفتيس وعدولة بوجهيهما، وبعد أن ألقيا التحية جلسا على جذع نخلة مرمية طرف التعريشة أمام الورشة، تسمح بجلوس ثلاثة أشخاص بارتياح.

بنبرة ضاحكة مازحهم أميرو قائلاً:

(أين أنتم يا شباب، الشباب قاموا بدري من النوم، شباب حي نائر الآن يهز البلد من أولها لآخرها، وبأقدامهم يدكون الأرض تحت أي مستبد؟).

رد تفتيس وهو يكاد يطير من فرط الفرح قائلاً:

(زمان قلنا ماتوا، شعبوا موت، لا خير فيهم، لا خير فينا، السادة يدوسونا دوس، ونحن كالعبيد نطأطي لهم الرؤوس).

رد عدولة بلهجة غاضبية:

(والله فعلا بلدنا سادة وعبيد، فوق وتحت، زبانية يضربون برصاص حي، في رأس، في صدر، في منطقة حساسة، ما فارقة معهم، المضحك المبكي السادة أنفسهم يصفون زبانيتهم بأرذل الصفات، يتهكمون (دق العبد بأخيه)، يتفرجون عليهما، يتسلون بهما وهم يسحقون بعضهم بعضاً، مصارعة رومانية ممتعة، في نظرهم دماء تنزف وتسيل من أجساد متسخة نجسة، لأنجاس مناكيد).

رد تفتيس بحماسة منقطعة النظير:

(الهدف مكشوف، ما أشبه اليوم بالأمس، سيناريو سبتمبر يتكرر، بأسوأ مما كان، بنفس العقلية (أمسح، أكسح، ما تجيئه حي)).

رد أميرو في مرارة:

(يا أخوانا أشياء غريبة تحدث الآن، تاتشر تطارد، تصدم، تدهس بنية القتل وليس إلحاق الأذى - التفت نحوه- يا أستاذ مالك شاردي؟).

رد قائلاً:

(فعلا كنت شاردا مع هذه الأفعال الهمجية، من يقبضون عليه، الله قال بي قولوه، مصيره أسود، ضرب بيد، بعصا، بخرطوش، ركل، شلووت بالبووت، شتم، إهانة بكل لفظ سوقي فاحش).

رد أميرو بنبرة حزينة:

(يا أخوانا حتى كبار السن لم يسلموا منهم، ما عندهم وازع من ضمير، إنسانية أو دين، ليسوا بشرا، ليسوا مسلمين، ليسوا يشبهونا، من أين أتى هؤلاء؟ لا يشبهونا، لم يسفوا ترابنا، لم يرضعوا أئداء أماتنا، لم يشربوا من نيلنا، وحفائرننا، ودوانكيننا، ولم يملئوا بطونهم بعصيدة دخنا).

وصل وليد بأنفاس تعلقو وتهبط وهو يدفع ركشته من الخلف، هتف قائلاً:

(السلام عليكم، حيلنا مات، حلقنا نشف، أدونا مويه نشرب).

هاجمه تفتيس بلهجة حادة قائلاً:

(يا أسطى الركشه خلاص روحها طلعت، قالت ليك (إنت ما مديني حقي، بس تشيل فوقى وتودي) يا أخي أعمل ليها صيانة شاملة، أو شوف غيرها).

رد بلهجة مستنكرة قائلاً:

(يا عديم المفهومية، أفهم، المشكلة مش في الركشه، المشكلة في الوقود زايدنه مويه، المشكلة في الركاب، عجر).

رد تفتيس ساخرا قائلاً:

(عندي فكرة يا أبو مخ مقفول، اشترى حمار، خلي يجرها وريح بالك، ما علينا نرجع لموضوعنا، سألتكم بالله يا جماعة في كم جهة أمنية شغالة فض مظاهرات، شرطة، أمن، كتائب ظل، ملثمون، مدنيون، مجهولون، أشرار ظلاميون لا يعلم هويتهم وعددهم إلا الله، دي مش بلد، دي مش حكومة، دي فوضى، عصابات، مافيا، نهب مسلح، شياطين أبالسة يعيثون في أرضنا فساداً).

رد عدولة في غضب قائلاً:

(الجماعة ديل بعد نجاح ثورتنا لا بد من إخضاعهم لبرامج إعادة تأهيل، ليصبحوا مواطنين صالحين، قادرين على الانخراط في حياة عامة وسط المجتمع).

رد وليد في أسى قائلاً:

(نحن سائقو الركشات ركابنا نازلين طالعين، لافين الشوارع طول اليوم، لما نسمع الحكايات التي يحكوها شعر رأسنا يقوم، وجلدنا يكلب، شافع صغIRON لما يمسكوه، يرقصوا حوله كصقور كلدنج جائعة، ينهشون لحمه ويهرسون عظامه، جثة هامة يقدفون بها من فوق صندوق تاتشر، مجرمون، بلا عقول يعوون بها، ولا قلوب يرحمون بها، ذهبت إنسانيتهم يوم أن جلسوا يستمعون لغسيل مخ يتغذى بهوس، وكره، انتزع من أفئدتهم كل ما هو جميل نبيل).

ظهر (شنو) على المسرح، كعادته يأتي دائماً متأخراً، صاح قائلاً:
(الخبر شنو، الجديد شنو يا جماعة الخير، بشرونا).

رد تفتيس مبتسماً قائلاً:

(ما عندك صبر يبيل الأبري، الجديد الأمور تمام مائة في المائة، المظاهرات مائة في المائة، تجمع المهنيين فرض نفسه على الساحة مائة في المائة، الحرامية يرتجفون مائة في المائة، وهم الآن في حالة ارتباك شامل كامل، ما متوقعين أبدا شعب ميت، شعب نوم، فطيسة، تقوم له قائمة ثاني).

رد أميرو قائلا:

(اتق الله يا أخي في الدنيا ما في حاجة اسمها مائة في المائة، ومع ذلك الناس ديل لازم يتردموا أول بأول، على غفلة، قبال ما يجمعوا أطرافهم ويفكروا ويقدروا، الناس ديل مش لوحدهم عندهم ناس بره، مستعدين للوقوف معهم، السياسة مصالح، أديني أديك، شيلني أشيلك، تقيف معي اليوم أقيف معك غدا).

خاطبهم بنبرة متثابرة قائلا:

يا أخوانا أنسكم جميل، هواكم عليل ولكن ساعتني البيولوجية دقت، خلاص وقت النوم حل، نحن عجائز نفسنا قصير، ولكن قبل الوداع أسمعوا مني حوارا دار بين عمكم تنقو وعمكم توتو:

« ١ »

(يا عمو توتو)

توتو... يا توتو

الفاتك فوتو

فوتوا.. فوتوا

عايش في غابة

وحوش كذابه

لمتين تستنه

تمساح وذئابه

(يا عمو تنقو)

تنقو... يا تنقو

حليل الجنقو

وميري ومنقو

(يا عمو توتو)

توتو... يا توتو

الفاتك فوتو

فوتوا.. فوتوا

« ٢ »

كل يوم في محنة

تولد محنة

من وين نثنه

لا حقنة لا سنه

(يا عمو تنقو)

تنقو... يا تنقو

تعرف هوتو؟

تعرف كونغو؟

(يا عمو توتو)

توتو... يا توتو

الفاتك فوتو

فوتوا.. فوتوا

كتفك فرمته لحمه

دمك حرقتة فحمة

واقف في الشونة

بين بوم يا بومة

« ٣ »

(يا عمو تنقو)

تنقو... يا تنقو

تشرب مانقو؟

ولا تشرب بنقو؟

(يا عمو توتو)

توتو... يا توتو

ترقدوا تموتوا

تقوموا تموتوا

تموتوا تموتوا

(والحل يا تنقو؟)

تنقو... يا تنقو

يا معلم تيتو

موبوتو وبونقو

(الحل يا توتو)

زيرو.. ون.. توو

يفوتوا... يفوتوا

وسكنت شهرزاد الثورة عن الكلام المباح، والصبح رباح،
وتصبحون وتصبح ثورتكم على خير، ولا نامت أعين الجبناء، وثورة
حتى النصر، وتسقط بس.

لم ينم ليلته تلك، وكيف يأتيه نوم وأفكار وصور تتزاحم في
رأسه، شباب غض ولد في زمن هذا النظام، تركوا كل مغريات الدنيا
من خلفهم، ركلوها بأحذيتهم، تفوا وبصقوا عليها، منهم من ترك
قاعات محاضرات مكيفة، منهم من ترك أعمالاً تجارية رابحة، منهم
من ترك بيتاً وأولاداً، منهم من ترك مزرعةً وشيأة، منهم من أتى من
مكان بعيد، اصطفوا كلهم في صعيد واحد، جمعت بينهم أواصر حب
وطن مكلوم، وحدت بينهم أنانية وإقصاء لآخر، متفقون مجمعون على
عشق شيء اسمه حرية، الذود عن شيء اسمه كرامة، التوق إلى شيء
اسمه عدالة اجتماعية. حملوا أكفانهم على أكفهم، لا يبغون شيئاً سوى
رفعة وطن، ولكن! هل سينحاز إليهم شعب مغيب بأئس مسكين، أم
يقف على رصيف يتفرج، وهم يُضربون، يُسحلون، ويُقتلون، كأن
الأمر لا يعينهم من قريب أو بعيد؟

بعد الفراغ من أداء شعيرة صلاة الفجر جماعة بالمسجد، عاد إلى
داره، دخل غرفته، أول ما فعل فتح شاشة التلفاز، دار على قنواته
المفضلة، بي بي سي، فرنسية، شرق، مكملين، عربية، جزيرة، كلها
تناولت خبر الساعة، ثورة بلده، ضخامة الحدث جعلته يتصدر أخبار
العالم. يا سلام، يا سلام، سألت دموعه وهو يشاهد ثوار، شباب، في
زهرة صبا، في نضارة عمر، يتدفقون في سيول جارفة، يتدافعون
بمناكب، يهتفون ملئ حناجر، تذكر أياماً جميلة، ثورة أكتوبر، عندما
كان شاباً مثلهم، وشعب آنذاك شاب يتنسم عبير استقلال وانتماء لوطن
كما يتنسم هواء، وكانت أنظمة حاكمة آنذاك كانت تخشى الله، تخشى
الناس، وتخشى أن تأتي بفعل معيب، وعالم آنذاك كانت تحكمه مبادئ

وقيم سامية، غشيته سحابة طمأنينة، راحة، وسلام، راح في غفوة حلوة ما ذاق طعمها منذ مدة طويلة.

في اليوم التالي، قبل نصف ساعة تقريبا من موعد أذان صلاة الظهر مر في طريقه للمسجد على شلة أنسه الثوري الصباحية، شلة المغلق، وجد أربعتهم، كاملين غير ناقصين، أبو العباس جالس داخل محله خلف بنك خشبي معمول على شكل حرف إل بالإنجليزية، من ورائه تنتصب رفوف علب بهية ولمبات كهربائية، من الأمام تفصل بينه وبين أكياس إسمنت جبس، مسامير، وأنايب توصيل مياه مساحة تسمح لزبائنه بأن يتحركوا بحرية بالداخل، هندسة جالس على كرسي حديدي، مكانه متحف الخليفة لشكله الغريب ووزنه فوق الثقل، الزعيم جالس على كرسي بلاستيك صغير خفيف أزرق اللون، أما شنيبو كان في آخر اتكائه، خالف ساقيه فوق أكياس إسمنت، ألقى عليهم التحية، ثم وقف على مقربة منهم، لا يوجد مقعد يجلس عليه، ركاب الطائرة البوينج مكمثلون.

خاطبه أبو العباس قائلا:

(أفضل يا أستاذ أجلس فطورنا قرب).

رد متهكما:

(إلى متى وأنتم في ضلال غذائي، ألا تعلمون أن الفطور ملك البطون، والغداء أميرها، والعشاء خفيرها).

سأل الزعيم:

(يا أستاذ خيلنا من قصة الفطور، أها ما رأيك في الأحداث الجارية، أين تقف؟ مع قوي، ولا ضعيف، ولا ماسك عصا من نص؟).

أجاب متبسما قائلا:

(الحكاية لا تحتاج لسؤال يا أبو المفهومية، البلد انقسمت لثلاث فئات،
(تقعد بس)، هم النظام وأنصاره، لأن في زواله خراب بيوتهم، (تسقط
بس)، ثوار، شباب حر، في زوال النظام عودة لحقوقهم الضائعة
ودخول في ديمقراطية، والفئة الأخيرة أفراد شعب عاديين لا في غير
لا في نفير، وطبعاً واضح أنا فين.

رد مازحا:

(ما يمكن تكون واقف في الهواء، لا مع ديل لا ديل، ولا ديل؟).

رد في سخريّة:

(يا أخوي أنا ما رماني حمار صاحبك شنيبو، ولا عضتني حية، ولا
قرصني عقرب، ولا لابس جخ، ولا راكب أوباما، ولا، ساكن منشية،
ولا شركاتي متعددة جنسية، ما أنا إلا ابن امرأة تأكل القديد، وتسكن
بان جديد، ومن يوم ولدوها إلى أن دفنوها خائفة من الله خوف شديد،
وغير حمارها ما ركبت سيارة، ولا طيارة حديد، ولا قعدت في
مجلس أجاويد).

هتف أبو العباس سائلا:

(يا أستاذ بالله منطقتكم وين في بلدنا الواسعة دي؟).

أجاب قائلا:

- (بادية كردفان).

هنا، صلح شنيبو من قعدته، برم شنباته وهتف قائلا:

(هلا هلا إنت ماك زولي تب، أنا وأنت عرووب ساكت، أما الأفندية
ديل أهل بندر الله يكفيننا شهرهم، ثعالب مكارين، يا أستاذ والله أنا
أحترمك شديد، إت زول عزيز علي، وكلامي ما تأخذ فيه حاجة).

رد ضاحكا:

(أها يا شنيبو أنا سألوني سؤال ورديت عليه، أها إنت كان سألوك نفس
السؤال ردك عليه شنو؟).

أجاب بدون تفكير:

- (شوف يا أستاذ أنا زول عربي أمي ساكت، كلامي فوق لساني، أسمعوه وأرموه البحر، البحر قريب هاداك وراء البيوت هاديك، (لعبك مع المو قدرك يفكك صدرك)).

رد الزعيم مازحا:

- (احترنا معاك، ما فهمنا حاجة يا شيخ تيوس العرب).

رد في خبث:

(أنا زول أمي ساكت، لكن إن ما فهمتها بالعربي نفهمك ليها بالإنجليزي، اللي ما أنت قدره لا توقف ضده).

هاجمه أبو العباس قائلاً:

- (آخر زمن والله تعلمت لف ودوران يا شنيبو، ما تتكلم دغري).

رد قائلاً:

- (أهل المدن أصلهم طير، طير عجمي، أفهموها زي ما تفهموها، دي كلمتي ليكم، رأيك شنو يا أستاذ؟).

ضحك من كل قلبه وخاطبه قائلاً:

- (الله يجازيك يا شنيبو، ده كله يطلع من تحت رأسك، عشرتنا الطويلة دي كلها تنساها وتطلع في الآخر (تقعد بس)).

رد قائلاً:

- (شوفوا يا ناس هوي (الواضح ما هو فاضح)، أنا ما كان عندي لا عشة، ولا قطية، ما عندي إلا فرد راكوبة، زول مسكين ساكت، على

باب الله، اليوم الحمد لله عندي بيت ملك، عندي شهادة بحث، ثاني داير من الدنيا الفانية دي شنو، أداني البيت منو؟ مو ناس تقعد بس، خلاص

تقعد بس، وكل واحد عقلة في رأسه يعرف خلاصه، رأيك شنو يا أستاذ، أنت زول محترم).

رد قائلاً:

- (يا جماعة هوي الكلام ده أفهموه كويس، في كثيرين زي عمكم شنيبو ده، لا يفهمون حاجة اسمها ثورة، ولا حاجة اسمها شارع، ديل أنسوهم خالص، اعتبروهم سقط سهواً، وبعدين...).

قبل أن يكمل حديثه أتاها صوت الإقامة لصلاة الظهر، تركوا ما هم فيه من حديث، تركوا أبو العباس ليغلق محله، هرولوا مسرعين نحو المسجد وابتسامه من الفرح الندي ترف على وجوههم جميعاً، ثلاثون سنة ووجوههم لا تعرف غير تجهم وعبوس، وجوههم تبخرت منها مياه الحياة، أجدبت لا تنبت فيها زهرة ابتسامه، ولا وردة أمل، ولا ريحانة رجاء، ماتت في محياها كل قسمات جميلة، ظهرت فيها خطوط، تعاريج، ودمامل عجز، هرم، موت، وفناء.

(٥)

مد ثوري

يُعلم علم اليقين أن بلاده شابة، نسبة شبابها خمسة وخمسين في المائة من سكانها الأربعين مليون نسمة، بها ثمانية وثلاثين جامعة حكومية، ومائة مؤسسة تعليم عالي أهلية، متوسط القبول السنوي لجامعاتها ثلاثمائة ألف طالب، عدد طلاب التعليم العالي بها يربو على المليون؛ خمس شبابها عاطلون عن العمل، يبلغون مليوني شاب وقد يزدون، منهم أكثر من مليون جامعي؛ هم وقود الثورة، هم من يشعلون فتيلها، لذلك أغلق أهل النظام المدارس والجامعات بالضربة والمفتاح.

خرج المصلون من مسجد الحارة بعد أدائهم صلاة المغرب، كل ثلاثة أو أربعة يتهامون بما يجري من أحداث في بلدهم، جرحوا أرجلهم نحو بيوتهم في كسل وخمول، لأنهم يعرفون أن حارتهم مثل كل الحارات لا تخلو من (أمجية) كلاب حراسة النظام، لن يرحموا أحداً، لن يراعوا فيه جيرة، لا إلاً لا ذمة، ولا أخوة مسجد، فليلي يرفعون فيهم تقاريراً أمنية سرية، تحيل نهارهم ليلاً وحياتهم جحيماً. الجو كان صحواً معتدلاً في ذلك المساء، غمام بيضاء تسبح في الفضاء، هدوء يخيم على الأرجاء، جو مغرٍ للجلوس خارج البيوت، لأن البيوت نفسها مكتومة ما عادت أمكنة صالحة للناس يتسامرون فيها وتجادبون أطراف الحديث، الحديث في ماذا؟، حيواتهم الماضية جذباء من ذكريات جميلة، حيواتهم الحاضرة عجفاء مما هو حلو وزين، وحيواتهم المستقبلية رمضاء حارة سموم، لا طمأنينة، لا راحة، ولا هناء يرتجى منها.

توافد معظم أفراد الشلة الثائرة واحد تلو الآخر إلى مكانهم المعتاد، الذي تحول إلى واحة للحرية، بعد أن نفضوا ما بأجسادهم من غبار، عجاج، ووقر، ونفضوا ما بنفوسهم من عنت، شقاء، ورهق، جاؤوا ليغذوا أرواحهم بالتحليق في سماوات حرية رحبة، ولسان حالهم يقول: (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا).
قال أميرو بمزاج رائق:

- قعدتنا اليوم تصاحبها خيرات وفيرة، فول مدمس، تسالي، ترمس، وحافظة مملوءة ماءً مثلجا.

تبسم وليد وقال مستنكرا:

- يعني حاجاتك دي، ماشه تفتح لينا أبواب جامعات، معاهد، ومدارس سكروها بضبة ومفتاح عنوة واقتدارا؟
رد الصامت في لهجة غاضبة:

(يا أخوانا ده نظام عجيب، همه (نقعد بس)، تعليم ما في، نقعد بس، نجوع، نقعد بس، نمرض، نقعد بس، نموت، نقعد بس، لي متين نقعد بس دي).

رد عدولة بسخريته المعهودة:

(يا أخوانا ما تزعلوا)، دندن: (تقول هواي تستبعدو.. تضحي بيهو وتفقدو.. كلام زعل ما بنقصدو)،
ثم استطرده قائلاً:

(قربت، قربت، دنا قطافها، قال تعطيل دراسة قال، بسبب تخفيف المعاناة، نحن طرايطير نصدق أي كلام فارغ، ما يقول الروب نحن خائفين منهم).

رد تفتيس قائلًا:

(يا أخوي هوي ده قرار سياسة، نظام خائب خائف، لأنهم هم ديل شرارة ووقود الثورة في بلدك المنهوب، هم الذين يتحركون بوعي، ويحركون الآخرين، هم صناع النصر، ولا شنو يا أستاذ؟).

رد في مرارة قائلًا:

(لا يخفى عليكم خلال الاحتجاجات لم تفرق الاعتقالات بين أستاذ وطالب، ضاع الاثنان، بدلاً من أن يتخرج الطالب في أربع سنوات يتخرج في أكثر من ذلك، ما فارقه معهم، فلذات أكبادهم يدرسون في لندن، الصين، وماليزيا، هم حكام المستقبل، يمهدون لهم الطرق للحكم حتى ظهور عيسى عليه السلام، ومغفل نافع قاعدين يتفرجون ينتظرون يوم الفرج، يوم يتخرج العيال، ثم يشتغل العيال، يكسبون المال، ينهون به بهدلة، يأتي لهم ببجوحة؛ بسطاء، موهومون، مغشوشون، وهل هناك شغل بدون واسطة؟ وهل أي واسطة تنفع؟ أما الأساتذة فأمرهم أعجب، فكرهم معطل، ينحتون الصخر لتوفير أبسط مقومات حياتهم).

بابتسامة عريضة رد الأمير قائلًا:

(يا أخوانا منذ الاستقلال مر كم جيل، ثلاثة أجيال، جيل استقلال، معظمهم رحلوا، باقون منهم خارج شبكة، جيل ما بعد استقلال، منهم أحياء يرزقون، عطاؤهم موصول، وجيل حالي، يشعل مظاهرات على الأرض، يقود حرب إلكترونية في الفضاء، وناس (أكسح أمسح جيبه حي) شغالين بفارغة، شباب الفضاء ديل هم الرقم الأصعب في الحراك الثوري، لا طامعين في جاه لا وظيفة، لا عمارة، لا سلطان، راكبين رأس، طريقتهم اتجاه واحد، تسقط بس).

صاح عدولة بضحكة هستيرية وسخرية معهودة، بعد أن وضع سعوطه تحت شفته السفلى، قائلاً:

(يا أخوانا هوي والله أنا متكيف تمام، متكيف للنهاية، بسبب هتاف (سلمية، سلمية ضد الحرامية)، ده ألفوه كيف؟ جابوه من وين؟ عملوه كيف؟ ده لخص الحكاية كلها، الحرامية راكبين عربات يملونا بيها عجاج، نحن عارفنهم مثل جوع بطونهم، والله كانوا يشحدونا السفه، هسي الواحد سلام الله ما يرميه عليك، وإن سلم عليك يسلم بطرف أصابعه، خائفين مننا ننقل ليهم عدوى الفقر).
رد وليد قائلاً:

(يا أخوانا هوي، الحرامية قدادين الجيوب يسجنوهم، وناس الخم يرقوهم، ويرفعوهم، وينقلوهم من محل كعب لمحل سمح، ولا شنو يا أستاذ؟).

حك رأسه ثم رد قائلاً:

(يا أخوانا التعميم أحياناً ظلم، كلهم ما حرامية، فيهم ناس صادقين، فارقوهم لما غلبهم تعديل حال مائل، ربان السفينة وبحارته يقودونها نحو الهلاك، آثروا البعد تفادياً لفتنة، وتجنبنا لمتاعب).
رد شنو الذي حضر متأخراً وسمع طرفاً من الحديث قائلاً:

(قلت شنو؟ شنو يا عدولة؟ أولاً حكاية حرامية دي، غصبا عنهم يعترفوا بيها، مراجعهم العام كل سنة يدق ناقوس الخطر، بحه صوته ونشف حلقومه من الكلام في الفساد، وفي الآخر، خجلوا شوية، عملوا الفيلم الهندي السخيف، سموه التحلل، أبلع، أنهب، أسرق، وباب التوبة مفتوح، ادفع نص الهيرة وعفى الله عما سلف، يا أخوانا اللص الحقيقي ليس من يسرق جيبك بل من يسرق وجودك، ديل سرقوا النوم من عيوننا، أما السلمية دي قصتها طويلة، الثوار منفتحون، استفادوا من

تجارب ثورات العالم ومن تجربة سبتمبر، إذا لجأوا إلى الطريق الآخر، طريق العنف، هذا طريق مسدود، حتما خاسرون، عدوهم يمتلك سلاح وهمجية، وما فارقه معه، عينه قوية، الجنائية تحدها، خلاص البئبئبل يعوم، والعالم مع القوي، وروسيا حليف قوي، زي ما قعدت غيرهم، مستعدة تقدهم، وكله بي حقه، الضعيف يأكل ناره وبس، الشباب لازم يمسكوا في تسقط بس، سلمية وبس، والله يوم ما يتنازلون عنها يلبسوهم ثياب وطرح).

حالة عدولة الثورية كانت في هذا المساء في أقصى درجات عنفوانها، حك صلغته، أخرج كيس كيفه، شمه بمزاج، نظر بعيداً ثم نطق قائلاً: (عدنا رقمان صعبان، ثوار وجيش، الثوار ينادون جيشهم لينحاز لهم، يهتفون (جيش واحد شعب واحد الثورة ثورة شعب)، ويهتفون (الجيش جيش الشعب والثورة ثورة شعب) لأنهم يعلمون أن أي جيش شريف ولاؤه للوطن ليس لنظام أو حاكم، هكذا قسمه، هكذا عقيدته، وهكذا تربيته العسكرية، هذا في الأنظمة الوطنية، وليس في الأنظمة التي ترهن الوطن لمصلحة فئة قليلة، ألم تسمعونهم يقولون: (دليل ثوار هلافت، لا يعرفون معنى <تسقط بس> ما بعد بس إلا الضياع والخراب)، يا أستاذ إنت معاي؟).

أخذ نفساً عميقاً، زفر زفرةً طويلة حرى غاضبة، ثم انفجر قائلاً: (الثوار هتفوا لجيشهم، لأنه قوات شعب مسلحة، هتفوا لشرطتهم (يا بوليس أخلع كاكيك، نحن أولادك منك وفيك)، لأن الشرطة في خدمة الشعب، النظام قال نحن قاعدين ليوم الدين، لم يقلها من فراغ، ثلاثون سنة تمكين، خلاص على بلدنا السلام، مسمار خازووووق).

رد شنو متفائلاً:

(في كل ثورات الربيع العربي، الجيوش في البداية انحازت للحكام، ومع إصرار، عزيمة، وثبات الثوار انحازت للشعوب، وكذلك الحال عندنا، كبار الضباط مع النظام، صغار الضباط والجنود مع الثورة).

رد تفتيس بلهجة ساخطة:

(يا أخوانا خلوا عندكم عقل، صراعنا متشعب ومعقد، بين بطون جائعة وبطون منخمة، بين مدن وريف، بين تيار علماني وإسلامي ينادي بتطبيق شرع الله؛ المشكلة بالواضح يا جماعة قائمة على فكرة فرق تسد، أين شرع الله؟ مرحب بشرع الله، فليطبقوه عليهم وعلينا، ما طبقوا قانون من أين لك هذا، لا يريدون عدالة، يفرون منها كما يفرون من الكوليرا، دين ودنيا، صاحب بالين كذاب).

في هذه الأثناء رأوا شبعا غير بائن الملامح مقبلا نحوهم، هتف عدولة قائلاً:

(صه يا كنار، صه، واحد أمنجي ماشي عليكم).

رد شنو بدون تفكير:

(يفتح خشمه نسمعه كلام فارغ).

وليد من فرط التعب والإرهاق من طول اللف بالركش، فتح عينيه وأغلقهما وهو يغالب النوم، ومع ذلك هتف قائلاً:

(واهم من ظن يوماً أن للثعلب ديناً، دخلونا الجوامع ودخلوا السوق).

خرج أبو علي من صمته ورد قائلاً:

(يا أخوانا نحن فعلا غنم وحمير، ما عندنا مخ، مخنا تعبان، رجرجة ساكت، أي شيء يقولوه يمشي علينا، قالوا الحاصل لا ثورة ولا يحزنون، فوضى، تمهيدا لدخول خمسة جيوش واقفة على الحدود في حالة استعداد لغزو البلد، عنصريون، صهاينة، وصليبيون، كلهم متحالفين ضدنا عشان دينا ومبادئنا، والجيش لن يسمح بغرق البلد في شبر مويه).

انتصب شنو واقفاً ثم جلس، صفق بيديه مستاءً ثم قال:
(قلت شنو يا أبو علي، نحن كان عندنا مخ يحكمونا ثلاثين سنة، يسوقونا سواقة غنم، البلد شرطوها، بهدلوها، توهوها، الجنوب طار، حلايب طارت، الفشقة طارت، فضل بس نحن نظير نخليها ليهم، يخوفونا، إن طاروا ووب، وإن قعدوا وويين، الجيش والنظام شيء واحد، يعني على البلاطة كده، العملة المعدنية دي مش طرة وكتابة؟ السعوط ده مش تبغ ويطرون؟ وده ولد منو؟ طبعاً ده ولد ده، وطيب في ولد يزعل بابا حقه يا عجر).

رد الأستاذ بنيرة هادئة قائلاً:

(يا أخوانا في خلال ثلاثين سنة التركيبية الكيميائية لعقليات الكثيرين تم تغييرها تغييراً جذرياً، وطن، نظام، حزب حاكم، ودين كلها شيء واحد لا يتجزأ أبداً، الولاء لأي واحد يعني الولاء لها جميعاً، ثلاثين سنة وشعب نائم في عسل، صحا بعد خراب سوبا).
هتف عدولة ساخطاً قائلاً:

(هوي يا غنم، يا بجم، يا همج، أتحداكم، لن يستأنفوا الدراسة في الجامعات، إلا بعد ما يخلصوا على حاجة اسمها ثورة، ويتأكدوا أن كل الجرذان عادت إلى جحورها).

هتف تفتيس في حماسة قائلاً:

(يا ناس عدولة ده واحد شؤم، لازم تَعَكِّن علينا، أفهم يا ما فاهم، ما في دراسة إلا بعد نجاح الثورة وسقوط النظام، إذا فتحوها المظاهرات تطلع منها، قفلوها يدورها في الشوارع، يعني خربانة بالجهتين).

بعينين مثقلتين من فرط رغبة في نوم خاطبهم الأستاذ قائلاً:

(يا أخوانا كما تعلمون ساعتى البيولوجية دقت، خلاص نوم العجائز كبس، ولكن قبل أن أودعكم هل منكم من قرأ رواية الأديب الإنجليزي جورج أوريل (مزرعة الحيوان)، معروضة الآن مترجمة للعربية عند بائعى الكتب القديمة فى البوسطة، سبحان الله، من لم يقرأها منكم فليقرأها، تصور حالنا بدقة عجيبة، (ترمز الرواية بوضوح إلى الثورة الروسية، تحت حكم ستالين، قامت بخداع شعبها، انتهت بعد ما أوصلت الشعب إلى النقيض من هدفها الأصلي وهو العدالة الاجتماعية؛ عرضت الرواية فساد الثورة على أيدي قادتها، وكيف دمر الانحراف، اللامبالاة، الجهل، الطمع، وقصر النظر أي أمل في حكم عادل، بينت فساد القادة كنيضة في الثورة، بينت كيف يمكن أن يؤدي ذلك إلى وقوع فظائع إن لم يتحقق انتقال سلس للسلطة إلى الشعب؛ روى المؤلف قصة خيالية لحيوانات تعيش في مزرعة السيد جونز، والذي يوصف بأنه بلا رحمة، قاسي، وتظهر قسوته من خلال استغلاله للحيوانات التي تعيش في مزرعته، يجبرها على العمل بجد ثم يسرق منتجات عملها، كما أنه لا يقدر حياة تلك الحيوانات؛ ومن هنا تبدأ الحيوانات بالاحتجاج، ويخرج خنزير عجوز يقول لهم أن عليهم أن يتخلصوا من تحكم البشر بهم، فتستعد حيوانات المزرعة للثورة ضد السيد جونز، وتأخذ الخنازير بزمام الأمور باعتبار أن الخنازير هي أذكى الحيوانات في المزرعة، ويبدأ التمرد مبكراً حين

ينسى السيد جونز أن يطعم الحيوانات؛ بعد ذلك تفلح الحيوانات في الاستيلاء على السلطة في المزرعة وتطرد السيد جونز ورجاله منها؛ ثمّ تضع هذه الخنازير مبادئ عامة لتسير عليها الحيوانات، ومن ذلك أنّ كل ما يمشي على ساقين يعتبر عدواً، أما الصديق هو كل من يمشي على أربع أو يملك أجنحة، كما يمنع على الحيوانات ارتداء الملابس أو النوم على الأسرة، أو شرب الكحول، أو قتل الحيوانات الأخرى، كما أنّ جميع الحيوانات متساوية؛ بدأت الحيوانات بالانصياع للأوامر والعمل بجد وكفاءة لاستكمال الحصاد وإثبات جدارتها؛ أصبحت الخنازير أسياد المزرعة والمشرفين على الأعمال فيها، كما أنّهم بدأوا بالاستيلاء على حصص أكبر من حصص غيرهم من التفاح والحليب، وعندما تحتج الحيوانات على ذلك فإنّهم يحذرونهم من عودة السيد جونز إلى المزرعة؛ بعد تمادي الخنازير في تعاملهم مع الحيوانات الأخرى، وظهور الصراع بين الخنازير أنفسهم، ومد الخنازير لجسور الصداقة مع البشر ومحاولة تقليدهم والتشبه بهم، والنوم على الأسرة، وليس الملابس، والتمييز الواضح بين الخنازير والحيوانات الأخرى، فإنّ الحيوانات تثور في وجههم مرة أخرى؛ وتنتهي هذه الرواية هكذا).

أما روايتنا نحن فإنها رواية طويلة؛ وسكنت شهرزاد الثورة عن الكلام المباح، والصبح رباح، تصبحون وتصبح الثورة على خير، وتنتهي على خير، ويوم بكرة للحي قريب، ولا نامت أعين الجبناء، وثورة حتى النصر، وتسقط بس.

مع شعوره الأكيد بالرغبة في النوم، ومع إمعانه في تهيئة فراشه بجعله وثيراً بقدر الإمكان، ومع اختياره لغرفة جيدة التهوية، لا يقول أنها خالية كليّةً من البعوض لأن ذلك من رابع المستحيلات، ولكن يقول أنه ليس بالكثرة التي تمنعه النوم، ولكن النوم الذي طلبه لم يزره

أبدأ، ظل يتقلب على فراشه، ردد آياً من القرآن، صلى على النبي الكريم، طرد كل هواجس الدنيا وعفاريبتها من دماغه، ولا فائدة، كابوس الثورة ركب رأسه، تلبسه من فوق لتحت، لا يعلم كم من الزمن قضى في نومه المنقطع، ولكنه يعلم أنه كان يدخل في مظاهرة، يخرج منها ليدخل أخرى، على كتفه وشاح مطرز عليه بحريير ذهبي (تسقط بس)، يهتف حتى يبج صوته، يلوح حتى تكل يداه، يرقص في داخله من الفرح، مع كل ضعف يصيبه، يأتيه مدد من القوة يعيد له شبابه، ويجعله يجاري الثوار الذين لا تفتر لهم همة، ولا تلتين لعزيمتهم قناة؛ أخرج صوت آذان الفجر الندي من أحلام وردية صاغت أمنيته وتطلعاته لبلده، بغد مشرق بديع.

مضى نهاره مملأً رتياً لا جديد فيه، وكيف يكون فيه جديد؟ والبلد من حوله شبه ميت، تتنفس بصعوبة كسمكة مرمية طرف الماء، لا يستطيع الخروج والذهاب إلى أي مكان لأنه لا يملك سيارة، وركوب المواصلات العامة مغامرة غير مأمونة العواقب، الناس مكسبون في مواقف المواصلات، يقفون متجمعين كأغنام تحت المطر، تدور في دواخلهم أحاسيس بوشيك الخطر، المحظوظون منهم بعد معارك شرسة، يجدون لهم مواطئ قدم داخل حافلة قديمة مهلهلة متسخة المقاعد، تتركب وتثن مع كل حفرة، وتبكي وتشتكي مع كل صعدة أو نزلة، غير مصدقين لما هم فيه من ترف ونعمة، وبمنتهى السعادة يدفعون ما يملئ عليهم السائق من تعريفة بحجة انعدام وقود، وصفوف وقود طويلة، وقطع غيار غالية نار، وميكانيكيون يشتكون من ارتفاع دولار، وشوارع حفر وأخاديد، وشرطة مرور بالمرصاد، يقفون على رأس كل لفة، صينية، وشارع وعلى كتفهم يعلقون حقائب جباية ومكوس.

كالعادة، مثل قطار زمان، يا حليل زمان، قبل نصف ساعة بالتمام والكمال من موعد آذان صلاة الظهر مر في طريقه للمسجد على شلة أنسه النهارية؛ ثلاثتهم في صمت مطبق جالسون، أبو العباس منهمك مع زبائنه، صامتون، لأنهم لا يخوضون في أخبار ثورتهم على المكشوف، يخافون، ربما يكون بين الزبائن مندسون؛ ألقى عليهم التحية ثم جلس.

انضم لهم أبو العباس بعد أن فرغ من زبائنه، ثم خاطبهم قائلاً:
(ثوار الحيرة، الخسائر، في انتظارك يا أستاذ، يريدون معرفة آخر الأخبار).

رد الزعيم بنبرة مستنكرة:

(أرعى بي قيدك يا زول، نحن جيل فجر ثورتين، ثورة أكتوبر، كان عمري وقتها خمسة عشر سنة، كنا صغار، هل قعدنا في البيوت؟، لا والله، نزلنا الشوارع، البلد كلها نزلت الشوارع، شماليون، جنوبيون، مسلمون، مسيحيون، لا دينيين، أخوان، شيوعيون، اتحاديون، أنصار، شلنا فروع نيم، حجارة، ونبل، وينو عبود؟ قلعناه زي ما نقلع شعرة من عجين، ثورة أبريل، بعد عشرين سنة كان عمري وقتها خمسة وثلاثين سنة، يعني عزّ الشباب، البلد كانت كلها في الشوارع، نفس الفلم حقكم ده كان موجود، الثوار (تسقط)، وناس الاتحاد الاشتراكي (تقعد)، حمالتك علي دخلوا الجحور، لبدوا، وسكتوا ساكت، وينو نميري؟ قلعناه زي ما نقلع ضرس مسوس، سيبنا من شباب اليومين ديل، يلككوا معهم لي متين، خلاص ثلاثين سنه كفاهم، خلاص يغوروا في ستين ألف داهية تأخذهم، بس كمان يا أخوانا الناس ديل عيونهم قوية، خجلة ما عندهم، دايرين ثاني يقعدوا ثلاثين سنة جديدة، عشان يمحو اسم دولتنا من خارطة العالم).

تنحى شنيبو، وبرم شنباته، وهتف قائلاً:

(شوفوا يا ناس هوي أنا زول عربي ساكت وأنتم ناس بندر، كلامي أسمعوه وفضوها سيرة: (مساميركم ملس ومساميرنا مغنجة، الكماشة التقلع مسمارنا ما ها سهلة)).

رد أبو العباس بنبرة حازمة:

(تقصد شنو يعني بي كلامك الملؤلوه ده ما تتكلم دغري، إنت كركوبة الحاضرة عرس حبويه، أقدم من أكتوبر وأبريل؟).

رد بنبرة خبيثة:

(حضرتهم لكن داك زمن وده زمن، والزمن يفرق يا جماعة، - التفت نحوه - ولا شنو يا أستاذ، الإنسان يميز، الإنسان عنده عقل، الإنسان ما هو زي البهيمة، الحين حماري المربوط قدامكم داك بعرف تسقط بس ولا تقعد بس، ما ترى يأكل ويشرب ويبعر وخلص).

رد الزعيم بلهجة مستنكرة:

(إنت عارف يا شيخ العرب مخك ظلطة، مغفل نافع، الأرض التي بنيت عليها بيتك حقت أبو واحد فيهم، يا أخي إنت تستحقها زيك وزى أي مواطن ثاني، دي لا عطية، ولا منحة، ولا جميلة من واحد فيهم، أصحى من غباك، قوم فوق، أهتف مع الناس، شوف باقي حقوقك الثانية الضائعة وبين).

هتف هندسة قائلاً:

(يا أخوانا سبيونا من شنيبو ده، ده حجتة طويلة، أنسوه، يمكن يتعلم مع الأيام، فهمونا الأمور ماشه على وين؟ طبعاً الدراسة عطلوها في البلد، لا مدرسة ولا جامعة).

رد شنيبو في اقتضاب:

(الباب البجيب الريح سدوا وأستريح).

رد أبو العباس قائلاً:

(الكلام ده وقع للطلاب والتلاميذ في جرح، ثاني لا مشغولية ولا مشغلة، ويلا يا شارع جاك زول، أحرق ورق، أحرق لستك، عيط، هيص، يعني هم الأولاد والبنات ديل ما عندهم إحساس بقرف أهلهم في البيوت، ولا ما شاعرين بضيق وشطف الحياة، مصاريفهم في تلتلة، مواصلاتهم للمدارس في تلتلة، فطورهم في تلتلة، حياتهم كلها أصبحت تلتلة في تلتلة).

رد شنيبو قائلاً:

(أنا أمي وقصير، وكلام القصير ما بتسمع، أسمع كلام البيبيك ولا تسمع كلام اليضحكك، والبزرع الشوك ما يمشي حفيان - التفتت نحوه وخاطبه - ولا شنو يا أستاذ).

رد قائلاً:

(يا أخوانا كلام شيخ العرب مرات يشكك الزول في نفسه، طيب خلونا من المُطاعنة بالكلام، أها بعد ما قفلوا المدارس والجامعات هل المظاهرات ح تقيف؟ ما دامت مشاكل المعيشة موجودة، الاحتجاجات سوف تظل موجودة، ويا أخوانا الحكاية بقت ما معيشة ولا يحزنون، الحكاية بقت حرية، وثورة، وتسقط بس).

جاءهم صوت الإقامة لصلاة الظهر، حلواً ندياً؛ أغلق أبو العباس أبواب محله على عجل، ترافقوا أربعتهم، هرولوا مسرعين نحو المسجد تاركين كل هموم الدنيا خلفهم إلا هم واحد، هم الثورة والثوار، هذا الهم الذي امتزج بالهواء الذي يتنفسون، وبالماء الذي يشربون، وبالطعام الذي يأكلون.

(٦)

مقتل معلم مقتل أمة

خشم القرية مدينة هادئة، خزان، مشروع زراعي، مصنع سكر، يمطرونها بالخيرات، يزرعون قطناً، قمحاً، فولاً سوداني، وذرة، ويوم يفتح الخزان للنظافة في كل عام تأتيهم أسماكه شرعاً، ظاهرةً فوق الماء، يوم (دق السمك) يقبضونه بدون شباك صيد، الرميطة وما أدراك ما الرميطة، قبلة السياح، مروج خضراء وأيك ملتف، طالت الاحتجاجات كل ربوع البلاد، ومن ضمنها هذه البقعة الوادعة، الأستاذ احمد خير معلم مثل سائر المعلمين الذين قال فيهم شوقي (قم للمعلم وفيه التبجيلا.. كاد المعلم أن يكون رسولا)، في مساء الخميس لدواعي أمنية قامت وحدة أمن خشم القرية بتوقيفه ومعه آخرون، حيث خضعوا لتحقيق أمني حول بعض الأنشطة والأحداث، التي وفقاً لمعلوماتهم الأمنية أنهم ضالعين في التخطيط لها وتنفيذها، القرار أن يتم نقلهم إلى مدينة كسلا لمزيد من النظر في أمرهم.

لحيطان بيوت خشم القرية آذان تسمع، تداول الناس حكاية فطيرة، ادعت الشرطة أنه في يومهم الأخير بالمعتقل قبل ترحيلهم لكسلا احضروا لهم وجبة غداء من مطعم معروف بالمدينة، حيث تناول الوجبة عدد من المعتقلين ومعهم سجانينهم، عقب ذلك شعر بعضهم بمبادئ تسمم، لذلك تناولوا بعض الكبسولات المهدئة ومن ثم تحركوا إلى كسلا، ساءت حالته في الطريق جراء استفراغ متكرر، هبوط، مقص، وإسهال، مما أدى إلى إسعافه مباشرة للمستشفى بعد وصولهم إلى كسلا، حيث أسلم روحه إلى بارئها، في اليوم الرابع طالبت وزارة العدل بتقرير عاجل حول ملابسات الوفاة، بعد أن قال

أهله أنه قضى تحت التعذيب، بينما أنكرت الشرطة ذلك، وأنه مات مسموما بالطعام، في اليوم الخامس، وبعد تشييعه، حولت الجماهير الغاضبة المأتم إلى مظاهرة حاشدة في مسقط رأسه بمدينة خشم القربة، أفاد الطبيب المعالج بقسم الطوارئ بمستشفى كسلا أنه كشف على الجثمان، وأن كافة الأجهزة والأعضاء سليمة، وأن هناك كدمات خارجية على الظهر، تم إخطار أسرته بذلك، تم تحويل الجثمان إلى مشرحة مستشفى القصارف للتشريح، خلصت إجراءات النيابة العامة إلى أنه لقي حتفه جراء التعذيب بألة حادة أو صلبة بحسب تقرير نهائي استلمته من الطبيب الشرعي، وأوضحت عدم وجود أي مواد سامة أو مخدره في دمه.

التأم شمل شلة الأُنس الثوري في يوم السبت الثاني من فبراير، كان الجو يميل إلى البرودة نوعاً ما، والكهرباء مقطوعة عن الورشة، وضوء خافت يتسرب في خجل من على شرفات نوافذ مباني مجاورة، قطة سوداء تحوم في الجوار، تنبش في أكوام أكياس زباله مرمية على مقربة من المكان، وأصوات عربات تاتشر العسكرية تأتي من بعيد، ورائحة غاز مسيل للدموع تسمم الأجواء، صارت عند الناس مألوفة أكثر من دخان بخور مباخر البيوت، سيطر الوجوم على الجميع، اعتمل في نفوسهم شعور غامض بأن مظاهر الحشد لسيارات التاتشر العسكرية في الشوارع بكثافة مخيفة، وعدم احترام سائقيها لقوانين السير وللمواطنين، وما يجري في فض المظاهرات من ممارسات وحشية غريبة على البلد، كلها تشير إلى أن الحال أصبح سيئاً والقادم أسوأ.

كالعادة ابتدر أميرو الكلام فهو صاحب المحل، وفي نفس الوقت يتمتع باحترام وتقدير من الجميع، قائلاً في مرارة بنبرة حزينة، نبرة من يمسك بطرف جنازة تمهيداً لوضعها بسلام داخل لحد قبرها:

(يا أخوانا طفح الكيل، خلاص ما فضل شيء، بالأمس حدثت جريمة إرهابية، وحشية من العيار الثقيل بمدينة خشم القرية بولاية كسلا، المجرمون سفاكو الدماء قتلوا بلا رحمة أو شفقة معلم جليل اسمه أحمد خير، عذبه حتى الموت بصورة بشعة، بربرية، همجية، الغريب في الأمر، جاء في بيان الوالي وأمنه أن سبب الوفاة حالة تسمم).
رد تفتيس بلهجة غاضبة:

(يا أخوانا الناس ديل حIRONا، لا يراعون حرمة لأسير، ولا حقوق لإنسان، ولا دين، ولا قيم، ولا عرف، السؤال ليه يتسمم زول واحد؟ ما يتسمموا كلهم، يريحونا، يغوروا في ستين ألف داهية).
صاح عدولة بلهجة مستنكرة:

(يا ناس هوي، قربت، دنا قطافها، كلما أمعن الهمج في الهمجية، زاد لهيب الثورة، فُجار، يقتلون القتل ويمشون في جنازته، الحمد لله احترموا عقولنا شوية وما قالوا بسخفهم المعهود، سقطة قلبية، عضة كلب، وقع من تاتشر، عمره انتهى نام وما قام، ولكن علي بالطلاق الحكاية مش تسمم، الحكاية فيها إن).

سأل الأستاذ قائلا:

(يا عدولة، هل يستطيع أهل المعلم دفنه في المقابر بدون إبراز شهادة وفاة رسمية؟ وهذه الشهادة يكون موقع عليها طبيب شرعي).
رد بنبرة ساخرة:

(دي ما مشكلة، الطبيب تبعهم مش تبع الثوار، القتلة يقتلوك ويلبسوها ليك، من ذقنه وأفتله، يقولوا ليه أكتُب أنتحر، يكتب انتحر، ويصلحها كمان شوية انتحر كما انتحر خروف حاجة كلتوم).

رد تفتيس في سخرية:

(الله يجازيك يا عدولة، من أين جئت بهذا الكلام العجيب، الدخل خروف حاجة كلتوم هنا شنو؟ الجن والغباء شنو؟ نحن مالنا ومال خروف حاجة كلتوم؟ حريقة تحرقهم وتحرقه معهم، نحن نتكلم في أستاذنا المقتول خارج القانون غدرأ وخيانة، وإنت فائق نتكلم في خروف حاجة كلتوم).

رد أميرو بنبرة هادئة قائلاً:

(يا أخوانا عشان ما تعملوا لينا جوفة في الفاضي، قدامي في النت شهادة أخ الشهيد أسمعوها وبعدين اتكلموا - بدأ يقرأ- الشهيد أستاذ لمادة الحاسوب بمرحلة الثانوي العالي، لم يشارك في أي مظاهرة من المظاهرات بالرغم من انتقاده الشديد للنظام، انتظم في الحركة الإسلامية منذ أن كان طالباً بالمرحلة الثانوية، وعند مفصلة الإسلاميين الشهيرة في عام ألف وتسعمائة تسعة وتسعين اختار جناح المؤتمر الوطني، وبعد ذلك نأى عنهم لأسباب خاصة به فهو صاحب منهج ومبدأ وعقيدة، ويرى: (أن من دخل السلطة وبيته أودة وراكوبة عليه أن يغادرها وهو على ذات الحال)، ومن جراء هذا الموقف واجه عديد من عداوات وصدامات مع خصومه، بعد اعتقاله تم التعامل معه بعنف شديد، على أساس أنه هو المتهم بتدبير المظاهرات في المدينة؛ في اليوم التالي أخبرنا ممثل الأمن أن الشهيد تعب، وذهبوا به للمستشفى، حيث توفي هناك، بدون أن يخبرونا بسبب الوفاة؛ في صباح اليوم التالي اتصل بنا المدير الطبي لمستشفى كسلا للحضور لاستلام الجثمان، لأنه لا توجد مشرحة أو ثلاجة لحفظ الموتى بالمستشفى؛ في صباح يوم السبت وصل الجثمان، ورغم صعوبة الموقف، عرفت ما جرى للشهيد، فنلته الداخلية بلون التراب، رقبته متورمة، ضلوعه متأثرة، وجود جرح في منطقة فم المعدة، وكأنه تعرض للسلك في منطقة البطن).

توقف أميرو عن القراءة بعد أن بلغ تأثره بما يقرأ مبلغاً بعيداً، غطت سحابة حزينة كثيفة وجهه، تلجلج لسانه، انتفخت وتورمت عيناه بدموع الألم والحزن المكبوت.

سأل الأستاذ بصوت مشروخ مأزوم:

(هل انتهت الحكاية؟).

أجاب قائلاً:

(نعم).

استطرد الأستاذ قائلاً:

(يا سادة نحن في زمن يُداس فيه على الشرفاء، زمن غابت فيه الفضيلة وعمت الرذيلة، زمن حكام يمسون بيد قلم ودفتر ويقتلون باليد الأخرى، زمن حاميتها حراميتها، ينهى عن السرقة ويسرق، يقترروا علينا في علاج ودواء ويتعالجون في الخارج، حتى الحج والعياذ بالله من المال العام، يا أخوانا خلوها مستورة، المواجه كثيرة، قلوبنا تعبت، ريوها، لا تتعبوها أكثر مما هي فيه).

رد وليد غاضباً:

(القتلة ديل ما دخلوا مدرسة ولا خلوة؟ ما دخلوا مسجد ما فتحوا مصحف؟ ديل جنسهم شنو؟ ديل من أين أتوا؟ ديل ما مننا وفينا، يا أخوانا الفعل يدل على الفاعل، كما الأثر يدل على البعير).

رد شنو محتجاً:

(قلت شنو، يا وليد ما تكبر عقلك شوية، المشكلة مش في المجرمين الذين نفذوا الجريمة، ديل يأخذوا تعليمات من الرتبة الأعلى، والأعلى يأخذ من الأعلى، إلى أن تصل إلى عراب المافيا الكبير، العراب ده بعد ما ينفذوا تعليماته يمدوه بالحيثيات صورة وصوت).

هذا الحديث وما فيه من مرارة أجبر الأستاذ على أن يشرده بخواطره بعيداً عنهم:

(يشاهد فيلماً معروضاً على شاشة عينية، العراب قاعد آخر قعدة، آخر ضحكة، آخر قرقرة، آخر سلطنة، آخر فشخره، فرعون، يا دنيا ما فيكي إلا أنا، آخر متعة، آخر كيف، تطلع تعليقاته من فمه الأجوف المقعر المدفون بين كضومه التي تشبه كضوم المرفعين: (شغلكم لسه نبي، مش نظيف، لسه فطير، دربوكم مصريون، روس، سوريون، إيرانيون، بلطجية، وشياطين، شغلكم تعبان، واحد من عشرة، ما شفتوا أمريكيانو رعاة البقر عملوا كيف في عراقيين، ما شفتوهم عملوا شنو في غوانتنامو، أي واحد من العجر ديل لازم يطلع من الحراسة أو الزنزانة إلى ثلاثة فنادق فقط لا رابع لها، إما إلى قبر، أو عنبر مجاني، أو عيادة تركيب أطراف صناعية، مفهوم). يأتيه الرد سريعاً من تُبَعِ مسلوبٍ إرادة: (مفهوم، حاضر سعادتك)).

أخرجه صوت تفتيس من شروده:

(والله أنا في حيرة، أليس لهؤلاء أولاد، بنات، بيوت، عقول، عيون، وأذن، ألا يعلمون أنه كما تدين تدان، ومهما طال الزمن أو قصر، سوف تتغير الأحوال لأنه دوام الحال من المحال، (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام)).

رد أبو علي متسائلاً:

(يا أخوانا فهمونا معكم، الشهداء ديل مش مواطنين، عندهم حقوق وعليهم واجبات، وفيهم واحدين يصلون أحسن منا، ويخافون الله أكثر منا، وفي معاملتهم لخلق الله أكرم منا، يحوهم من الوجود كيف؟ بأية حق، قانون، ودين؟ فهمونا يا عالم قبل ما نطلع من جلدنا).

رد الأمير بنبرة لا تخلو من طمأنينة:
(يا أخوانا البليد لا يتعلم من أخطائه، والقاتل بدون وجه حق، ملعون، مغضوب عليه من رب العالمين، يمكرون ويمكر الله، والله خير الماكرين، وتسقط بس).

رد الأستاذ في حسرة:

(يا أخوانا الأمر محير جدا، المواطنون ليسوا كلهم أحرارا متساويين، فيهم رعا، همج، مغفل نافع، يقولوا لهم أرفعوا رأس، يرفعوه، وطو رأس، يوطوه، يمين، يمين، شمال، شمال، ومع ذلك لا مأكلين شبعانين، ولا متعلمين، ولا متعالجين، أعوذ بالله، متحكمين فيهم بشنو مش عارف؟ يمكن مخوفهم كرباج، خرطوش، عصا، شلوت، تاتشر؛ الخواف ربي عياله، حصل مع معلمنا الشهيد ده إنذار للشعب كله، إنذار بأن كل تهديدات الماضي على مدار ثلاثين سنة، جاء أوان تنفيذها، وكل من تسول له نفس أمارة بالسوء، يعمل فيها ربع راجل، لا يلومن إلا نفسه).

دخل شنو على الخط وهتف قائلا:

(أنا غايته لا علم لي بالغيب، لكن الموضوع ده سوف تتم فيه فبركة لا تخطر على بال، ديل أساطين فبركة، يفبركوه يطلعوه صفر على الشمال، البلد دي عدت الرجال الذين يقولون كلمة حق في وجه سلطان جائر؟ ساكتين ليه ما يتكلموا، الجنة حفت بالمكاره، دخولها ما بالبارد).

تمتم الأستاذ قائلا:

(كلامكم ده كله صحيح، بعض الناس تكلموا وما قصرُوا، عملوا ما عليهم وزيادة، ولكن هل خشب مسندة تفقه، أعمتهم ثروة، وسلطة، وشجعهم ضعف شعب وهوانه).

سكت لبرهة، شرب كوباً من الماء ليبل به جفافاً في حلقه ثم استطرد قائلاً:

(أها يا ثوار وقت النوم جاء، أستودعكم الذي لا تضيع ودائع، وسكتت شهرزاد الثورة عن الكلام المباح، والصباح رباح، وتصبحون على خير، ويوم بكرة أحلى، ولا نامت أعين الجبناء، وثورة حتى النصر، وتسقط بس).

منذ أن اندلعت الثورة ونيرانها طردت النوم من عينيه، ما يسمعه نهائياً تحول إلى شريط سينمائي ليلاً، رأى الثوار كيف يعذبون، تارةً بصعق كهرباء، وأخرى بربط بمروحة، وبتبريد معتقل لدرجة تحت الصفر، وبمنع من نوم، وبإهانات وشتائم سوقية جارحة، لا ذنب لهم غير أنهم قالوا كلمة حق في وجه سلطان جائر؛ رأى الشهداء كيف يقتلون بدم بارد، وزبانية قتلة، يرقصون فرحاً حول جثث الضحايا الباردة، التي تجمد الدم في عروقها، تحول لونها إلى أزرق، يعلم علم اليقين أن هذه الحالة لا تنتابه لوحده وإنما تنتاب كل الأحرار الشرفاء، وكل الذين لا حول لهم ولا قوة، ضعفاء، يقولون بقلوبهم (تسقط بس)، ويدعون العزيز القهار أن يأخذ كل متجبر متسلط أخذ عزيز مقتدر.

النهار هو النهار، والشمس هي الشمس منذ الأزل، التغيير ينال ما تحت هذه الشمس، نعم التغيير نحو الأحسن يتم في بلاد أخرى، أما هنا في بلاده فالتغيير نحو الأسوأ، وكيف لا يكون الأمر كذلك وإدارة شأنها العام يتولاه من لا يصلحون لإدارة صاج طعمية، يقولون أن الخدمة المدنية تحتاج إلى إصلاح، يقولون عكس ما يفعلون، خربوها بواسطة، تمكين، ومحاباة لأنهم لا يدركون معنى وضع الرجل المناسب في المكان المناسب، وعلى الأصح وضع المرأة المناسبة في المكان المناسب لأنهم عن قصد أو غير قصد، جعلوا التوزيع

التكراري للوظائف العامة يميل لكفة النساء، بعد أن زهد الرجال في الوظيفة العامة، التي ما عادت تجيب حقها، أو تغطي لهم تكلفة مواصلاتهم.

كالعادة قبل نصف ساعة من موعد آذان صلاة الظهر مر في طريقه للمسجد على شلته النهارية، هذه المرة كانوا ثلاثة فقط، أبو العباس الفاضي من الزبائن والزعيم جالسان يتضحكان، وشنيبو يفك رباط الكارو من رقبة حماره.
ألقى عليهم التحية قبل أن يجلس على الكرسي الحديدي، ملك الكراسي، قائلاً:

(السلام عليك يا شيخ العرب، والسلام على نسل شهداء كرري، والسلام على من اتبع الهدى).

رد الزعيم في نبرة لا تخلو من زهو قائلاً:

(وعليكم السلام، يا حليل ناس كرري، كانوا نضاف جوه وبره، لو هسي موجودين، الحاصل فينا ده ما كان حصل، كانوا لا يقبلون الضيم، إما أحرار في البيوت أو أموات في القبور).

رد مستنكراً:

(يا حاج كل زمن وله رجال، الشباب النائر الآن في الشوارع، مالين العين، لا خائفين من رصاص، بمبان، تاتشر، عفريت، لا جن أزرق، ديل حيروا العسكر ذاتهم، حيروا الدنيا، ديل مش يغيروا نظام، يغيروا أمه، وأبوه، وجده كمان).

رد أبو العباس متسائلاً:

(يا أستاذ كنا ماسكين خبر معلم خشم القرية، الجديد عندك شنو؟).

أجاب بنبرة حزينة:

(خبر أليم، هزّ البلد من أولها إلى آخره، شعبتنا يحب العلم والعلماء، مسالمون جداً ومهما اختلفوا لا يلجؤون إلى مثل هذه الأساليب القذرة، لذلك كلما أوغل هذا النظام الغبي في الدم والقتل كلما بنى جداراً إسمنتياً عازلاً بينه والشعب، وكلما دق مسماراً تلو مسمار في نعشه، نعم قربت ساعة الخلاص، وتسقط بس).

جاء شنيبو، الذي كان يرخي أذنيه ليسمع كلامهم، جلس على دكة إسمنتية قريبة من مكان جلوسهم ثم سأل قائلاً:
(أنتم ناس فاهمين، وأنا أمي على قدر حالي، فهموني موضوع الأستاذ ده شنو؟).

رد أبو العباس بنبرة هادئة:

(يا شيخ العرب الأستاذ ده من المعارضين للنظام، المصنفين خطر جداً، لأنه كثير النشاط، وعامل وجع رأس للنظام في خشم القربة، لذلك لما يمسكوا المثله يعملوا فيهم خوازيق كثيرة، ولكن المرة دي زودوها شوية).

قاطع الزعيم بلهجة ساخطة:

(يا راجل ديل مش زودوها شوية، ديل زودوها للأخر، ديل فجرة، ديل خرجوا من الملة، ده شيء غير طبيعي، غير مقبول خالص، وبين الشعب، والله إن سكت أكثر مما هو ساكت، يشوف حاجات لم يسمع بيها لا في بوسنة، لا هرسك، لا شيلي، لا سوريا، ولا إرم ذات العماد).

تنحى شيخ العرب، معنى هذه النحلة أن الكلام خرج من الدرب،
قطب وجهه، وزم شفثيه ثم خاطبهم قائلاً:
(شوفوا يا أخوانا هوي، كلام العرب إنتو ما بدوروه، (كل زول يحلل
على رأسه)، وآخر كلامي ليكم (كثروا البنابر) بس، ونحن أمواس
على كل راس، والله كلمتي دي ما عندي ليكم زيادة غيرها).
رد الأستاذ بسخرية قائلاً:

(يا أخوانا شيخ العرب، شيخ حكيم يعتبر كلامكم أي كلام، وأنتم ناس
كلام ساكت، يعني ناس إشاعات، وكثروا من عدد مقاعد الاحتياط التي
تجلسون عليها لأن جلوسكم على الكنب سوف يطول وأنتم تحلمون
بسقوط النظام).

رد بخبث:

(أنا عربي لكن فهمان، ما تفسر كلامي على هواك يا أستاذ، كلامي
عديل، ألفي بطنه ربح ما بستريح).

جاءهم الصوت الندي الرخيم، صوت الإقامة لصلاة الظهر،
هرولا مسرعين نحو المسجد تاركين أبو العباس وشنيبو من خلفهما،
وحوار لاهت بكلمات متقطعة يدور بينهما:

- (خلاص الحياة زهدت فينا يا زعيم، العمر فات).
- (الحياة قاسية مرة).
- (بسبب ما نراه ونسمع).
- (الشباب يموتون).
- (يقتلهم الفاسدون).
- (ارحمنا يا رب).
- (الطف بنا يا رب).
- (يا رب... يا رب... يا رب).

عزلة داخلية

حكومة تأتي بانتخابات حرة نزيهة، مجمع عليها من قبل أفراد شعبها، تسوس الناس بعدل، تحارب فساد المفسدين، تطلق حريات بقدر موزون، توفر كرامة إنسانية، وتحقق عدالة اجتماعية، لا تدخل في عزلة داخلية بتاتا، قام الرئيس بزيارات مكوكية متتالية لبعض الولايات، تأكيداً لشرعيته، وشعبيته، وأن الجماهير تموت ولهاً في حبه، لأنه صمام أمنها، أمانها، وبقائها، وبدونه لن تقوم لها قائمة، ولن يكون لها صيت، ولا عزة، ولا وجود، كل نظام شمولي، ضليع في الأعيب حشد مواكب جماهيرية استعراضية، تحول جموعهم إلى ببغاوات تردد بدون وعي أو إدراك شعارات زائفة، ولكنها! لا تنجح أبداً في حشدهم وتحويلهم إلى قوة ضاربة، قوة تحرك اقتصاد وتعظم ناتج قومي.

التأم شمل الشلة الثورية في ذلك اليوم من أيام ثورتهم الظافرة، ومن الطبيعي أن تتراوح أيامها بين مد وجذر، في أيام المد تكون معنوياتهم عالية، وأشواقهم تصّاعد تعانق عنان السماء، وفي أيام الجذر تكون معنوياتهم هابطة، وأشواقهم مهيضة الجناح، ذلك اليوم قد يكون واحداً من أيام الجذر الثوري، لم يفتن أحد منهم للطقس إن كان بارداً أو دافئاً، ضوء لمبات الكهرباء أكثر خفوتاً كغير عادته، لا ققط ولا كلاب تحوم في الجوار، أصوات أبواق، وتفحيط، واستعراض عربات التاتشر العسكرية تأتي من بعيد، رائحة البمبان تهري الأنوف برائحة نتنة، لا تقل عفونة عن روائح حفر مراحيض بلدية منتشرة في كل مكان.

كعادتهم تطرقوا إلى أمور حارتهم الحياتية، أهلها في أفراحهم ينفقون إنفاق من لا يخش فقر، يعبون الفرح حتى الثمالة، وفي أتراحهم، يحزنون على صخر أكثر مما حزنت الخنساء، يؤمنون بأن الفرح والحزن (مُتباريان) يسيران جنبا إلى جنب، وأن عجلة الحياة لا تتوقف لأجل أحد، أخذ أميرو بالزمام، ودخل على طول في الكلام، عن الحدث الذي قَوِّم البلد ولم يقعدها بعد:

(طبعاً سمعتم يا إخوة بآخر تطورات مقتل المعلم، حكاية مخزية تحدث في دولة مثل دولتنا، تدعي إسلاماً وتسيئاً إليه، يقول أخوه أنه لاحظ في غرفة التشريح في اليوم التالي للحدث، أن الطبيب سجل ملاحظاته على الملابس أولاً، ثم على كل عضو من جسمه، وبأنه يوجد على الأضلاع جرح غائر، وفي الظهر آثار ضرب واضحة، وأجهزته التناسلية سليمة؛ مع العلم أنه جاء في بيان الوالي وأمنه أن سبب الوفاة حالة تسمم، وبعد ذلك أمن النائب العام على نفس الكلام؛ وبعد تسرب الأخبار الحقيقية، ونتيجة لضغوط من قبل جهات كثيرة، عدل النائب العام بيانه السابق بأن الوفاة بسبب تعذيب؛ ثم جاء بيان لجنة المقاومة، والذي أشار إلى خمس نقاط اختلاف بين الشرطة والأمن فيما يتعلق بترحيل الشهيد، الشرطة تقول التحرك من محلية خشم القربة إلى رئاسة ولاية كسلا بينما الأمن يقول التحرك من محلية خشم القربة إلى رئاسة جهاز الأمن بالولاية، لم يرد في بياني الشرطة والأمن ما يشير إلى كدمات أو دماء، مثلما ورد في تقرير كل من الطبيب المناوب والخبير الشرعي، مما يعني إخفاء معلومات تضر بسير العدالة، في بيان نقابة الأطباء الشرعية أن الاعتقال تم بتاريخ السابع والعشرين من يناير بينما في البيانين أنه تم بتاريخ الواحد وثلاثين منه، والدماء في فتحة الدبر تشير إما إلى اغتصاب بشري متعدد أو اغتصاب بفعل آلة حادة).

رد عدولة بسخط قائلاً:

(قربت، قربت، دنا قطفها، لعنة الله على من أمر، وعلى من نفذ، وعلى من صمت، وعلى من لم يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر).

رد تفتيس قائلاً:

(عندي لكم معلومة جديدة كرت، استهداف المعلم لم يكن بسبب التظاهر، وإنما بسبب موقفه الراض لتزوير انتخابات المعلمين بخشم القرية).

حك شنو جلد فروة رأسه ثم قال:

(قلت شنو، صحيح السبب هو موضوع التزوير، ولكن في أسباب ثانية، الشهيد ينتمي لجماعة تمثل خطر عليهم، أبو القدح يعرف بعض أخوه من وين، الحكاية وما فيها، يريدون قطع الرأس بطريقة دموية بشعة، تكون عبرة لغيره).

رد الأستاذ ببرم واضح قائلاً:

(يا أخوانا الناس ديل ما عائشين في الواقع، عائشين في عالم ثاني، أفعالهم دي كلها خوف وبس، قالوا عندهم من يسدون عين الشمس، أين هم؟).

رد عدولة بنبرة مستهزئة:

(يا شيخ، ما شفته الساحة الخضراء، رسلوا الباصات لبيوت زك، صفيح، عشش، حيث الفقر المدقع، والمرض المستوطن، أغروهم بأكياس دقيق وسكر، وبحفنة مال، وبكلام معسول، أما العاملين في الدولة خوفوهم، إما المسيرة، وإما شِد حيلك، صالح عام، والعسكر لبسوهم مدني لتضخيم الحشد، ومن الأقاليم استنفروا وأتوا بأهل المصلحة، وبكل مغفل نافع).

رد تفتيس في نبرة لا تخلو من حيرة:

(والله حشود عجيبة، يا أخوانا الناس ديل لما الشعب يجار بالشكوى والصراخ من فساد ومفسدين، يقولون لهم: القانون قانون، لا يأخذ الناس بشبهات، من يملك بينة أو مستند يقدمه للمحكمة، ولما يتندرون عليهم ويقولون لهم أن حشدكم مأجور، يقولون: من يملك بينة أو مستند على أن واحدا ممن حشدنا مأجورا، يطلع مستند أو بينة التي تؤيد دعواه).

رد وليد بنيرة ساخرة:

(يا أخوانا بقينا هُبل مش فاهمين حاجة، غريباء، شفتم حشودهم المزعومة، معقول يا عالم الناس ديل يؤيدوهم؟ معقول تهتف الضحية للجلاد؟ معقول يهتف النازحون للذين أذاقوهم مر العذاب؟ وكمان يهتفون لهم (تقعد بس)، لا والله، العاقل يميز).

هب تفتيس واقفا، هتف قائلا:

(الجو جو شنو يا شباب).

- (جو فول).

- (يله الجود بالموجود).

جمع منهم قدر ما يستطيعون، تأكد من أن أواني الطعام بداخل المحل نظيفة، تركهم وتوجه نحو فوال الحارة.

شنو بنبرته العجولة تمتم قائلا:

(تفتيس بالعشاء المهيب قطع كلامنا، نرجع ثاني، رسونا على بر، ناس قالوا أهلنا أهل الغرب زعلانين من باقي أهل البلد، وبالذات ناس العاصمة، أيام المذابح وقفوا فراجة، سدوا دي بطينة ودي بعجينه، وواحد زودوها شوية، طلعا مواكب تأييد، خلاص، دي بي دي، ما في حد أحسن من حد، كل واحد يأكل ناره).

رد وليد ساخرا:

(خلونا من ناس الغرب، شوفوا ناس الشرق، شوفوهم عاملين كيف، اللواري تشيل من القرى وتكب في مكان حشد القضارف، عرايا، فقراء، مصابين بسوء تغذية، الواحد منهم ما قادر يرفع يده، أو يفتح خشمه، وبقدرة قادر يطلع الحروف ت ق ع د ب س).

رد شنو في نبرة سريعة قائلا:

(شنو، شنو، أنتم مساكين مش فاهمين حاجة، الحكاية يا أخوانا إنه ناس اللواري هناك ينادوا على أهل قرى عاطلين مساكين (الحشد بمائة)، وواحد ثاني ينادي (الحشد بمائتين)، ماشي جايي، ومعها ساندوتش وبارد، الواحد فيهم حالته بالبلاء، يشمر كم العراقي، ويعدل الطاقة، وهوب ينط داخل صندوق اللوري ويعيط (أرروك روك تقعد بس)).

رد وليد بنبرة أكثر سخرية:

(أنت نفسك مش فاهم حاجة، شوف صور ناس الحشد هناك، بالله عليك ديل يشبهونا، ديل لقطوهم من معسكرات لاجئين، عصروهم، خوفوهم، صوروا بيهم الفلم ورجعوهم مرة ثانية إلى زرائبهم التي تتأفف منها البهائم).

رد سلومون الذي اختفى لمدة ثم ظهر فجأة قائلا:

(خلونا منهم كلهم، ما شفتم ناس النيل الأبيض، المساكين، عندهم احتفالية دينية سنوية ما عندها علاقة بي حكومة، ولا والي، ولا كشكليته، كبسوهم، غصبا عنهم حولوها إلى حشد جماهيري، حيروا الشيخ، والحيران، والمريدين، والزوار، ناس ذاكرين طبيين غرقانين في ذكرهم، يمدحون في حبيبهم النبي (صلعم)، دخلوا عليهم عنوة، بدل ما يمدحوا معهم (صلوا عليه) هتفوا (تقعد بس)، تقعدوا في نار جهنم تحرقكم، يا عديمين الفهم والمروءة).

رد أميرو بلهجة غاضبة:

(دي عملية يعملوها، طفيليين، انتهازيين، من أجل مصلحتهم الذاتية يدوسون على فئاعات الناس، تراث الناس، وعلى الناس ذاتهم).
رد شنو ساخرا:

(أما فلمهم بناع طريق الأبيض-أم درمان فلم نوع ثاني، الطريق ده افتتحوه أكثر من ثلاث مرات، كلما تنتهي منه حته يعملوا ليها افتتاح، الزول لما يكون فاضي، ما عنده شغل ولا مشغلة يعمل من الحبة قبة، ديل مسخوها، تقول قاعدين بينوا في سور الصين العظيم).
رد أبو علي بمرارة:

(حشود كلها مصطنعة، شوية جماعة مستعدين يخشوا أي حشد، يلموهم شيوخ عمد ونظار، ديل يقبضوا وديلك يعيطوا (تقعد بس)، واحدين راكبين جمال، واحدين راكبين حمير، وواحدين واقفين فراجة من بعيد، وناس عاملين نفسهم وجاهات لازم يظهروا في اللقطة).
تساءل عدولة بسخريته المعهودة:

(يا أخوانا أنا والله ما فاهم حاجة، بالله فهمووروني، ناس تقعد بس ديل قاعدين يركبوا مواصلات مثلنا؟ يتعالجوا في مستشفيات حكومة وتأليم صحي مثلنا؟ مرتباتهم ضعيفة مثلنا؟ سندويتشاتهم بالعدسية بدل فول وطعمية مثلنا؟ يدفعوا ماء ونور، نفايات، عوائد، جبايات ما أنزل الله بها من سلطان مثلنا؟ يشترون من سوق الله أكبر الذي تزيد أسعاره في كل ساعة، ومن الدلالة مثلنا؟ يوسوسون، يهلوسون، يتجننون، في كل واد يهيمون، وزى القطط الضالة يحومون مثلنا؟).

رد شنو وهو يرفع يده وينزلها بطريقة هستيرية:

(يا عدولة إنت مالك مش عائر تكبر مخك، في ناس عائزة كده، عائزين يدوسوهم دوس، خلاص تعودوا على خضوع، خنوع، ذلة، ومهانة، الواحد لما يشوف كاكي يرجف، لما يشوف سيد القرش تمسكه أم هله هله، ولما يشوف الرقاص برقص يرقص بلدي وإفرنجي، مش يهتف تقعد بس، يهتف ويقلب هوبه كمان).

عاد تفتيس حاملا أكياس العشاء، خبز، فول، موية جبنة، سلاطة، وشطة خضراء، بسط حصير بلاستيك قديم بالي، أحضر أواني من داخل الورشة، وفي دقائق معدودة كانت مائدة العشاء معدة للمدعوين، تركوا ثرثرتهم وانقضوا عليه كجوارح كاسرة، تناولوه في لذة بالغة، ومن بين فوضى طواحين هرس ومضغ، خرج صوت أميرو متمتما:

(يا أخوانا ده كله كوم، وفي حاجة ثانية كوم ثاني خالص، يسدوها بي هنا تنقد ليهم بي هناك، أحزاب موالاة فكة، خرجوا من حكومة، برلمان، ومجالس كمان؟ حوارهم الوطني، حوار الطرشان، راح في خبر كان، الفكة رفضوا تعديل الدستور لإعادة ترشيح الرئيس، سبحان الله، أحزاب جوه الحكومة وشبابها جوه المظاهرات، كراع جوه وكراع بره، وميليشيا دعم سريع قالت ما عندها دخل بقمع مظاهرات، شغلها حماية منشآت عامة وبس، إنتو فاهمين حاجة، أنا ما فاهم أبداً).

رد شنو مبتهجاً:

(دي بشائر خير، ثلاثين سنة وهم يسوطوا، يعجنوا، ويخبزوا، عمروا بيوتهم وخبروا بيوتنا، بدون خجلة دائرين يقعدوا، إن شاء الله يقعدوا في قعر جهنم، عشان يوصلونا وين؟ ورونا؟ وين؟ وين؟).

رد الأستاذ بلهجة حاسمة:

(يا أخوانا رياح التغيير هبت، التسونامي الشعبي هاج، عنيف، غاضب، يقتلع كل من يقف أمامه، لا أحد يملك القوة ليوقفه).

سكت لبرهة، رفع يديه إلى السماء الصافية ثم خاطبهم قائلاً:

(أها يا ثوار أدعو الله على الظالمين، وقت النوم جاء، إن شاء الله ما تكون نومة ما بعدها قومة، من كثرة الهموم عند الناس هذه الأيام، أصبح موت الفجأة شائعاً بينهم، وسكتت شهرزاد الثورة عن الكلام المباح، والصباح رباح، تصبحون على خير، ويوم بكرة أحلى، ولا نامت أعين الجبناء، وثورة حتى النصر، وتسقط بس).

الشعوب المتحضرة، يحيون بعضهم بعضاً: نهاركم سعيد، لأنه فعلاً نهارهم سعيد، الجو دائماً عندهم غائم، أشجار فاكهة وزينة تنمو عندهم في طرقات وفي كل مكان، طيور مغردة تطير في أمان بين أغصان هذه الأشجار، لا يتعرض لها بسوء إنس ولا جان، حمام وعصافير تطير، تحط، وترفرف بأجنحتها في سلام، أما نحن شتاؤنا قصير بارد جاف، ربيعنا لا نعرفه ولا يعرفنا، صيفنا طويل، نهاره حار جهنم، مزاجنا العام، زهق متواصل، غبار، زحمة، أنفاس طالعة ونازلة، وجوه عابسة، شتيمة ونرفزة، خناقة، مسك تلايبب، بونيه، شلووت، دم فائر، عقل طائر طائش، والسبب معلوم، جيوب فارغة أو شبه فارغة، وأسعار طالعة سماء غير نازلة، صفوف ما ليها حد، ضجوا بشكوى مرة، وصلت إلى أبعد مجرة، ولا مغيث، ولا مجيب، ولا كتابة، ولا طرة.

عبارة نهارك سعيد ضائعة بين الناس، لأن نهارهم زفت وطين، كرهوا حياتهم، كرهوا أنفسهم، كرهوا حكومة تالفة، كرهوا وجوهاً شابت تغضنت وهرمت وهي تحكم، نظام فاشل شعاره الأوحد إما أنا أو نار جهنم، نظام يبرطع فيه فاقد تربوي، متسلق، وفساد، دربهم على طاعة وتنفيذ أوامر وبس، لا تفكير ولا تمحيص، ولا زهور في أصيص.

كعادته، مر قبل نصف ساعة من موعد آذان صلاة الظهر في طريقه للمسجد على شلته النهارية، ولكن هذه المرة بنفس مسدودة، مقارنةً بالأمس لم يتغير شيء، الثلاثة ذاتهم، أبو العباس والزعيم جالسان، صمت مطبق على المكان، كأنما على رأسيهما يزق طير شبعان، شنيبو يرفع رملة بناء على سطح الكارو الخشبي من كثيب الرمل المكوم أمام المحل.

ألقى عليهم التحية قبل أن يجلس على كرسي الحديد لا صوت أو صرير، خاطبهم قائلاً:

(سلام على من اتبع الهدى، سلام على شنيبو، سلام على ثوار أكتوبر وسبتمبر، و سلام على كل من فطوره طعمية وغداه ويكة).

ردوا على تحيته بأحسن منها، هتف أبو العباس قائلاً:

(شائف كيف نحن قاعدين مثل البوم، متحيرين، ما فاهمين البلد ماشه لي وين).

رد قائلاً:

(ماشه سريعاً معتدال مارش، نحو هاوية سحيقة جداً جداً، ليس لها قرار).

دخل شنيبو على الخط وهتف قائلاً:

(شوفوا المشي الما تعرفوه، أنا مرة ماشي بالكارو هيلتي دي في شارع الله أكبر، وقفني عربية شرطة، و قفت، سألتهم مالكم يا ناس؟ قالوا الرخصة، و قفت الكارو طرف الشارع مو بعيد منهم، فكيت الكارو من الحمار، سقت حماري و قلت ليهم: شغلكم ده بي دراسة ولا تقبضوا من طرف، ما عندي ليكم رخصة، صقعوا دنقروا قالوا لي: يا حاج سوق كاروك وأمشي، والله ما عارف الدخل في رأسهم شنو، المهم رفعت الكارو وسقتها ومشيت).

سأل الأستاذ قائلاً:

(يا شيخ العرب إنت موك عارف إنه الكارو عشان يتحرك في شوارع الحكومة لازم يكون عنده رخصة ونمرة كمان؟ ارتكبتة مخالفة كبيرة، الواجب كان يدفعوك غرامة، أو يحجزوا الكارو في زريبة الكارو الهمل).

رد ضاحكا:

(طبعا مفهوم يا سيادته، لكن تعال يا زعيم الشيء حمار ولا طيارة،
وبعدين والله إن سوا كدي، حكايتي معهم حدها ما يوقف على
تسقط بس).

رد أبو العباس بنبرة مستنكرة قائلاً:

(انت عارف يا شنيبو قروش القلع دي بتمشي وين، إن قلنا ترجع
خدمات، ويني الخدمات، تعليم بقروش، علاج بقروش، رسوم ومكوس
ليس ليها أول ولا آخر، تدفع بس، ندفع، وندفع في فارغة، الحكاية
بدت بسيطة، وشوية شوية نواب برلماناتهم وفروا ليهم غطاء قانوني،
النواب ما خسرانين حاجة يا عم، شغلنهم سمسرة بين المواطن
والحكومة، وحقهم محفوظ).

رد شنيبو بنبرة ساخرة:

(يعني ما تقول لي كدي، يعني ناس الحكومة ديل يمصوا دمنا مص،
يعني الأكل أكل الدود، والحال حال العود).

رد الزعيم متسائلا:

(يا أخوانا أو يا أخواتنا على قول المصريين المحتلين أرضنا،
ومطولين لسانهم علينا، وناسنا العاملين علينا رباطة، نائمين سادين
دي بطين ودي بعجين، يعني حكاية سيدي بي سيده دي ماشه تمام
التمام، ده كلام جاء على الماشي، نرجع لموضوعنا المهم، سؤالي
أموال القلع الكثيرة دي، المأخوذة عنوة دي، وزيادة عليها ضرائب،
وجمارك تمشي وين؟).

أجاب الأستاذ بحسرة:

(يا حاج عندهم بئر أم جب، ألف مساعد للرئيس، مليون وزير،
مليونين عضو مجلس تشريعي، صرف على أمن، جيش، وشرطة
رسمية، شعبية وسرية، ماسورة نقطة مفتاحها عند حزب حاكم،
وتتقط تحت تحت على ناس، ما معروف صفتهم، ولا أصلهم ولا
فصلهم، يحلبون شطور بقرة هاملة ما عندها راعي).

رد شنيبو بنبرته الماكرة:

(أنا زول أمي عربي ساكت، كلامي اسمعوه وتَفهوه (شنب شنبله،
وشنب شنبلاوي، وشنب حنة يجيب لسيده بلاوي)، الظاهر شنبني بقي
حنة، أنا قائم الوقت وقت جهوزية للصلاة، مع السلامة).

دقائق معدودة وجاءهم صوت الإقامة لصلاة الظهر، هرولوا
مسرعين نحو المسجد بسيقان تخشبت من طول القعاد تاركين أبو
العباس من خلفهم.

بنبرة أستاذ عركته الحياة خاطب الزعيم قائلاً:

(يا حاج خلاص الدنيا أعطتنا ظهرها وما بقي لنا إلا أن نسأل ربنا
حسن الخاتمة، ونسأله أن يطف بأهل بلدنا ويجنبهم شر المحن والفتن
ما ظهر منها وما بطن، وأن ينصر الثورة، وترتفع رايات حرية،
عدل، وسلام، خفاقة في ديارنا، وسائر ديار المسلمين).

دمدم الزعيم بكلمات غير مفهومة:

(هاي، وهاي، خاتمة، هاي وهاي فتن، هاي وهاي ديار، الله يستر).

(٨)

عزلة خارجية

الحكومة التي تمتلك قوة اقتصادية، حنكة سياسية، قدرة دبلوماسية، واستقرار سياسي، لا تعاني من عزلة خارجية إطلاقاً، النظام مواجه بعزلة إقليمية ودولية، ولذلك يحاول كسرها بأيّة ثمن، رأسه هو أول ريس عربي زار سوريا، ثم قطر ومصر، ألغيت زيارته إلى الإمارات والكويت، على مستوى دول الخليج لا دعم اقتصادي، ولا ترحيب سياسي أو دبلوماسي، انكشفت سياساته البهلوانية، سياسات اللعب على كل الحبال، واللعب بالبيضة والحجر، زاد الخرق على الراتق، بعد أن انكشف وجهه القبيح، بقتله على عينك يا تاجر للمتظاهرين العزل في الشوارع، بدون ذرة حياء، يحاول التمسك بأي قشة في بحر لحي أمواجه متلاطمة هائجة، صنعه بغباء سياسي، وقلة دراية، وحنكة.

التأم شمل الشلة الثورية في يوم جديد من أيام ثورتهم المجيدة، الناس فاض بهم الكيل، كل صباح جديد وأسعار مواد التموين في زيادة مضطردة، ليس لها كايح، الحكومة تغني على وتر سوق حر، سوق حر قطعته من رأسها، حتى في أمريكا لا يتركون آليات السوق تعمل على كيفها دون رقيب أو حسيب، يمنعون الاحتكار بكل صوره وأشكاله، يتدخلون حين تتعرض قواعد السوق الحر للتلاعب، حين يتعرض الاقتصاد برمته للانهييار، وحين يتعرض معاش الناس للخطر، أما هنا الحكام يتفرجون، لأن الحكام والتجار متداخلون، من المتعذر الفصل بينهم، فهم يمتهنون مهنة واحدة، يعضد بعضهم بعضاً، معنويات الناس انحدرت إلى حضيض الحضيض، إلى نقطة ما قبل الصفر، هذا اليوم مثل غيره من الأيام التي تمر على الشلة مرور

الكرام، لا تحمل في طبيعتها جديداً غير تزايد وتراكم في هموم الدنيا، نسوا الجوع، نسوا الإضاءة، نسوا اللصوص والكلاب، نسوا أكوام الزباله وروائحها النفاذه، ولكن الشيء الذي لم ينسوه وما زال يعكر عليهم مزاجهم إن بقي لهم مزاج، أصوات تانتشر عسكريه تأتيهم من بعيد، بمبان دخانه ورائحته تسطل العفاريه، كيفهم الذي إن فقده يتحولون إلى حثالة مجانيين مهلوسين.

كالعادة تطرقوا إلى أخبار حارتهم التي فيها معاشهم، سكنهم، نومهم، وليالي بهجتهم، وإلى ثورتهم وكيف أن روحها تغلغت في النفوس، لدرجة أن الأطفال جذبهم بريق المظاهرات، وأصبحوا يقلدونها في صحوهم، ونومهم، ولهوهم، حينما يرون جندياً من أهل الحارة مرتدياً زيهِ العسكري، يسيرونه، يزفونه وهم يهتفون في وجهه (تسقط بس) ويهربون.

أخذ أميرو بزمام الحديث ودخل على طول فيما يجري من أحداث قائلاً:

(يا أخوانا هوي والله أنا مش عارف رأسي طق، ولا ما عندي رأس، كيف صاحب الفخامة الرئيس يمشي يزور قتال القتلة بشار، لازم الحكاية فيها إن).

رد الأستاذ في سخرية:

(قال إنه واقف مع الحل السياسي في سوريا، وأن يكون بشار جزء من هذا الحل، مع إنه هو نفسه قال قبالي ده: نهاية بشار قتل وليس رحيل، وبعد شوية غير رأيه قال الوضع في سوريا مختلف عن أي وضع لأي دولة أخرى، لأن من يحكم سوريا هم طائفة أقلية، والأقلية تدافع عن نفسها وحكمها لآخر قطرة دم، ولذلك لا بد من حل سلمي).

رد عدولة بلهجة أكثر سخريّة:

(قربت، قربت، دنا قطاقها، الحكاية يا أخوانا واضحة وضوح الشمس، ناس تقعد بس ما جائبين خبر، مساكين، تقعد بس دي هم ما قدرها، قدرها خليجيون، روس، وأمريكان، الأولين بالرّز، الثّانين بالخشونة، الأخيرين بالنعومة، بضغط اقتصادي، ومجلس أمن يا جن، وبعدين لا تنسوا طيارة الرئيس إلى سوريا روسية، ومشروع قاعدة روسية في البحر الأحمر تحت الدراسة، وتدريب وعتاد عسكري روسي منهمر كالمطر، وأعمال تنقيب عن نفط وغاز مدوره).

رد وليد بنبرة هادئة:

(يا أخوانا الكلام ده طبعاً حصل بعد إشاعات، وتسريبات صحف وقنوات تلفزيونية عالمية عن تطبيع النظام للعلاقات مع إسرائيل، ووقوف مع صفقة القرن، وطبعاً وراء هذا الموضوع الأمريكان وحلفاؤهم في المنطقة، ولما حساباتهم تلخبطت قالوا أحسن نشوف لينا شوفة مع شيوعيين روسيا).

قاطعه عدولة ساخرا:

(قربت، قربت، دنا قطاقها، يا أخوانا الزول المفلس يعمل شنو؟ محل ما يشوف كاش يبيع، يبيع ما يملك، وما لا يملك كمان).

رد شنو بنبرة ضاحكة:

(ناس الكويت قالوا بالواضح ما فاضح ما تجي، لعلمكم الكويت بلد فيها حريات، عندهم برلمان ونواب محترمين، أي حكومة فاشلة يدوها كرت أحمر، أحياناً العقال يدور داخل البرلمان من شدة حبهم لبلدهم، كده البرلمانات ولا بلاش، عمركم العامر سمعتم في الثلاثين سنة دي بحكومة أو برلمان حلوهم، أو عضو واحد زعل قعد في بيته؟ هؤلاء لا يمثلونا، يمثلون مصالحهم، ومصالح نظامهم، لسبب واحد أنهم إما معينون أو جاءوا بطرق ملتوية).

رد أبو علي ساخرا:

(وما تنسوا يا أخوانا حلف قطر من جهة، وحلف السعودية من جهة ثانية، مولعة بين الاثنين نار، والرئيس يريدها عسل مع الاثنين، وطبعاً ده شيء مستحيل، مش ممكن يكونوا الاثنين أغبياء، ولو إنه أحياناً لغة المصالح تجعل الدول تدعي الغباء، لكن لا بد من أن يأتي اليوم الذي يدفعوك فيه ثمناً باهظاً).

رن جرس هاتف الأستاذ، رد عليه ثم هب واقفا وخاطبهم قائلاً:
(اليوم يوم من أيام البهجة والسرور، لقيمات وشاي لبن).
هتف تفتيس:

(تسقط بس، تسقط بس، وتقع بس يا أستاذ).
ترك مجلسهم وأسرع الخطى نحو بيته.
رد سولومون بنبرة مازحة:

(ما دام جابت ليها لقيمات، نصلح، نصلح كلامنا، في دول من حولنا تكره ثورتنا عمى، الأنظمة المستبدة تعتبرها مرض معدي، شعوبهم مظلومة، لذلك يعملون بسياسة طفئ النار من بعيد، قبل ما تأكل كوم القش كله، وتوصل ليك).
رد شنو بنبرة مستنكرة:

(يا أخوانا الدول من حولنا كلها مبسوفة من نظامنا البهلوان ده، المصريون كلامهم طلو، وحلايب جوه جيبهم، العمالة الأثيوبية خربت اقتصادنا، والفسقة جوه جيبهم، التشاديون سفاراتهم في أوروبا تمنح جوازنا مثلما تمنح جواز بلدها، الجنوبيون عادوا لبلدنا الهاملة دي مرة أخرى، وعششهم مصانع عرقي ومريسة، ومناطق النزاع الحدودية جوه جيبهم، الليبيون ناس الكرامة حافظنها ليهم لأنهم يدعون أنهم خربوا بلدهم بتدخلات مكشوفة، والرئيس قال بعظمة لسانه في لحظة انتشاء، نحن دعمنا ثورة ليبيا، ونحن أسقطنا الطاغية، سبحان الله، دنيا غريبة دنيا، طاغية يُسقط طاغية).

هتف سولومون قائلاً:

(الأوربيون قصتهم معنا قصة طويلة، عندهم هاجس كبير اسمه هجرة أفاقة أوباش سود عن طريق البحر الأبيض المتوسط، يؤمنون إيماناً قاطعاً بأن هذه المشكلة إذا لم يحسموها سيأتي قريباً اليوم الذي تتحول فيه أوروبا إلى قارة أفريقية، ويكونون أقلية في ديارهم، ومقتنعون بأن الزواج إذا ما حلوا ببلاد حلت معهم مصائب، وبلدنا من مصادر ومعايير هذه الهجرة).

عاد الأستاذ بعد مضي وقت قصير، لأن بيته على مرمى حجر من المحل، حاملاً كيس لقيمات، وأكواب زجاجية، وترمس شاي كبير. باشر مدير الموائد (تفطيس) عمله، وبين غمضة عين وانتباهتها إذ بالأيدي تمسك بالأكواب، وبالأسنان تطحن اللقيمات ببالغ فرح ومنتهى سرور.

خاطبهم أميرو بعد أن أخذ جرعة لها دوي خاص:

(سمعت طرطشة كلام، والله أعلم، الأوربيون والروس يتعاملون مع ميليشيا الدعم السريع على أساس أنها هي القادرة على محاربة الهجرة غير الشرعية عبر الصحراء الكبرى، وهي التي تتحكم في المداخل والمخارج من وإلى شمال بلدنا، ولذلك يأتيها منهم دعم عسكري سخي، متطور، ومباشر، رأيك شنو يا أستاذ).

رد قائلاً:

(الكلام ده يدل بوضوح على أن ثورتكم يتيمة، ما تعشموا في دعم خارجي، إن ذبحوكم كالمعيز، سوريا ليست ببعيدة، لن يتحرك لأجلكم أحد، لن ينجدكم أحد، يا أخوانا هوي، لم يفضل شيء غير الثبات، إذا ما ثبت الثوار في الشارع، صبروا، طولوا بالهم، ساقطة، ساقطة، لأن النظام خلاص، فقد كل مقومات البقاء، ما عنده غير حل أمني، والحل الأمني عمره ما قعد نظام، المقاومة قد تطول، ولكن النظام حتماً سيزول).

صمت لبرهة، رفع كفيه إلى سماء صافية، تزينها نجوم متألئة، ثم استطرد قائلاً:

(أها يا أخوانا يله ندعو على الظالمين، ربنا بيدلنا خيراً منهم، النوم جاء، إن شاء الله نومة وبعدها قومة، ونشرب شربات الفرح، وسكتت شهرزاد الثورة عن الكلام المباح، والصبح رباح، وتصبحون على خير، ولا نامت أعين الجبناء، وثورة حتى النصر، وتسقط بس).

ذهب الليل، أشرقت الشمس، أتى النهار، كل الكائنات دبّت فيها حركة ونشاط بعد سكون وراحة طويلة دامت لعدة ساعات، أما شعبنا، الشعب الغلبان الحيران، لا فرق بين نهاره وليله، رب العالمين خلق الليل لباساً والنهار معاشاً، التبس عليهم هذان الجديان، معاشهم في خير كان إلا لمن رحم الله، ليلهم من كثرة الهموم، لا غطى لا نوم، ولكن! النهار من جهة يذكرهم نهار ومسار، ومن مع من؟ ومن ضد من؟ من الذين يتناوشون على محشي زبيب وتونة، ومن جهة ثانية يذكرهم من فاكهتهم نبق، قضم، لالوب، تبش، عجور، خيار؟ الذين في غالب أيامهم يبيتون على قوى وطوى.

كالعادة، وبنفس مقفول، مسدود، ومهرود، لأنه حكايات رشي، ربا، وفساد مقنن أصبحت روائحها تزكم الأنوف، مر قبل نصف ساعة من موعد آذان صلاة الظهر في طريقه للمسجد على شلته النهارية، نعم لقد تغير شيء هذه المرة، غاب الزعيم، أبو العباس داخل مغلقه، وشنيبو نائم على ظهره فوق أكياس الإسمنت المرصوصة بالداخل، خالفا كراع فوق كراع.

ألقي عليهما التحية وبعد أن جلس على كرسي الحديد التليد خاطبهما قائلاً:

(وين الزعيم؟ أوعه يكون اعتقلوه في مظاهرة من مظاهرات أمس؟).

رد أبو العباس ضاحكا:

(إلا دي، هل نسيتم حكايته التي حكاها لنا، لما قال في واحد دفعته، في عمره كده، زهجان وقرفان ماشي في الشارع لقي المظاهرة قدامه، ما صدق، دخل فيها توش، وطبعاً لا بجدع، ولا بجيب حجارة، المهم جرجر كر عينه ومشى في الزفة وسط المحتجين، وبس الدفارات كبست، الشباب عارفين المخارجة كيف، صاحبنا لا قادر يجري ولا قادر يعمل حاجة، مسكوه، الشرطي نهره نهير شديد وقال ليه: أمشي يا راجل يا هالك، ماشي بطلوع الروح، احترم نفسك، ثاني ما نشوفك هنا).

رد الأستاذ وعينه تدمعان ضحكا:

(يعني الزعيم ما هو زولا غبي، فاهم وحافظ الدرس، لن يحشر نفسه في معركة يعلم سلفاً أنها خاسرة، ونتيجتها بهدلة ما بعدها بهدلة).
جلس شنيبو القرفصاء، ضحك حتى تفنقل على قفاه من شدة الضحك، ثم خاطبهما بخبثه المعهود قائلاً:

(إنتو كلامي ما بدوروه، ما كلام عربي ساكت، لكن أسمعوا مني قولة: (لعب الموقدرك يفكك صدرك)، مالكم، أنتم خسرانين حاجة أسمعوها وأرموها في البحر).

رمقه أبو العباس بعين حارة ثم التفت نحو الأستاذ وخاطبه متسائلاً:
(وبعدين يا أستاذ سيبك من حركات شنيبو الفارغة دي، الأمور ماشه إلى أين؟ العالم الآن كله يتفرج على ثورتنا السلمية).

رد بحسرة:

(ألم تر صور الروس وهم يتجولون في الخرطوم؟ النظام ده مستعد يتحالف مع الشيطان، في سبيل أن يظل زانقنا، مكتفنا، وخانقنا).

ضحك شنيبو مرةً أخرى ورد قائلاً:

(هوي، يا هوي، هوي، أنا والله محترمكم وكلامي عارفه مو عديل (الما عنده كلب يحرسه يفتشلو كلب)).

رد أبو العباس قائلاً غير عابئ بكلام شنيبو:

(يا أستاذ سيبك من جعجة شنيبو، (أسمع جعجةً ولا أرى طحناً)، قول حاجة، خبرنا عن زيارات الرئيس المكوكية إلى الخارج).

رد قائلاً:

(البلد ما فيها حاجة، خزينة مفلسة، واقتصاد خراب، تمشى كيف؟ لازم ينط كل يوم في بلد، بلاد معروفة أنها لا تقدم ولا تؤخر، المؤيد يفتش خشم البقرة، يبحث عن دفرة من هنا، ولا هناك).

دخل شنيبو على الخط قائلاً:

(أنا أمي ساكت لكن نصيحتي ليكم ولغيركم، (اللي يطلع لي فوق تنكسر رقبته)).

سأل أبو العباس قائلاً:

(والدفرات دي يا أستاذ، باقي ليك ح تجيب نتيجة؟).

رد ساخراً:

(المهم يحاولوا يدرجوا المعطوبة، إلى أن تأتي الانتخابات، طبعاً انتخابات وهم في وهم، وبعدين ربك رب الخير يعدله).

وَهُمْ فِي خِضَمِّ حَدِيثِهِمْ جَاءَهُمْ صَوْتُ الْإِقَامَةِ لِصَلَاةِ الظُّهْرِ،
هَرُولًا بِسَيْقَانٍ مَبِيَّةٍ خَدَّرَهَا طَوْلُ قَعَادٍ نَحْوِ الْمَسْجِدِ تَارِكِينَ أَبُو الْعَبَّاسِ
مِنْ خَلْفِهِمَا، خَاطَبَهُ بِمِرَارَةِ قَائِلًا:

- (يَا شَيْخَ الْعَرَبِ، يَا شَنْبِيئُو أَيَّامِنَا فِي الدُّنْيَا مَعْدُودَةٌ، مَا فَاتَ مِنْهَا
نَحْمَدُ اللَّهَ عَلَيْهِ، أَمَا أَيَّامُ أَوْلَادِنَا وَأَحْفَادِنَا، وَاللَّهِ نَخْشَى عَلَيْهِمْ أَنْ تَكُونَ
فِي ظِلِّ حُكْمِ أَوْلَادٍ مِنْ يَحْكُمُونَا الْيَوْمَ، إِنَّهُمْ يَرْتَبُونَ لَذَلِكَ، أَلَمْ يَقُولُوهَا
إِنَّهُمْ بَاقُونَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، يَعْنِي يَتَوَارَثُونَهَا أَبًا عَنْ جَدٍّ، مَلَكيَّةَ عَدِيلٍ،
بِسَاطِعِ وَرَائِحَةِ وَيَكَةِ (سَارَا) لَا شَرْقِيَّةَ لَا غَرْبِيَّةَ).

رَدَّ قَائِلًا وَضَحَكَ عَرِيضَةً تَمَلُّ وَجْهَهُ:

(أَبُوكَ بَصَلٌ وَأَمَّكَ تَوْمٌ مِنْ وَبِنِ الرِّيحَةِ الطَّيْبَةِ يَا مَشْؤُومَ، وَدِ
الْوَزِ عَوَامٌ).

(٩)

عزلة خارجية بعيون داخلية وخليجية

بعد اندلاع المظاهرات قام الرئيس بزيارة مفاجئة لقطر، استقبلت البلاد وفدين رفيعي المستوى من السعودية والامارات، أدى ذلك إلى الحصول منهما على دعمين سياسي واقتصادي مقدرين، الامارات تقوم بتقديم قمح ومواد بترولية، والسعودية تزيد من وتيرة استثماراتها في البلاد.

السؤال! لماذا تجاوزت دول الخليج خلافاتها البيئية ودعمت نظام متآكل مهالك؟ وهل فعلا تخشى من ربيع عربي جديد قريب جداً من حدودها؟

التأم شمل الشلة الثورية في يوم جديد من أيام ثورة ميمونة، كل يوم جديد والثورة تزداد احتراماً والنظام يزداد احتقاراً، ثورة سلمية نظيفة، منظاهرون أياديهم عارية، مرفوعة، متشابكة في ملحمة فريدة، حناجرهم ناشفة ظمأى لحرية مفقودة، يرددون بلا انقطاع تسقط بس وأخوانها، أقدام حافية، مشققة، ومتيبسة تترك آثارها وبصماتها فوق إسفلت الشوارع، ونظام لا يحسن شيء سوى قتل، سحل، وضرب، مُقِرُّ بفشله وتقصيره في توفير حياة كريمة لشعب طيب، ومقر بحقهم في تظاهر سلمي وفي حياة كريمة، ولكن منطقته الملفوف، أنه للدين فداء، وأنه إما أن يحكم أو يقتل، وأن قتلاه يحسبهم من أهل الجنة وقتلى الثوار يحسبهم من أهل النار.

ولكن هل كل دول العالم تحتقره؟ بالتأكيد الإجابة لا، من تحترم حقوق الإنسان منها تحتقره، والعكس صحيح.

كالعادة أميرو واقف بالمرصاد ليكون أول المتحدثين، هتف قائلاً:
(يا أخوانا بالأمس قناة تلفزيونية معروفة عملت لقاء جمع بين معارض من عندنا، ومحلل قطري، ومحلل سعودي، كانت مباراة نار بس ريال وبرسا، شهدت أهدافا بالجملة كلها دخلت في شباكنا، نحن حارس مرمانا منو؟ ما شعيرية، وشعيرية دفاعه مسخرة، مدافعين كلهم كباري، سيفانهم طويلة رفيعة، سميرية، مع أي كسرة يفضحنا يقع، طريقة لعب فريقنا لا تقنع أي مشجع بأنه إذا لعب مع تيم عرجان يكسب المباراة).

رد الأستاذ بنبرة لا تخلو من استنكار:

(فعلا حضرت هذه الحلقة، وكانت كلها ماء في درجة الغليان صبوه فوق رأس شعيرية، زولنا هاجم الآخرين قائلاً: (النظام أدمن اللعب على جميع المحاور الخليجية كقرد يلعب فوق أغصان الأشجار)، رد السعودي: (من ثوابتنا دعمكم حكومة وشعباً من أجل استقراركم، لا ندعم جماعة ولا حزب، وأننا قدمنا في الماضي ما يعادل ثلاثة وعشرين مليار ريال مساعدات لكم، وبعدها قدمنا ما يعادل مليارين ريال)، رد القطري: (دول الخليج لها مصالح في شكل استثمارات ضخمة في بلدكم)، يعني يا سادة يا محترمين، الحكاية كلها في النهاية تتلخص في أن كل ما يقدمونه من دعم غرضه حماية مصالح، وحماية نظام، نظام يتكفل برعاية وحماية هذه المصالح، وطز في شعب وما أدراك ما شعب).

رد تفتيس بنبرة ملهوفة قائلاً:

(يا أخوانا دي حلقة مهمة جدا، فاتتنا، سمعونا بالله كل ما دار فيها).

رد أميرو ساخطا:

(في كلام خطير جدا قالوه، زولنا هاجم القطري قال: (نظام الرئيس مرتبط بتنظيم دولي للإخوان المسلمين وبالشيخ القرضاوي في قطر، وأنه يمثل تيار إسلامي)، رد القطري: (قطر مجتمع إسلامي معتدل وسطي فيه كل شيء متاح)، رد السعودي: (الواقع أن السودان يمر بظروف اقتصادية صعبة منذ سنوات طويلة، والسعودية والإمارات متفقدان في سبيل دعم شعبه، والجانب القطري له أجندة واضحة في تبني الإسلام الحركي، ومن حظ السودان أن الدول الخليجية تجاوزت خلافاتها ودعمت نظامه الحاكم)، سبحان الله، قال من حسن الحظ بدلاً من أن يقول من سوء الحظ، فعلا هؤلاء الخليجيون أعماهم الترف والرفاهية التي هم فيها من أن يميزوا بين صالح وطالح للشعوب، وأصبح من حقهم أن يحشروا أنوفاً مغموسة في براميل نفط في كل مكان).

رد الأستاذ بمرارة:

(وأزيدكم من الشعر بيتاً يا أحرار، زولنا هاجم النظام قال: (النظام دمر بلادنا داخلياً ودمر علاقاتها خارجياً، فاسد وغير قادر على إدارتها، التعاون بين الدول يجب أن يكون لمصلحة الجميع)، رد القطري: (ولي عهد المملكة طلب من البشير زيارة بشار مقابل دعم، والخوف على السودان من التآمر الخارجي كما حدث في الماضي من قبل الكنيسة الإنجليكية، وأن هناك أجندة غير عربية)، يا أخوانا والله حيرونا هؤلاء الناس، الحكاية مسخرة وخداع، أم هم مغيبون عن فهم حقيقة ما يجري في بلدنا، النظام كوم، والشعب كوم آخر، النظام يقابلهم بوجه بائس ويقابل شعبه بوجه متجهم كالح، النظام ثعلب مكار في ثياب واعظين).

رد أميرو بنبرة حانقة:

(لسه ما سمعتم حاجة، أسمعوا كلام العَصِر، عصر الزيت، زولنا قال: (الأزمة في السودان سياسية وليست اقتصادية)، رد القطري: (لا نريد للسودان أن ينزلق إلى ربيع عربي سوداني كما حدث في بعض الدول العربية الأخرى، ورئيسه على العكس من الرؤساء الذين مضوا، حكومته لا تمتلك سلح استراتيجية كالبتترول، وذلك بالطبع سبب للاستقرار، السودان دولة فقيرة، ومن يأتي غيره لن تكون له عصا موسى، ندعم حكومته لأنه شخصية ودودة وطيبة، لا بديل واضح له مرضيا عنه، شيطان تعرفه، خير من شيطان لا تعرفه)، رد زولنا: (هذا الرئيس الطيب قتل الآلاف من أهلنا في دارفور، والنيل الأزرق، وجبال النوبة، وقتل المتظاهرين في سبتمبر، وقتل أهلنا في كجبار وبورتسودان وغيرهم، ويمعن فيهم تقتيلا حتى اليوم).

رد عدولة بلهجة ساخطة:

(قربت، قربت، دنا قطافها، يا أخوانا القطري ده مؤتمر وطني ولا شنو؟ إذا كان القطريين كلهم ينظرون إلينا على هذا النحو، على قطر السلام، حسبنا الله ونعم الوكيل فيكم، وإنا لله وإنا إليه راجعون).

رد الأستاذ بنبرة راضية مطمئنة:

(على العموم يا سادة حلقة التلفزيون كانت مفيدة بالرغم من هناتها وسقطاتها، تمنيتها تطول أكثر، أها يا أيها الأحرار، النوم، النوم، نحن ذاهبون للنوم على أسرة ذات فرش وبطائن من قطن وثير، والثوار يبيتون من وراء قضبان داخل زنازين محروسة، مغلقة بترباس وطبلة، على بلاط، مع ضرب، ركل، شتم، وعذاب بأيادي زنادقة، ماجورين قتلة، سفاكي دماء، حثالة مجتمع، وسكنتت شهرزاد الثورة عن الكلام المباح، والصبح رباح، تصبحون على خير، ويصبح كل ثائر على خير، ولا نامت أعين الجبناء، وثورة حتى النصر، وتسقط بس).

الليل وما أدراك ما الليل، في بلاد أخرى ليلها لسمر، لقراءة،
لكتابة، لاختراع، لإبداع، لتدبر في مخلوقات الله، سماوات، أرض،
قمر، نجوم، وأفكار جميلة تنفتق عن أذهان نيرة، أما بلادنا ليلها
صندوق أسود يخترن أنات وآهات مظلومين، مقهورين، يتامى،
ثكالى، جوعى، ومرضى، الليل عند السحر هو أوان رفع المظلومين
لأكفهم إلى رب السماوات والأرض، ودعوة المظلوم مستجابة ولو إلى
حين، والليل ستر وغطاء للظالمين، لأنهم خفافيش، لا يصطادون إلا
في الظلام.

النهار وما أدراك ما النهار، في بلاد أخرى نهارها كد، عمل،
وإنتاج، ظروف وبيئة إنتاج مواتية، حوافز مادية ومعنوية مبهولة،
استقرار ذهني ونفسي يروق المزاج، أما بلادنا قطوعات كهرياء
مبرمجة، بنزين جازولين بالصف، سيولة معدومة، وقائمة تطول
وتطول، وبأي حال من هذه الأحوال، وبأي ظرف من هذه الظروف،
أن يكون في الإمكان حركة إنتاج؟ بالله عليكم إلى متى الصبر على
هذا الحال؟ حرام، حرام، ثم حرام، الشارع بس، وتسقط بس.

إنهم ينعنون المتظاهرين بالجرذان ويريدونهم أن يعودوا إلى
جحورهم، لأن الجرذان محرم عليها أن تشتكي، أو تحتج، أو تأتي بأي
فعل يعكر الصفو العام، لأن أفعالها مصنفة قلة أدب وخروج على
الحاكم، والسؤال المهم ما مصير باقي الجرذان الذين لم يخرجوا في
المظاهرات وآثروا السلامة، ورضوا بتهيل وتكبير، وبجوع وقهر،
ورضوا بحشر داخل جحور لا يفارقونها إلا عند ضرورات؟ الثوار
يرفضون أن يموتوا كما جرذان، يفضون غبار جحورهم، يخرجون
من ظلامها إلى ضوء النهار، يخرجون من ضيقها إلى وسع أرض الله
المبسوطة، إنهم الآن سادة، وغيرهم جرذان ترزح تحت
قيود جحورها).

مر كعادته قبل موعد آذان صلاة الظهر في طريقه للمسجد على شلته النهارية، وجد هذه المرة أبو العباس واقفا تحت الشجرة الخضراء أمام محله، وشنيبو يتوضأ عند صنوبر الماء.

ألقي عليهما التحية ثم جلس على الكرسي الحديدي، الذي لا يبكي ولا يشتكى ولا يتزحزح من مكانه المعهود، خاطب أبو العباس قائلاً وهو يشير إلى الكرسي:

(كرسيك ده نقول عليه جبل حديد ولا أهرام جيزة، أديه بوهيه، خلي يفرهد شويه، أها الأخبار شنو؟ هل من جديد تحت شمسنا الحارقة؟).

رد قائلاً:

(كتر خير، مُقعدك ببلاش، عارفك ناكر جميل، المظاهرات مدورة، والساقية لسه مدورة، ومدورة، لمن نسمع خفيف، وهفيف أوراق شجرة الحرية).

قال:

- (نلقاها من منو، الخليجيون شغالين ضدنا، النظام تحت إبطهم، قالوا على بلدنا دولة فقيرة، كذبوا، نحن لسنا دولة فقيرة، نحن أغنياء بمواردنا، بشرية، طبيعية، ثقافية، فكرية، ولكن المشكلة فينا، ماسكة في زمارتنا عصابة فاسدين فاشلين غير أكفاء ماسكين زمام الأمور، وكفاء اتنا الوطنية مشردة في أصقاع الدنيا).

رد قائلاً:

- (السعودية من مصلحتها دعم النظام ما دام جيشه باق لحماية ظهرها في اليمن).

قال:

- (كل طرف من أطراف الخليج لا يريد لبلدنا أن تقع بالكامل في حضن الطرف الآخر).

رد قائلا:

- (أترك هذه الهرطقة، أترك هذه الدول، تعال لأوروبا، أمريكا، روسيا، والصين، كلها تناست حاجة اسمها حرية، ديموقراطية، حقوق إنسان، ووقفت متفرجة على ما يحدث لنا، طيب عرفنا روسيا والصين معذورين لأن فاقد الشيء لا يعطيه، والباقيين مالهم؟).
قال:

- (يا أخوانا الحكاية مصالح، حرية شنو، وكلام فارغ شنو، ما دام النظام يحارب الإرهاب، والهجرة غير الشرعية إلى أوروبا، حقوق الإنسان بحح، روسيا تطمع في أن يهرب النظام من حضن أمريكا إلى حضنها مضطراً، لا تنسوا موعودة بقواعد عسكرية، الصين عابدة المال تطمع في تطوير استثماراتها، واسترداد ديونها، وزيادة تعاملها التجاري).

حك شنيبو فروة رأسه ثم خاطبهما قائلاً:

(أنا زول عربي ساكت، اسمعوني وتجاهلونني، اليذ في النار ما زي اليذ في المويه).

رد أبو العباس قائلاً:

(يا شيخ العرب خاف الله، قول كلمة الحق ولو لمرة واحدة، برئ ذمتك أمام الله).

- (أنا خائف الله ماني خائف من زول، عيل كلامي عديل، والكلام الملفوف، ملفوف).

- (يا شيخ العرب يعني عاجبك النطيط هنا وهناك، الراجل يركز مكان واحد، وحاجة ثانية إذا كنت لا تقدر تقول كلمة الحق، لا تصدق كلمة الباطل يا رجل، كبر مخك شوية).

- (كلام العرب ساهل وصعب، وأنا زول عربي ساكت، كلامي ليكم: يا حافر حفيرة السوء وسع مراقذك فيها)، دخل الكلام ده في رأسكم دخل، ما دخل، إن شاء الله ما يدخل).

لم يكملوا بعد باقي حديثهم وإذ بهم يسمعون صوت الإقامة لصلاة الظهر، هرولا مسرعين نحو المسجد تاركين أبو العباس من خلفهما، في الطريق خاطب شنيبو قائلاً:

- (يا شنيبو أنت رجل طيب وأهل بلدنا كلهم طيبين، ولكن مشكلتنا في حكامنا).

رد قائلاً في قدريّة مطلقة لا تعرف معنى أعلها وتوكل:

- (الإرادة بيد رب العالمين، خلاص، الكلام انتهى، نسوي شنو؟ ما نسوي حاجة، نعاين بي عيوننا، نحن ما في يدنا حاجة، نرضى بيهم ونحن ساكتين، والبسويه الله يسويه).

(١٠)

احتجاجات مستمرة

ظل الحال على ما عليه، كيف ينعدل الظل والعود أعوج؟ حياة الناس تحولت إلى جحيم، مظاهرات واحتجاجات ترسل رسائل على مدار ثلاثة أشهر، ونظام يقول رسائلكم وصلت عليكم العودة إلى بيوتكم، ومتظاهرون يقولون (تسقط بس)، ونظام يمعن في حله الأمني باستخدامه عصا غليظة، رباطة، بلطجية، شبيحة، وملثمين، يعني في تحد فاضح يقولون للأشهاد (تقعد بس)، لا حوار، جمود، تكسير عظام، لي أصابع، والرابح في النهاية من يملك القدرة على صمود لوقت أطول.

التأم شمل الشلة الثورية في يوم جديد من أيام ثورة مشتعلة، كل يوم جديد معسكرها يكبر ومعسكر النظام يتآكل، كيف لا يتآكل وعامل خفي (انهيار اقتصادي) ينخر في بناء دولة خربة تقوم على فساد، محسوبية، ورشوة، كيف لا يتآكل ولا يوجد راشد حكيم من بين أهل نظامها، يبصر بعيوب ويهدي إلى سراط مستقيم، يبصر من أعمتهم مكاسب، غنائم، سلطة، جاه، وثروة، عن رؤية زلازل، وبراكين، تتحرك تحت الأرض، قريباً ستصل إلى موضع أقدامهم الرخوة. ابتدر أميرو الكلام قائلاً:

(يا أخوانا هذا النظام أي حاجة يكسر بيها شوكة الثوار عملها، والثوار يمطون ألسنتهم ويقولون له في وجهه العابس (بعيد عن شنباتك، نحن مرقنا ضد السرقة بلدنا، رجعة ما في (تسقط بس)).

رد عدولة بنبرة مبتهجة:

(قربت، قربت، دنا قطافها، ناس تجمع المهنيين ديل حيروهم وحيرونا، مدورين تمام، عملوا جدول أسبوعي للمظاهرات، شوارع، مسارات، على عينك يا تاجر، ما في مدسه، تحدي سافر، والحشاش يملأ شبكته).

رد الصادق مبتسما:

(المهنيون حريفون، كفاءة عالية، خطوة، خطوة، ما في عجلة، النظام مزنوق، لازم وغصباً عنه يوفر ضروريات الناس، مخنوق، لا ينفع خليج ولا روس، خلاص آخر السطر، نقطة).

قال تفتيس بنبرة لا تخلو من شعور بالراحة:

(يا أخوانا الثورة حركت مياة راكدة، في ناس بدأوا يتحدثون عن مبادرات، وحكومة انتقالية، وآخرون يتحدثون عن تعديل دستور).

قال وليد بنبرة مليئة بالأمل:

(الحكاية ماشه في تطور عجيب، كل يوم مفاجآت، الثورة كل ما تستمر تثبت أكثر، تجذب إليها قوى جديدة، أمس طلعت مظاهرات حاشدة، كان مرتب لها أن يقودها اثنان وعشرون من قيادات حزبية، ولكن تم اعتقالهم جميعاً قبل انطلاقها).

قال تفتيس بحماس:

(المهنيون ديل خطرون جداً، عملوا وقفات احتجاج للعاملين بشركات الاتصالات الكبرى، عملوها كيف؟ ما في حد عارف، كنا فاكيرين العاملين في هذه الشركات دي هم أولاد النظام، جابوهم بواسطة، محسوبة، وتمكين، لأنه الاتصالات عندها خصوصية أمنية عالية، ولكن سبحان مغير الأحوال، جعل كيدهم في نحورهم، وجعل موسى يتربى في كنف فرعون).

رد الأستاذ ساخرا:

(يا أخوانا ناس النظام كذلك خطرون جداً جداً، صرحوا في الجنية الرئيس سيظل باقيا عشرة سنوات لقدام، مبادرات شنو، قال مبادرة جامعة الخرطوم، ومبادرة جامعة الجنية، فاهمين حاجة، ده طلس ملص، ده سواقة حمير بالخلاء).

رد تفتيس مستهزئاً:

(خلوهم يشطحوا، زي ما يشطحوا، أهو الجن الأحمر طلع عليهم بتصريح سخن جديد: مسئول أمريكي يحذر من أن قمع المظاهرات يهدد جهود سحب النظام من القائمة السوداء، يعني قائمة الإرهاب، يعني الكلام دخل الحوش، مش لعب عيال صغار، بقي لعب معلمين كبار).

قال الأمير بنبرة متفائلة:

(يا أخوانا أرى تحت الرماد وميض نار، الثورة ماشه تمام، بدأت تكبر، النظام يتفتت ويتشرذم، ظهرت جماعة إسلامية جديدة باسم (التنسيقية الوطنية للتغيير والبناء)، غرضها تشكيل مجلس سيادة، وفترة انتقال سياسي، وتشكيل حكومة كفاءات يقودها ريس وزراء متفق عليه، وتشكيل مجلس نيابي لتشريع ورقابة، وسن قانون عدالة انتقالية، وتكوين آلية وطنية للعدالة والإنصاف).

قال عدولة ساخرا:

(قربت، قربت، دنا قطاقها، النظام ذكي جداً، حكمنا ثلاثين سنة، الغرور ركبه، لعب على عرب وعجم ثلاثين سنة، شوية شُفع، صُيع، شُذاذ آفاق، في نظره، عاملين فيها ثوار، يحلمون، ما يقدرنا يحركوا شعرة في رأسه؟).

رد شنو شامتا:

(قلت شنو، الشفع ديل بهدلوهم، خلوهم يجروا واطي، قانون النظام العام لغوه، النقه عليه كثرت، ما في نتيجة، شارع النيل فتحوه لستات شاي وقهوة، وحاجات ثانية داخلة في باب ما خفي أعظم، وما في نتيجة، مراكز الشباب أحيوها، ما في نتيجة، ملاعب السداسيات في الأحياء كثروها، ما في نتيجة، الشباب قالوا (تسقط بس)، النظام فاكر الناس كلها طير يتأكل لحمه).

رد أبو علي متحيرا:

(شباب محير، جراءة عجيبة، شجاعة وجسارة غريبة، جابوها من وين؟ في زما ما كانت عندنا جسارة زي دي، خوف ما في، لا يهم طلاقة، بمبان، كاكبي، ملثم، سريع، بطيء، شيطان، فعلاً جيل راكب رأس).

رد وليد مبتسما:

(زما لما أشوفهم ماشين قدامي في بنطلوناتهم الضيقة النازلة لنص الجعبة، أقول ديل الله يكفيننا شرهم، ح يضيعونا، ح يضيعوا البلد).

رد عدولة بنبرة مبتهجة:

(قربت، قربت، دنا قطافها، ديل طلوعوا على العكس تماما، شباب مفتح، يكون الجو هادي، فجأة تسمع زغرودة كنداكة، أو صفقة، أو عبارة حرية كرامة عدالة، والقيامه تقوم، ما تعرفهم طلوعوا من وين، مرقوا من تحت الأرض، نطوا من فوق الشجر، نطوا من أسطح البنايات، ما تفهم حاجة، في لحظة الدنيا مقلوبة فوق تحت، كدرابة، قيامه وقامت).

رد الأمير بحماس:

(صحيح أكثرهم شباب، ومعهم شوية كبار سن، المظاهرات لامة خلق لا يعلمه إلا الله، صلعة، شيبية، بنطلون، جلابية، عمة، صُديري، طاقيه خضراء، أب سيجارة، أب سفه، أب سبحة، كلهم كاسحين قُدام، خلاص يا روح ما بعدك روح، خلاص بلغت الحلقوم).

رد الأستاذ بنبرة لا تخلو من انبهار:

(هذه المواكب وحدت الشعب، لا للقلبية والجهوية (يا عنصري ومغزور كل البلد دارفور)، لا للفردية والدكتاتورية (جيش واحد شعب واحد)، كل الناس، كهل، شاب، طفل، معوق بأطراف مبتورة، يجوبون الشوارع يرددون (تسقط بس)).

رد تفتيس باعتزاز:

(يا أخوانا من هو المَعَوَّق؟ هو فاقد همة وإرادة، وليس فاقد حواس أو أطراف، المعوقون في قلب المظاهرات، على عجلات يتحركون، بأرجل خشبية يمشون، وعلى عصي يتكوؤون، صم وبكم يؤشرون، وما تنسوا حتى المجانين، وسط المظاهرات لافين، جائبين خبر الدنيا ولا ما جائبين لا يعرف سرهم إلا مجانين مثلهم).

قال الأستاذ بارتياح:

(هذه ثورة فريدة، نسيج وحدها، يفجرها شعب معلم، يعطي دروساً في النضال لكل شعوب العالم).

صمت لفترة طويلة، خالها سنة، مر أمامه شريط لمواكب الشهداء، والمصابين، والمعتقلين الذين يواجهون أشد صنوف العذاب من سفاحين قتلة، نزع الله من قلوبهم رحمة وإيمان، وملاًها بهوس وكراهية، أحنى رأسه لهم إغزازاً وإكباراً، ثم استطرده قائلاً:

(أها يا جماعة الخير، زمن النوم جاء، يا لفضيحتنا، نحن ذاهبون لفرش وثيرة، وثوار أطهار منهم من يعانون من فرط تعذيب وراء قضبان، ومن هم ممددون بين حياة وموت تحت أضواء كشافات غرف عمليات، ومنهم من يببتون على طوى ببطون التصقت بظهور، رحمتك يا رب بالمعذبين في الأرض، وسكنتت شهرزاد الثورة عن الكلام المباح، والصبح رباح، وتصبحون على خير، ولا نامت أعين الجبناء، وثورة حتى النصر، وتسقط بس).

الليل، الليل طويل جداً، ظن أن الشمس نسيت أن تشرق، ولماذا تشرق؟ ما دام الليل والنهار عند الناس في بلده سيان، لا يهنئون بطعم راحة في ليل ولا نهار، ليلا النسوان لرجالهن بالمرصاد، حساب نكير في القبر، والعين بصيرة واليد قصيرة، ينومون على جنبهم الأيمن، يسمعون كلمات حارة، ينومون على جنبهم الأيسر يسمعون كلمات أحر، ينومون على بطونهم، معناه أنهم من الأراذل، ينومون على ظهورهم، معناه أنهم يحقرون الناس، وفي الآخر المسكين يضع طاقيته فوق رأسه، ويمرق يخلي البيت، ويلف كمجانين في الشوارع، النهار فلم لرعاة بقر في غرب أمريكي أيام حمى ذهب وعبودية، المواصلات مصارعة ثيران إسبانية، التعريفة مضروبة في أربعة، عجبك، عجبك، ما عجبك نوم على رصيف، أو أركب وبعدين أذفع ما عندك، ولما تسمع من الكمساري أوسخ تعنيف، تمسكن ليهو خليك حريف، هذا ذهابا، أما إيابا تختفي كل وسائل المواصلات ويبقى فقط معبود الجماهير (الهائيس)، تعريفته حسب إنسانية وذوق سائقه، وطبعا هذه الأيام انعدمت مثل هذه الأشياء، الفطور، صحن الفول المصلح، فات حاجز الخمسين جنيها، كباية القهوة فاتت خمسة عشر جنيها، وال ما عنده قروش يأكل ويشرب بعينه، أين أنت يا جحا، الأن الفقراء يقفون أمام مطاعم تتبعث منها رائحة لحم مشوي، ويقفون أمام

هايسات، مقاعدها وثيرة، تنبعث من عوادمها أدخنة سوداء، أهل المطاعم يطالبون بثمان الاستمتاع برائحة الشواء، وأهل الهايسات يطالبون بثمان الاستمتاع بصوت غناء وموسيقى مسجلات ومنظر مقاعد فخمت، حكمت بين أولئك بأن رميت عشرة قروش فضية، رميت بها على الأرض، وقلت لصاحب المطعم: استمتع صاحبك برائحة اللحم المشوي ولكنه لم يذق طعمه، وأنت تستمتع بصوت رنين القروش ولكن لن تتالها، أين أنت يا جحا لتفصل لنا بين ركاب فقراء وأهل هايسات ما فيهم رجاء.

كالعادة، وبخاطر مكسور أنب نفسه، أنبها على تقاعسه وعدم مساهمته في هذه الثورة بأي شكل من الأشكال، عمر مديد وصحة واهنة يمنعانه من إضافة رقم جديد إلى عدد المحتجين، الثورة لم تصل بعد إلى مرحلة فتح القنوات لمن يريد أن يساهم بدعم مادي أو معنوي. مر كعادته قبل نصف ساعة من موعد أذان صلاة الظهر في طريقه للمسجد على شلته النهارية، عاد الزعيم بعد غياب عن جلستين، أبو العباس واقف أمام المحل وشنيبو يحمل بعض أغراض البناء فوق الكارو.

ألقى التحية ثم جلس قبالة الزعيم على كرسي الحديد الأصم الذي نزل على الأرض من نيزك آخر، ثم خاطبه مازحا:
(معقول يا زعيم تغيب عنا لا اتصال، لا كلمة، ولا حتى رسالة واحدة منك بيها نتصبر شوية، قطعنا فيك قلنا ركب رأسه، الدم فار في عروقه، دخل مظاهرة والجماعة الطيبين كمشوه، خلوه في الحفظ والصون عندهم يومين ثلاثة).

رد ضاحكا:

(يا ناس أنتم مجانين، نحن ثاني نقدر على تكسير عن اقريب ، نحن فراجة بس).

تنحح شنيبو ثم رد بخبث:

(أنا زول ساكت، ونصيحتي ما ليها قيمة، ومع ذلك أسمعوها، (إذا
كثروا الرعيان ضاعت الغنم)).

قال العباس متسائلاً:

(يا أخوانا خلونا من همز ولمز شنيبو، أخبار المظاهرات شنو؟).

رد الزعيم بنبرة متفائلة:

(أقول ليكم كلام شوف عين ما كلام قوالات، ما رأيته يملأ العين،
يشرح الصدر، ويرفع الرأس، أداني إحساس بأنه (أصبح الصبح ولا
السجن ولا السجان باق) ح ترجع ثاني، خلاص، ثلاثين سنة كفاية
عليهم وعلينا).

التفت الأستاذ نحو شنيبو وخاطبه متسائلاً:

(أها يا شيخ العرب رأيك في كلام الزعيم ده شنو؟).

رد بدهائه المعروف قائلاً:

(أنا الحين ما فاضي ليكم، عندي طلبية نوديتها ونجيكم، لكن الحين
كلمتي ليكم واحدة، أنا تراني ما متعلم أفهمها زي ما تفهموها،
(أضان الحامل طرشا)).

ضحك أبو العباس وقال مازحاً:

(يا شيخ العرب تعمل أطرش، تعمل أبكم، تعمل أشرم، ما دايرنك، تقع
من كارو، تقع من سقالة، ما دايرنك).

رد ضاحكا وهو يمسك بزمام حماره:

(هوي، هوي، أروعوا بي قيدكم، المي الحار ما هو لعب قعونج يا
قعونج).

رد الزعيم متحسرا:

(والله أنت فعلا مغفل نافع، سامع كلام فارغ في فارغ، سامع كذب، وشائف قتل، سحل، وضرب قدام عينك، وعامل ما سامع وما شائف، الساكت عن الحق شيطان أخرس، يا أخرس، اتق الله، عمرك كم سنة، بينك وبين القبر شبرين، أمشي لي ربك عدل، ورقك أبيض نظيف، قطعة الأرض أعطوك ليها شائله معاك القبر، لا والله، ما يمشي معاك إلا العمل الصالح، أحسن ليك يا أعوج تفارق دربك الأعوج).

رد ساخرا وهو يخطوا نحو حماره:

(أنا ما فاضي ليكم، ولساني طويل، الجمل ما بشوف عوجة رقبتة، وبعد ده كله لا عندكم إحسان ولا حلاوة لسان).

لم يكملوا بعد باقي حديثهم وإذ بصوت الإقامة لصلاة الظهر يدغدغ أسماعهم، هرولوا مسرعين نحو المسجد تاركين أبو العباس من خلفهم.

خاطب الزعيم قائلاً:

(سألتك بالله يا زعيم هل هم على الحق أم نحن؟).

رد قائلاً:

(هم مننا وفينا ونحن منهم وفيهم، ولكنهم لم يحسنوا تقدير الأمور، غرتهم الحياة الدنيا، ضيعوها، وضيعونا، وضاعوا).

رد قائلاً:

(البون شاسع جدا بين أشواقنا للعدالة في الأرض، وبين ما نراه ماثلا أمام أعيننا من ظلم، ودينا السماح يدعونا إلى مكارم الأخلاق).

(١١)

كنداكات

(كنداكة) في اللغة النوبية القديمة تعني ملكة محاربة شجاعة، تقود الجيوش لحماية بلدها من أي غزو خارجي، أما اليوم والثورة يشتد أوارها، ملكات بلدنا (كنداكات) يتقدمن الصفوف بقوة منقطعة النظير، أذهلت كل مراقب، حادب، ومتربص، يتظاهرن، يتعرضن لاعتقال، لضرب مبرح بعصي وخراطيش، لدهس بتاتشر، لنهب مقتنياتهن خصوصا هواتف محمولة، لسماع بذيء قول من سب وشتم، ولتحرش جنسي، كل ذلك لم يفت في عضدهن، لم يكسر شوكتهن، ولم يضعف من همتهن، إنهن يقدن مواكب، يلهين بزغاريد حماسة ثوار، يمسكن بمقذوفات مسيل دموع ويقذفن بها في وجوه كلاب مسعورة. كيف حصل كل هذا التحول من مخلوقات ضعيفة مهيضة جناح، حبيسة جدران منازل، مهضومة حقوق، لا حس لها ولا صوت، إلى كائن حي له لسان سليل، أنياب، ومخالب، يزلزل بها أركان نظام متهالك ويبعث في فرائصه خوف ورعب؟ الإجابة في غاية البساطة، كن مضطهدات يتعرضن في كثير من الأحيان لإيذاء جسدي ومعنوي تحت قانون نظام عام، في تطبيقه، لا يفرق بين منحرفة ومستقيمة، من حوكنم بجلد ألوف مؤلفة، مع أنهن في أماكن كثيرة وهن في طريقيهن للعمل يتعرضن إلى نوع من أنواع تحرش جنسي من الرجال، أحوال اقتصادية تعيسة أجبرت أزواجاً أكثر إما على الهرب، أو البقاء كظلال حيط لا يهشون ولا ينشون، لأنه لا عمل يدر عليهم دخلاً في ظل كساد اقتصادي جامح يضرب كل نشاط، زوجات مسكينات مجبرات على

شيل الشيلة بدلاً منهم، منهن من يبعن قهوة وشاي، من يبعن طعاماً في أسواق وطرقات، من يبعن كسرة في بيوت، من يبعن عطوراً شعبية، من يعملن خادمت منازل، لم يتركن أية مهنة شريفة يمكن أن تكون مصدر رزق عفيف إلا وامتهننها، ومع ذلك دولة فاشلة، محلياتها سيئة سمعة لا تعرف غير جبايات، إتاوات، رشى، وقلع على عينك يا تاجر، تقف لهن بالمرصاد. المتعلمات اللائي تخرجن من مدارس وجامعات إما أن يعملن في وظائف هامشية - إن وجدت - وإما أن يقبعن في البيوت لأن الوظائف محتكرة لذوات الحظوة. وثالثة الأثافي كيف تبنى بيوت العفة؟ وشباب عازفون عن زواج، لقلّة حيلة، وضيق ذات يد، في اقتصاد مدمر، منهوب، ومنهار. صابرات على كل هذا الظلم لأنه في بيوتهن أفواه أرايب مفتوحة تنتظر الطعام، وعيال يدرسون في مدارس، والمدارس ليست بالمجان وتحتاج إلى مصاريف، والمصاريف دونها ذل، مهانة، وسوء حال. كل ذلك دفعهن بقوة لأن يكن جزءاً فاعلاً لا يتجزأ من ثورة تطمح إلى صياغة وطن جديد، خال من الظلم بكل أشكاله، وطن يسع الجميع بدون تمييز، وطن تستطيع المرأة فيه أن ترفع صوتها بدون خوف من أحد، وطن تتغير فيه أحوال الناس المعيشية للأحسن، وتكون الحياة سهلة للجميع، وطن تكون المرأة فيه عنصراً مهماً، فاعلاً في كل معادلة اجتماعية سياسية واقتصادية.

التأم شمل الشلة الثورية في يوم جديد من أيام ثورتهم الميمونة، جوهره تاج كل الثورات، يتغنى بصفاتها، رونقها، ونبها، أعداء قبل أصدقاء، ثورة تساهم في صنعها القوارير، رسولنا الكريم يقول لنا رفقاً بالقوارير، والقوارير في بلدنا لا حول لهن ولا قوة، يشتكين لطوب الأرض ولا معين لهن أو مغيث، والآن، الآن قواريرنا لم يعدن مجرد قوارير زجاجية سهل كسرهن، وتهشيمهن، وسحقهن، ومحوهن

من على الوجود، مصائب، ومحن، وتحديات حياة جعلت منهن قواريراً من مواد لا يخترقها رصاص، أكثر تماسكاً، قوة، وصلابة من فولاذ باليستي؛ القطة اللطيفة إذا حاصرتها في ركن الغرفة، لن تستكين لك وتستسلم، وتتنظر إليك بعيون وديعة، وإنما تتحول إلى قطة متوحشة، وتتحول أنت إلى فأر مذعور، يبحث عن مخرج يكفيه شرها وأذاها.

طيلة ثلاثة عقود عجاف مرت كانت المرأة مطية سهلة يتلاعب بها النظام، يستخدمها وقت حاجته في أيام الانتخابات، يحشدهن كقطعان ماشية بعد أن يخدعهن بوعود وأمانى كاذبة، توفير فرص عمل لهن ولأولادهن، منحهن قروض ميسرة، قطع سكنية، وسائل إنتاج، وبعد انتهاء المولد، يخرجن بدون حمص، مرميات في سلة مهملات.

وبعد سقوط الغطاء وانكشاف المستور، فتحن عيونهن، كشرن عن أنيابهن، وصلن إلى مستويات عالية من وعي وإدراك لما يجري من حولهن، خصوصاً وأن ظلماً وفساداً تخطيا مرحلة الفجور، وجعلا حياة الناس جحيماً لا يطاق، حياة بلا أمل، صلاح الحال من المحال، في ظل نظام يلف ويدور حول نفسه، كجمل عصارة عجوز عيناه معصوبتان.

تساءل أميرو قائلاً:

(يا أخوانا الكنداكات جنوهم، جننوا الجماعة الطيبين جداً، كُن وبين من زمان؟ من أين جنن؟).

رد تقطيس مبتسماً:

(حواء والدّة، ربنا يجعل سره في أضعف خلقه).

رد عدولة بنبرة لا تخلو من انبساطه:

(قربت، قربت، دنا قطافها، الكنداكات كن وين، ده سؤال، البلد دي سماها خليل فرح شنو، سماها عزة، عزة وأخواتها موجودات في ضمير الوطن، يله غنوا معاي:

عزة في هواك نحن الجبال..

وللبخوض صفاك نحن النبال..

عزة ما بنوم الليل محال..

وبحسب النجوم فوق الرحال..

خليل كنداكاتنا، و خليل عزة بلدنا، بلد الرجال).

رد الأستاذ متعجبا:

(سبحان الله، سبحان مغير الأحوال، في الأيام الخوالي نساء قرينتنا كن لا يخرجن من البيوت إلا مساءً، ولا يعتبن عتبات البيوت إلا وبرفقتهن صبي، حارس الحما، يمسك في يده فانوسا وعصا).

رد شنو بنبرة لا تخلو من عدم رضا:

(قلت شنو، خلينا من نسوان قرينكم، يا أخي المرأة زمان إن كانت مسافرة بسيارة أو قطار كان تموت من الجوع ما تأكل أبدا أمام الناس، الواحدة هذه الأيام لمن تمسك بالساندويتش وتجضمه تديك العجب، زمان الزوجة إن زوجها جاء من سفر بعد غيبة طويلة لا تصافحه اليد باليد احتراماً وتقديراً له، ديل يضافحن أزواج وأغراب عادي بدون حياء أو حرج).

رد وليد مستنكرا:

(خلونا من القرى، الخرطوم دي المرأة فيها ما كان عندها شدائد، عشان تقطع شارع الظلط إلا يقطعوها ليه، نسوان اليومين دي عيونهم قوية، إن حمرة فيها تحمر فيك، تديها كلمة تديك أكعب منها، وفي النهاية إنت تجر نور واطي وتنسحب باستحياء من المشهد).

رد عدولة مبتهجا:

(قربت، قربت، دنا قطافها، يا معلمين المثل البقول المرأة إن بقت فأس ما تشق الرأس ما جاء من فراغ، الرجال كانوا ينظرون إليها بأنها مخلوق ضعيف، متاع، لا حول لها ولا قوة، ما عليها إلا أن تسمع أوامر وتطيع طاعة عمياء، الآن تغير الحال).

رد شنو بنبرة هادئة:

(طبعا يا عزيزي الزمن تغير، المرأة تعلمت، منهن من يحملن أرفع الشهادات العلمية، منهن الموظفات اللاتي يشغلن أرفع المناصب، يأمرن الرجال، وما عليهم إلا السمع والطاعة، ومنهن من ينفقن على البيوت).

رد عدولة بحماس:

(قربت، قربت، يا أخوانا ثورتنا مظفرة بإذن الله، المرأة حسب كلامكم كانت لا فرق بينها وبين المعزة والآن بقدرة قادر تحولت إلى حاجة ثانية، عارفين ليه؟ لأنه فاض بيها الكيل، المتعلمة لا لاقية عرس ولا شغل، والمتزوجة لا قادرة تعيش ولا قادرة تاكل عيالها، يعني بالواضح طريق الخلاص قدامهن واحد، (تسقط بس)).

رد وليد بنبرة مزهوة فرحة:

(لما الرئيس زار الجزيرة، ومن ضمن مسرحياته البايخة افتتاحه لمدرسة بإحدى القرى، ماذا جرى؟ النسوان هتفن بدلاً من (سير، سير...)، (طير، طير...)، ريسنا الجدع أثر الهرب تجنبنا لمزيد من فضائح).

رد الأستاذ بارتياح:

(يا أخوانا المرأة جزء فاعل في أي مجتمع، تتأثر وتؤثر فيه، المرأة الحضرية، الريفية، البدوية أصبحت قوة ضاربة، قوة اجتماعية، وسياسية، واقتصادية، صاحبة أعمال، وموظفة، وزعيمة، لذلك صدق من قال: (ثورة بلدنا ثورة المرأة بامتياز)).

رد عدولة بإصرار:

(قربت، قربت، قسما عظاما شعب نساؤه بمثل هذه العظمة، لن يقهر أبدا).

رد وليد بنبرة متحدية:

(البنات في تحد مع الأولاد، خلف دور ما في، كر وفر معهم، حجار معهم، بمبان معهم، رصاص معهم، اعتقال معهم، نار جهنم معهم).

رد أبو علي بنبرة لا تخلو من شعور إعزاز وإكبار:

(ديل حربيات يأكلن الجمر، خلاص المسألة لهن أصبحت مسألة حياة أو موت، إما الحياة بعز، أو الموت بشرف).

رد تفتيس بارتياح:

(ده جيل محير، بنات على أولاد، رؤوسهم ناشفة، قالوا (تسقط بس) خلاص (تسقط بس)، أعمى ومسكوه عكاز، لا يهتمهم كده ولا كده، سائرون في طريق نضال وكفاح حتى النهاية).

رد الأستاذ بنبرة متشائمة:

(أخشى أن يطول أمد ثورتهم، ويدخل الكل، والملل، واليأس، إلى نفوسهم، ومن ثم يبدأ العد التنازلي، يتساقطون وينسحبون من ميدان المعركة الواحد تلو الآخر).

قال أمير بنبرة مطمئنة:

(هذا جيل فلتة قلب كل الموازين، حسبناه جيل كورة، وغناء، ورقص بس، لكن أثبت أنه جيل حارة، يأكل جمر، ويشرب مر).

أوما الأستاذ برأسه ثم قال:

(يا أخوانا هوي دايرين الصُح ولا الكذب، بنات بلدنا فعلا كنداكات، آتين من أرحام كنداكات، ولا يلدن إلا كنداكات).

صمت لفترة، شرد مع خواطره، مر أمامه شريط لصور كنداكات أمريكا وأوروبا، وباقي بلاد العالم، عالقات مخضرمات، أستاذات جامعات، طبيبات مرموقات، مهندسات لامعات، خبيرات ومستشارات في عدة مجالات، وربات بيوت ممتازات، يعقدن مؤتمراً تلو مؤتمر حول أوضاعٍ بئسة آل إليها حال البلد، وحول سبل الخروج منها، للانطلاق نحو مجتمع كفاية وعدالة توزيع لموارد شحيحة، يرفعن لافتات، يقدن مواكب، ينظمن وقفات احتجاجية، يعرفن تلك المجتمعات المتحضرة بأن لنا قضية عادلة، وأنا قد ثرنا في وجه قهر، ظلم، طغيان، وأنا مواجهون بشتى صنوف قمع، تقتيل، وتعذيب، من نظام مستبد حاكم، لا يرعى حقوقاً لإنسان أو حيوان.

سأل في نفسه: (ما الذي دفع بهن لأن يتركن ديار الأهل، ويدعن الريح تنوح فوق الشجر؟ ربما هاجرن لأجل علم واكتساب خبرة، وربما لأجل كسب مال، وربما الحقيقة أكبر وأوسع من كل ذلك، هاجرن لأن بلادهن تضيق بالأحرار، يرتع فيها كذابون، منافقون، ومتسلقون، انعدمت فيها حقوق المواطنة المتساوية، تعفنت لا تصلح للحياة الأدمية)، وبعد أن أفاق استطرده قائلاً:

(أها جاء وقت النوم، أودعكم، أودع كيف؟ والكنداكات يحيين فينا
أمالا حسبتها بعيدة المنال، الثورة انطلقت شعارات ترددها القلوب..
الثورة الحرية الحمراء شمس لا تغيب، الثورة نهايتها منصة التتويج،
ولا نامت أعين الجبناء، وسكنت شهرزاد الثورة عن الكلام المباح،
والصباح رباح، وتصبحون على خير، وثورة حتى النصر،
وتسقط بس).

قضى ليلته تلك وهو يحاول أن يستجلي حقيقة أيتها كنداكة، في
حياتها الخاصة داخل بيتها، مدى تقاطع ذلك مع نضالها الوطني، عبر
الزمن، قبل، وأثناء، وبعد استقلال بلادها من قبضة المستعمر؛ عندما
تكون الحياة وادعة هي نعم الجدة، والأم، والعممة، والخالة، والأخت،
والزوجة، والأرملة، والمطلقة، في كل هذه الحالات عفيفة رحيمة
صبورة، وفي ساعة الجد، حينما يشمر فلذات الأكباد عن السواعد
وينادي منادي الوطن - (أن حيي على الكفاح)- لا يتقاعسن، لا
يترددن، لا يتخاذلن، وإنما يدفعن بهم إلى مقدمة الصفوف، لأنهن
يؤمن بأن الأجال مكتوبة، لا تتقدم ولا تتأخر، وأنه إذا كان ليس من
الموت بد، فمن العار أن تعيش في بلدك ذليلا مهانا، ومن العار أن
تموت جباناً، يلهين الحماسة في القلوب، يعددن الزاد، ويطببن الجراح.
بدأت الشمس في الإشراق، الأفق ناحية المشرق معرض لا نهائي
من ألوان ما خطرت ببال إنسان، يتغير المشهد في كل لحظة، يبدو
الغمام في لون رمادي قاتم، متدرج في درجات أسطورية، ليس لها
مثيل، ثم يكتسي رويدا رويدا لونا رماديا فاتحا، ثم تأخذ أطرافه
وحواشيه في اصفرار مذهب، ثم تتداخل الألوان ما بين أبيض،
وأصفر، وبرتقالي، وفضي، وذهبي، قوس قزح جميل، ثم تسفر
الشمس بوجه ساحر عجيب، يغمر الكون بنور وضياء، يا سلام، يا
سلام، تذكره بكنداكة بلاده وهي طفلة، غضة، لطيفة، بريئة، تستمد

جمالها من ذلك الجمال، تستمد ألقها وضيائها من ذلك الألق والضياء؛ وينتصف النهار، والشمس في كبد السماء، أشعتها عمودية حارقة، يتصيب العرق من مسام الجلود، يحتمي الناس بظلال الشجر، وغرف البيوت، وهواء المكيفات، يذكره ذلك بكنداكة بلاده وهي صبية، تستمد قوتها وعنفوانها من تلكم القوة والعنفوان.

حينما ينظر في وجوه كنداكات الداخل يرى خيوطا لفاقة، مسغبة، ومرض، نسجتها عليها أيام قاسية، يرى وجوها بائسة، تعيسة، فارقتها السعادة منذ أمد بعيد امتد ثلاثين سنة وأكثر، وجوها لم تعش أبدا ربيع الدنيا، وجوها أقرب للموت منها للحياة. وحينما ينظر في وجوه كنداكات الخارج، يرى وجوها تنفجر فيها دماء الحياة، وجوها مشرقة مبتسمة، وجوها مليئة بتصميم وإرادة، لأنها تعرف ما تريد؛ كنداكة هي كنداكة في داخل أو في خارج، المطلوب إيجاد ظروفًا، شروطًا، وحوافز مناسبة تجعل في الإمكان لكنداكات الداخل أن يصرن مثل أو أعظم من كنداكات الخارج، معززات مكرمات، يساهمن في تطور البشرية، حضاريا، ماديا، وروحيا؛ ولن يتأتى لهن ذلك إلا في وجود دولة تحترم حقوق الإنسان بشكل عام، وحقوقهن بشكل خاص.

مر كالعادة قبل موعد آذان صلاة الظهر في طريقه للمسجد على شلته النهارية. ثلاثتهم موجودون يتحدثون في مهم وغير مهم، وهل عندهم شغل شاغل غير الثرثرة؟ ويا لها من ثرثرة، إنها ثرثرة محببة، تغوص في ثوار صناديد، وثورة زكية، بعد أن حياهم جلس على كرسي الحديد، موجود في زمن ثوار حديد، مازحهم قائلا:
(كنداكاتنا يسطرن أروع حكايات في كتاب ثورتنا، وأنتم يا تنابله السلطان تسطرون أروع حكايات في كتاب شخيرنا ونومنا).

رد الزعيم متعجبا:

(يا أستاذ النوم جافانا، قسمنا لي جيرانا، قالوا الطفل ينوم ساعات طويلة، والعجوز ينوم ساعات قليلة، ورينا محل النوم، إن في دكان يبيع النوم نحن أول المشترين، لكن حكاية الكنداكات دي والله ما كنت مصدق تحصل في بلدنا، البنت زي اللبوة، ما عندها خوف، جسارة غريبة، ده شنو ده، ده جيل فعلا راكب رأس).

رد أبو العباس بنبرة لا تخلو من ازدهاء وانتشاء:

(ناسك المستبدين فتحوا على أنفسهم النار، كنداكات من جوه، وكنداكات من بره، في أمريكا وأوروبا بهرن العالم، الخواجات تحيروا، فتحوا عيونهم مشدوهين، تساءلوا فيما بينهم: معقول في بلد أفريقي متخلف نساؤه بالشكل ده؟).

رد الأستاذ بنبرة حماسية:

(المرأة كانت مشهورة عندنا بصفات حلوة، لطافة، رقة، حنان، وحياء، لدرجة السذاجة، أما الآن بعد ثلاثين سنة ذل وهوان، تحولت إلى امرأة حديدية، وصلت إلى قناعة لا يخامرها شك، لا يفيل الحديد إلا الحديد).

هتف شنيبو:

(أنا زول عربي ساكت، لكن كلامكم مرات يضحك ومرات يبكي، أنا خائف حديدكم يطلع مويه ساكت).

رد الأستاذ بمرارة:

(يا شيخ العرب إنت عايش في زمان غير زمانك، عايش اليوم بعقلية الأمس، عقلك مقفول بقفل يمنع من قبول أي معلومات وأفكار جديدة).

رد بمكر:

(يا ناس هوي، أنا عربي أمي، وكلام الأمي ما بسوي شيء، سلم
مركبك للموج ولا تسلمه للنسوان أبدا).

رد الأستاذ بضيق:

(يا شيخ العرب أفتح قفل مخك ده شويه، خلي الهواء يضربه شويه).

رد بلهجة حاسمة:

(أنا صحيح عندكم عربي لا يودي ولا يجيب، لكن أسمعوها مني،
المرأة لو وصلت المريخ مصيرها للطبيخ).

هتف الزعيم مستنكرا:

(يا أخوانا شيخ العرب النسوان عنده حاجة واحدة، زي نسوانهم،
كنس، طبخ، وولادة، وخلص).

رد بإصرار:

(خلونا من حكاية متعلم وأمي، أهلنا يقولوا أسمع للمرأة ولا تأخذ
برأيها، لأن رأيها دائما أعوج).

رد الأستاذ متسانلا:

- يعني يا شيخ العرب خلينا من نسوان (تسقط بس)، يعني كلامك ده
ماشى حتى على نسوان (تقعد بس)؟

رد بلهجة صارمة:

(يا أخوانا هوي أنا أمي كلامي واحد، ما زيكم الليلة هنا وبكرة هناك،
والله مره وابن مره، سيد بيت شورته مره).

وبينما شيخ العرب يرغي، ويزبد، ويطرطش في الكلام، ويردد بين لحظة وأخرى:

(يا ناس هوي العنده معزة يربطها، يا ناس هوي حيل النسوان غلبت حيل الشيطان، يا ناس هوي عجوبة خربت سوبا).

وإذ بصوت الإقامة لصلاة الظهر ينبههم إلى أن جهينة قد قطعت قول كل خطيب، وانتهى وقت الحديث، هرولوا مسرعين نحو مسجدهم، وهم يدعون الله أن يريهم في شيخ العرب ذلك اليوم الذي يسمع فيه دقات طبول ونحاس الثورة، أن يروه منبوذاً، مهيبض الجناح، منزويا في ركن مظلم قصي تأكل قلبه نيران الحسرة، والأسى، والألم، تنهال على رأسه، من كل مكان، لعنات وجزم وبراطيش الكذانات.

(١٢)

فض مظاهرات

السؤال الذي يطرح نفسه هل تتفق أساليب فض المظاهرات الراهنة مع قوانين بلادنا وبما يفرضه القانون الدولي في مثل هذه الحالات؟ الإجابة على ذلك تمحورت في مغالطة دائرية (المتظاهرون يدّعون أن التظاهر حق مكفول بالدستور، والنظام يقول إن التظاهر يكون دستوريا إذا تم استخراج إذن بذلك من الجهات الأمنية، والمتظاهرون يقولون إن الجهات الأمنية لن تفعل ذلك أبداً، والنظام يواجه المظاهرات بالقمع بطرق شرعية، وغير شرعية، لأنها لم تستخرج إذنا من الجهات الأمنية).

في بلدنا السليب تفض المظاهرات باستخدام القوة فوق الغاشمة والباطشة، ليس الهدف مجرد حمل الناس على التفريق ولكن الهدف هو قتلهم، إعاقتهم، ضربهم، إهانتهم، تخويفهم وجعلهم عبرةً للآخرين، جعلهم يفكرون مليون مرة قبل أن يقدموا على مشاركة في مظاهرة، ما يحير ويثير الاشمئزاز وجود أكثر من جهة أمنية، وغير أمنية، تصول في الساحة، خلاف الشرطة المعروفة، أمن، مخابرات، كتائب ظل، ملثمون، وآخرون لا يعلمهم إلا الله، وما يحير أكثر أنهم يقولون ويرددون بلا حياء أن دولتهم في منعة، وقوة، بحيث لن تسطع اسقاطها شوية مظاهرات.

ما يحدث في الغرب أوروبا وأمريكا لا يشبه ما يحدث في بلادنا، تلك دول متقدمة متحضرة، ونحن دولة متخلفة اقتصاديا، سياسيا، اجتماعيا، ثقافيا، وحضاريا، لا مجال للمقارنة، ولكن دعنا نجري

مقارنة مع دولتين أفريقيتين، عربيّتين، مسلمتين، وهما تونس والجزائر، تونس من بلاد الربيع العربي التي صارت بعبأً يخوف الحكام من غضبة وهبة الشعوب، الجزائر، بلد المليون شهيد، تحت قبضة فولاذية لحزب حاكم يستمد قوته من ثورتهم المجيدة، هناك، جهاز شرطة فقط هو الذي يتصدى للمظاهرات، يتابعها ويحميها، وإذا انحرفت عن مسارها واتجهت نحو أمكنة أمنياً محظورة يقابلها بغاز وخراطيم مياه. ولكن ما يضحك ويبيكي كلام مدير جهاز أمننا ومخابراتنا عند استدعائه من قبل البرلمان، نفى عن جهازه صفة الدفاع عن نظام، أو حزب بعينه، مبينا أنه يدافع عن شرعية قائمة، وفق دستور وقوانين حاكمة، ومؤسسات قائمة، أقر بوجود أزمة اقتصادية تسببت في أزمات متلاحقة، موضحاً أن جهازه يلتزم بقانون يحتم عليه التدخل لحماية البلاد، والشرعية الدستورية، قلل من أعداد المعتقلين، في أعينهم يرون العدد قليلاً، والثوار يرونه كثيراً، تحاشى الحديث عن موعد إطلاق سراحهم، وضح أن أفراد جهازه لا يقومون بإطلاق النار، وبأنه أمرهم بعدم فعل ذلك، وأمر بسحب الأسلحة منهم حتى لا يضطرون لإطلاقها.

التأم شمل الشلة الثورية في يوم جديد من أيام ثورتهم المصادمة، كل يوم جديد وثورتهم تحقق مكاسب من بعد مكاسب، والنظام يتذوق طعم خسارة من بعد خسارة، كيف لا وقد أفرغ كل ما في جعبته من مكر حاوي، أفرغ كل ما في جرابه من حيل، أساليب لعبه أصبحت قديمة مكشوفة، ملها الناس، ملوا وجوهاً كئيبة لا تذهب إلا لتعود، لعبة شطرنج مقية، نظم عقيمة يدور بها دولاب عمل حكومي، بيروقراطية، افتراء، محسوبية، وفساد، (دخلونا الجوامع ودخلوا السوق)،

(دخلونا عنق الزجاجاة، وخرجوا منها سالمين، غانمين، مستأنسين، حامدين، شاكرين)، ناسين ومتناسين أن رياح الهمبريب ما عادت تهب كما يشتهون، خفيفة هينة لينة، صارت صرصراً عاتية تقتلع كل أعجاز نخل خاوية، وكل جذور نخرة، الشعب ما عاد يهاب ويخشى الموت، الموت أصبح عنده شيء عادي كشربه الماء، يموتون في المظاهرات بطلق ناري كأرانب البرية، يموتون في بيوتهم كسوائم بسبب سوء تغذية، يموتون فوق أسرتهم كضحايا حروب بسبب انعدام عناية، علاج، ودواء، ويموتون موة فجأة من شدة يأس وقنوط، ظلوا يعيشون ثلاثين سنة داخل نفق مظلم طويل، لا يرون له ضوءً ولا نهاية.

ابتدر أميرو الكلام قائلاً:

(يا أخوانا شر البلية ما يضحك، الناس ديل يعتبرونا غنم وطيير، لا نفهم الحبة، أي كلام فارغ منهم يمشي علينا).

قاطعه عدولة صائحا:

(قربت، قربت، دنا قطاقها، قبل ما تتم كلامك، في البداية قالوا بين المتظاهرين مندسون، يتبعون لحركات متمردة، خونة مارقون).

قاطعه تفتيس ساخرا:

(ثم زودوها حبتين، قالوا الشرطي الشهيد مضروب رصاصا في أثناء المظاهرة، ضربته بنت، والبنت كانت تخفي بندقية في شنطة يدها، وهي أداة الجريمة).

قاطعه عدولة بنبرة أكثر سخرية:

(معقول يا أخوانا، دي بنت منينا ولا مارينز أمريكية، ودي شنطة يد ولا شنطة حاوية ستة متر).

رد الأمير بلهجة قوية:

(يا أخوانا كلامي ما كِمل، البرلمان عقد جلسة حضرها مدير الجهاز، رشح من الجلسة أن هناك معارضين جوه البرلمان اتهموا جهازه بعدم المهنية، وبأنه يتعامل بعقلية حزب لا دولة، وبأنه ينتهك حرمت، وحرية حق تعبير كفلها الدستور).

رد الأستاذ ساخطا:

(ده مش اتهام دي جريمة مكتملة الأركان، وما محتاجة لشهود لأنه الصور موجودة، تصوير حي من كل زاوية، الشعب يعلم من هو الجهاز، ومن هو البرلمان، تبرأ منهما الاتنين، البلد ضائع، مخطوف، يتيم الأب والأم).

رد شنو متعجبا:

(كبير الأمنية صرح بلا خجلة، عدة عوامل داخلية وخارجية ساهمت في الأزمة التي تمر بها البلاد، شح دولار، تفشي فساد ومحسوبية، انعدام رؤية اقتصادية، غياب دور قيادي وسيطرة أهواء شخصية، ضعف خطاب الدولة الرسمي، كما وأن دولا لها مشاكل مع الإسلام السياسي تدعم الاحتجاجات، وأن الأزمة بدأت اقتصادية ثم تحولت إلى سياسية).

رد تفتيس متسائلا:

(يا أخوانا ده كلام، ده كله يحصل وهو وجهازه قاعدين يسوا شنو؟ وحكومته قاعدة تسوي شنو؟ وبعد ده كله دايرين الشعب يصفق ليهم، يرقص معهم، غوروا في ستين ألف داهية، يا مصدر غم، بلاء، وفشل).

رد عدولة بحرارة:

(قربت، قربت، دنا قطفها، طيب، ما دام معترف بهذه مصائب لماذا تقتلون متظاهرين مسالمين ينادون بحرية، كرامة، وعدالة، لماذا تطلقون عليهم رصاص، كان عندكم رجاله سووها هناك، مع المحتل الحابس الدرب وماسك الأرض، أسد علي وفي الحروب نعامة نفر لصفير الصافر).

رد تفتيس متعجبا:

(يا أخوانا ده كلام عجيب عجاب، يدينهم كلهم، كيف يبرى عناصره من قتل المتظاهرين، قال لا يستخدمون سلاحهم إلا دفاعاً عن أنفسهم، من هو الذي قتل المتظاهرين؟ أليس من واجبك القبض على أي قتلة مجهولي الهوية؟ الإجابة، هم ليسوا معنيين بأمن شعب وبلد، معنيين حصرياً بأمنهم وأمن نظامهم).

رد الأستاذ في حسرة:

(سبحان الله، ليته سكت عند هذا الحد، ليته حفظ ما تبقى له من ماء وجه، وليت من يستمعون لترهاته قالوا له أسكت كفى، ولكنه استمر في خزعبلاته، نفخ بغم مليان، أنكر أي مبادرات سياسية، نفى مبادرات مطروحة لحل مشاكل الوضع الراهن، وأن المبادرات تخرج عن إطار الشرعية القائمة، طيب، سيبونا يا أخي، فضلت فيها حاجة اسمها شرعية، الشرعية دي زي قميص سيدنا عثمان رضي الله عنه). صمت لفترة، مر أمامه شريط طويل لنواب البرلمان وهم يتداولون أحداث الساعة، تساءل في نفسه هل هؤلاء فعلا يمثلون شعبهم؟ هل يحسون فعلا بالآلامه؟ هل فعلا جزء أصيل منه؟ أم هم ممثلون بارعون يجيدون فن التمثيل؟ ثم استطرد قائلاً:

(أها يا أحرار، هجم النوم، والكلام الكثير ما منه فائدة، خير الكلام ما قل ودل، ولا نامت أعين الجبناء، وسكتت شهرزاد الثورة عن الكلام المباح، والصبح رباح، وتصبحون على خير، وثورة حتى النصر، وتسقط بس).

كما خاطب المتنبي العيد متسائلاً، (عيد بأي حال عدت يا عيد.. بما مضى أم بأمر فيك تجديد؟) خاطب الأستاذ جديدي بلاده بنفس السؤال، (ليل ونهار بأي حال عدتما يا ليل ونهار.. بما مضى أم بأمر فيكما تجديد؟)، ولكنه لم يمدح نفسه مثله: (الخيل والليل والبيداء تعرفني.. والسيف والرمح والقرطاس والقلم)، وإنما أشعر قال: (التاتشر والليل والشوارع تعرفنا.. والبنديقية والبمان والكرج والبيجم)، لا يقول: (أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي.. وأسمنت كلماتي من به صمم)، وإنما يقول: (نحن الذين نظر الأعمى إلى مواكبنا.. وأسمنت هتافاتنا من به صمم)، إذا كان المتنبي شاعر فحل فشعبنا أكبر من فحل، رسم بدمائه أجمل لوحات رسمتها ثورات عبر التاريخ، خط بدمائه ملاحم بطولات فريدة، شعب أعزل في مواجهة آلة عسكرية لا ترحم، أثبت للعالم صحة مقولة: (إذا الشعب يوماً أراد الحياة لا بد أن يستجيب القدر)، ها هو اليوم يكرر ما فعله من قبل مرات ومرات، يكرره بأساليب جديدة، بهرت العالم، وأذهلته، لأنها في وجه نظام مستبد، طاغوت، ولغ في همجية، تخلف، وضيق أفق.

بخاطر مكسور، يحمل أوزراً ثقيلة، شعر بضالة حجمه، الشباب يملؤون الشوارع، والساحات، والميادين، يهتفون في وجه الجلاد (تسقط بس)، يدفعون غالياً ورخيصاً، يقدمون أرواحهم فداءً ليحيا شعبهم وللأجيال التي سوف تأتي من بعدهم حياةً كريمة، (مغفل نافع) قابعون داخل غرف مكيفة، يرشفون ضاحكين مستأنسين شأياً وقهوةً أمام شاشات التلفاز، يتلذذون بمشاهد الثوار وهم يكرون ويفرون أمام

زنادقة، تنابلة، وباشبازق سلطان، ثوارنا أهل مروءة، شهامة، وإنسانية، يلبون أي نداء استغاثة تأتي ممن يسعون جاهدين للتكامل بهم، كم سيارة لجلادهم انقلبت، أسعفوهم ولم يمسهم بسوء، يغاضون الطرف عن يفر من أمامهم ممن يقصدون سحقهم ومحوهم من الأرض، كل ذلك لأن لثورتهم أدبيات، هي نظيفة عفيفة، عفو عند مقدرة، (وأي كوز ندوسه دوس) مكافئ معادل ل (أي مارق تاتشر تدوسه دوس).

مر كالعادة قبل نصف ساعة من موعد آذان صلاة الظهر في طريقه للمسجد على شلته النهارية، ثلاثهم موجودون كأنما تماثيل منصوبة، باقية على حالها منذ أمس إلى اليوم، نفس الجلسة ونفس القعدة، في بلد لا تعرف معاني التغيير.

ألقى عليهما التحية، ثم جلس قبالة الزعيم على كرسي الحديد الأنتيكة، وخاطبه قائلاً:

(أها يا الزعيم الزراعة رويانه ولا عطشانه؟).

ضحك ثم رد قائلاً:

(مشاريعنا كانت تكب ذهب، نصها ذهب مع الجنوب، ذهبت معها دكاكين وبيوت، لا تعويضات ولا يحزنون، والنص الباقي، مع إنه حقنا، مع ذلك ندفع للشفتة الجنوبيين المسلحين مبالغ طائلة، ما خلينا باب ما طرفناه، ما في زول سأل فينا ولا جاب حقنا).

رد الأستاذ متسائلاً:

(التاتشر المالي البلد ده ما يجيب ليكم حقكم؟).

رد ساخرا:

(يا أخوي البلاد دي من جوه هله هله ومن بره يستر الله، ظلم كثير، فساد كثير، اقتصاد مخلخل واقع، شمالاً جهة حلايب مقدود، شرقاً جهة الفشقة مقدود، غرباً جهة جبل مرة مقدود، الجبال جهة كاودا مقدود، الجنوب كله مقدد، التاتشر واقف بالمرصاد للثوار مش لأعداء الوطن).

رد أبو العباس بانفعال:

(يا أخوانا تكلموا بعقل، بلدنا دي فيها حركات حاملة سلاح، دول مجاورة تتحين الفرص لابتلاعها، حكومة فاشلة ما قادرة تحل أي مشكلة، وكلام نواب برلمانها يؤكد لكم حجم المصائب، عامله إذا كثرت الهموم اتغطى ونوم، نائمة في العسل، إلا مع الثوار عامله نفسها مرفعين).

رد الأستاذ بحنق:

(من يقرأ الأمور بشكل سليم، من يتعمق فيما وراء السطور، من ينظر خلف أشجار الغابة يعلم أن انسداد أفق، جمود، وانزواء في الخنادق لن يولد إلا لحظة انفجار، أنا لست من المتشائمين، ولكن لمعرفتي بعقلية النظام (إما أنا أو الطوفان من بعدي)، أمام الثوار خيارين لا ثالث لهما، إما أن يكونوا، أو لا يكونوا، النتيجة الحتمية أن الطوفان قادم، وعليهم أن يعوا جيدا (أن من ينجز نصف ثورة يحفر قبره بيديه)).

كل هذه المدة وشيخ العرب صامت، لم ينبس ببنت شفة، لدرجة أنهم حسبوا أن به مرض عضال أو سأم قاتل، ولكن بغتةً أصلح من قعدته، عبس وبسر، تنحنح ليطري صوته ثم خاطبهم برمزية يتقنونها:

(قالوا الدجاجة مشت للديك قالت ليه: يا سيدنا ديك الحلة الشاهين جننا، ما ترك لنا سيوسيو واحد، وإنك ياك حامينا وأبو وليداتنا، الديك انتفخ، نفخ ريشه، هز علعلته ومشى على الشاهين، الشاهين كحل الديك من بعيد، وغار عليه حَو من فوق، كمشة واحدة فقع عينه، أها المثل بقول:

إن دارنك مرسالن يمشي ويجيك
ويرقعن في قفاك ما بشمتن عاديك
عيل قالوا قبالك يا خوي
أمورهن عورن عين الديك).

قبل أن يكمل باقي حديثه وإذ بصوت الإقامة لصلاة الظهر يتردد في الأثير، هرولوا مسرعين نحو المسجد تاركين أبو العباس وشنييو من خلفهما.

قال الزعيم:

- (ربنا يلطف بالثوار، المشوار قدامهم طويل، الحكام قاهرون وعيونهم قوية، بلا استحياء، بلا خجلة).

رد قائلاً:

- (حكام من هذا النوع لا يذهبون بأخوي وأخوك، يظلون واقفين حتى النهاية، إلى أن يصل الدم الركب، نسأل الله أن يجنب بلدنا شرورهم، ويجعل كيدهم في نحورهم، آمين، آمين يا رب العالمين).

(١٣)

إعلام خارجي

في البدء لم تهتم القنوات الإخبارية التلفزيونية العالمية بتغطية المظاهرات في السودان باستثناء قناة واحدة هي قناة الشرق التي تبث برامجها من تركيا، ثم بعد ذلك أجبر تطور الأحداث - مع استمرار المظاهرات بقوة في الشوارع ليلا ونهارا - قنواتاً عالمية مثل البي بي سي، الحرة، الجزيرة، العربية، الحدث، الوعد، الفرنسية، دبي العالمية، على أن تنصدر أخبار السودان نشراتها الإخبارية.

كما ودأبت هذه القنوات على إجراء محاورات تلفزيونية طرفاها ممثلو الثوار وممثلو النظام. الإعلاميون الذين أجروا هذه الحوارات مهنيون، محنكون، مثقفون، يعرفون كيف ينتزعون انتزاعا ما يريدون الوصول إليه من معلومات دقيقة خطيرة، يقدمون للمشاهدين رصد وتحليل معمق للحدث، من كل زواياه، وأطرافه، وجوانبه، ويعرفون كيف يضربون من (هو مع) بمن (هو ضد) ليتمكنوا المشاهد من الوصول للحقيقة المخفية وراء الكواليس.

التأم شمل الشلة الثورية في يوم جديد من أيام ثورتهم الظافرة، كل يوم جديد وشمس الحرية تشرق على الوطن الحبيب مبددة سحب الظلم والظلام، مرسلّة أشعة الخير والنماء والسلام، باعثة في النفوس الأمل بغد جميل يعيش فيه الناس إخوة متحابون، يتقاسمون القليل والكثير، لا أحقاد، لا أضغان، لا فوق ولا تحت، الوطن كبير جدا يسعهم جميعا، مليء بخيرات تكفيهم وتفويض، ملك للجميع بلا خيار وفقوس، والله رب للعالمين، لا يحتاج واسطة أحد، ولا لمن يستعبدون الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا، ولا إلى من ينومون ويطونهم متخمة ويطون أبناء جلدتهم خاوية.

إلى متى يظل الحال على هذا المنوال، وطنٌ مطعونٌ مجروح،
جرحه وصل حد الغرغرينا، لا مفر من البتر، لتستمر الحياة، بقاء
العضو المجروح يعني الموت. متى يفهم من يتشبثون بالسلطة، معنى
أن يذهبوا غير مأسوف عليهم، لأن في ذلك حياة شعب، ولأنهم هم
غرغرينا، سم يفري جسده.

ابتدر أميرو الكلام قائلاً:

(يا أخوانا القنوات الفضائية ما قصرت معانا، في البداية كانوا
منكمشين شوية، حسبوها فورة وسرعان ما تعود ريمه لعادتها القديمة،
لأنهم يدركون أن النظام ماكر، وشعبه متهالك مكعكع تعبان لا يقوى
على صمود).

رد الأستاذ بحرارة:

(إلا قناة واحدة، قناة الشرق، قناة المعارضة المصرية، لأول مرة
تعجبني، حلايب عامله لينا معهم عقدة نفسية، قناة ولا كل القنوات،
نقلت المظاهرات بالسي سي والملي، سبحان الله على تعليقاتها على
الأحداث، درس إعلام وسياسة، تموت من الضحك على أقزام إعلام
نظام تنقصهم أفكار، منطق، حجة، وأدب حوار، يتركون لب
الموضوع، وبدلاً من أن يفروا إلى الأمام، يفرون إلى الخلف، ينبشون
في تاريخ الأشخاص الذين يتحاورون معهم، أنه كان، وما أدراك ما
كان، وفعل ما فعل، وفاعل وفعالان، وفلان وفلتكان، حوار صيباني
متخلف، لا يتعلمون، لا يتطورون، لا يواكبون الأحداث، ولا
يحترمون عقلاً لمستمع، نعم شعبنا لم يتحرر بالكامل بعد، ولكنه في
طريق التحرر قسبا عنهم، وعن أنفسهم، وكبريائهم، ولدنا أحراراً،
نعيش أحراراً، ونموت كذلك، شاءوا أم أبوا).

رد عدولة مبتسما:

(قربت، قربت، دنا قظافها، خلوها القنوات، تعالوا للمراسلين، وللضيوف الذين يطلون علينا من الشاشة، من الطرفين، ناس ثورة، وناس نظام).

قاطعه تفتيس ساخرا:

(قناتا العربية والغد في الأول طلعا لهما كرتاً أصفراً، وبعد شويه أدوهم كرتاً أحمرأ، طبعأ لديهم مراسلين مهنيين ينقلون حقيقة ما يرون ويسمعون، أما البي بي سي والفرنسية عملوا منهما طناش، حقارتي بوليد مرتي).

رد عدولة باقتضاب:

(قربت، قربت، دنا قظافها، يا أخوانا، المدافعون عن الثورة شباب في مقتبل العمر، وعن النظام عجائز، كبار سن، أكل عليهم الدهر وشرب).

رد الأستاذ بنبرة واثقة قائلاً:

(الثوار يتحدثون في صدقية وعفوية، والأبواق يلتون ويعجنون كلام سياسة، رتيب، محفوظ، ومكرر).

رد الأمير بنبرة هادئة:

(الثوار يحترمون أدبيات الحوار، يتحدثون بلباقة، ببرود، في هدوء، والأبواق منفعلون يتركون لب الموضوع، ويهربون إلى هجوم شخصي، سب، شتم، ولتن وعجن).

رد وليد بنبرة حانقة:

(الثوار ينشدون ديموقراطية عادلة ومنافسة شريفة في الانتخابات، بينما الأبواق يعرفون أن نظامهم يعمل بمبدأ الغاية تبرر الوسيلة، وفرق تسد، ودق القُرَاف خلي الجمل يخاف، لذلك يتلجلجون، يعرقون، ويهربون لأنهم يدافعون عن باطل).

رد شنو بنبرة غاضبة:

(الثوار كلامهم ثابت، دقيق، ومختصر، والأبواق كلامهم كثير، وانصرافي، لتشتيت ذهن مقدم البرنامج، والمحاور، والمستمع).

رد عدولة مستكرا:

(قربت، قربت، دنا قفافها، الثوار يهاجمون النظام بأنه أفسد بلاد وعباد، حكم بحديد ونار، وأنه يرغي ويزبد عند سماعه لكلمة حرية، وأبواق النظام بلا حياء يهاجمون الثوار يصفونهم بأنهم معارضة خارجية، تدفع شباباً بسطاء مغرر بهم إلى خطوط المواجهة، إن كانوا معارضين حقاً فليأتوا ليعارضوا من الداخل، منطقتهم منطقتهم مرابية، يرمون الشبك لصيد السمك).

رد شنو بنبرة ساخرة:

(يعني الأبواق حاسبين نفسهم من أهل العقل، والثوار سمك مغفل، يرموا ليهم الشبك، وبدون تفكير يدخلوا فيها، قديمة، ألبوها على غيرهم، دليل مفتحين أكثر منكم، يا مخلفات ماضي بغيض).

رد أميرو بحرارة:

(الثوار يتكلمون بإحصائيات موثقة وبمنطق سليم، أما الأبواق فإنهم يستخدمون مغالطات لا تسندها حقائق، قسماً بالله أضحكوني، قالوا كل من لم يشارك في المظاهرات موال للنظام، متناسين أن رصاص، قنابل، سياط، وخراطيش بلاستيك، وخوازيق تقف حائلاً بين كثير من الناس والانضمام للمظاهرات).

رد عدولة ساخرا:

(قربت، قربت، دنا قفافها، الثوار يتحدثون عن نهب مال عام، ودولة حرامية، تسن قوانين هزلية لا تدين جحشا غبي ناهيك عن حرامي ذكي، إعلام بوق نظام أجوف، يستخدم حيل ومغالطات، ولف ودوران لنفي أي اتهام، يحاولون حجب الشمس بأصابعهم، والشمس تضحك عليهم).

رد أبو علي بلهجة حانقة:

(مخ مقلوب يزين لهم أنهم وطنيون شرفاء وغيرهم خونة مندسين، لن يخدعوا العالم، الحقيقة ساطعة، تستطيع أن تخدع الناس مرة ومرتين، ولكنك لن تخدعهم إلى ما لا نهاية).

رد أميرو بلهجة ساخطة:

(الأبواق تعكس الصورة، تردد النظام حمامة سلام تحمل أغصان زيتون، الثوار صقور كاسرة، دعاة حرب، عنف، بغي، عدوان، يحملون سلاحاً، يحيكون مؤامرات؛ لكن، صور الأحداث، الحية، تفضح، وتعري أي أكاذيب غبية).

رد شنو مستنكرا:

(يا عم، الأبواق لا تخجل، تردد أنهم دعاة أمن، استقرار، وبناء، والثوار دعاة هدم وفوضى؛ ونحن نردد أن هذا الكلام يعشعش داخل عقول مريضة، الأمن فقط حول بيوت الصفوة والسفارات، وأعمال البناء تجري في العمارات فقط بمال حرام).

رد الأستاذ متعجبا:

(شوفوا يا جماعة، الأبواق تردد لا سبيل غير الديمقراطية لحل مشاكل الوطن، ولذا لا بديل أبداً عن صندوق الانتخابات لمن يريد تغيير الحكومة، الثوار يقولون عن أية انتخابات يتحدثون، شروط انتخابات حرة نزيهة لا تنطبق على انتخابات مفبركة، لا حريات، لا قوانين سليمة، لا إدارة انتخابات محايدة، لا فرص إعلامية متساوية، مؤسسات دولة مخطوفة، مقدرات دولة موجهة بكاملها لمصلحة النظام).

صمت لفترة، مر أمامه شريط لوجوه مذيعي ومذيعات قنوات فضائية، قال في نفسه: (نعم بالرغم من أن ما يقومون به هو جزء من عملهم الذي يؤدونه بحيادية ومهنية، إنهم يقدمون للثورة خدمة عظيمة لا تقدر بثمن، هم إعلام للثورة، هم توجيه معنوي للثورة، هم من ينشرون فضيلة الثورة، ويعرون ويكشفون رذيلة النظام)، ثم استطرده قائلاً:

(أها يا إخوتي النوم جافاني قَسَمْتُ لي جيرانني، ولا نامت أعين الجبناء، وسكنت شهرزاد الثورة عن الكلام المباح، والصبح رباح، وتصبحون على خير، وثورة حتى النصر، وتسقط بس).

الشتاء ليله طويل ونهاره قصير، أما الصيف فالعكس من ذلك، الناس في بلدي الآن في فترة فاصلة بين شتاء وصيف، هذه ليست الحدوثة، الحدوثة أن المواسم تتغير، ولكن حالهم لا يتغير أبداً، كيف يتغير وأيادي تبني وأيادي تهدم؟ وحكومة تنفخ في اقتصاد قريبة مخرومة؟ ودولة تنفق إنفاق من لا يخش الفقر؟ الأمن لهم أولاً وثانياً ولا التكتح للمواطن؟ منطق ريسهم فرعوني، لا تروا إلا ما أرى أنا، ولا تسمعوا لغيري أنا؟ زمرته وجوه كالحة لا تتغير أبداً منذ ثلاثين سنة، قطع شطرنج، يحركها في مربعات وزاراته، ومؤسساته، وهيئاته، لا مراعاة لكفاءة، أو أمانة، أو بحث متقص لمن هو أصلح خارج دوائهم الضيقة، وما الدوائر إلا أرزقية يسعون وراء مصالح ذاتية مكشوفة.

شعبنا شعب أبي، مرفوع الرأس أبداً، صبر صبر أيوب ثلاثين سنة، فعلوا به كل فعل مقبوت، خدمات عدة لا ترقى لأدنى المعايير كان يتمتع بها مجاناً دفعوه ثمنها وزيادة، ابتدعوا بوابات ومنافذ لجبايات ومكوس ما أنزل الله بها من سلطان، بداية كل سنة مالية عصابات شر، بمؤازرة مجالس نهب تشريعي مسلح يسنون قوانيناً، لوائحاً، وأوامر، تزيد الناس فقراً على فقرهم، يتمتعون بخراجها، منح، حوافز، وهبات، الممسك بالقلم لا يكتب اسمه شقي.

تحية، تقدير، و عرفان لشباب الأمة الذين بعثوا فيها الروح من جديد، بعد أن ظن المتشائمون أنها شبعت موتاً، وما بقي لها أمل ولا رجاء، لأن النظام في بداياته خدع الناس بشعارات رائعة، ورويدا رويدا تقدم الصفوف أفاكون، راج كذب وخداع، مات أصفياء، وماتت

كلماتهم: (كان شفتونا بنينا العمارات أعرفونا بقينا حرامية)، وحل محلهم الذين يقولون: (نظرا للتضحيات التي يقدمون فإن العمارات أقل مما يستحقون)، هؤلاء يوغلون في خداع أنفسهم بأنهم لا لدنيا قد عملوا، وأنهم للدين فداء.

مر كالعادة قبل موعد آذان صلاة الظهر في طريقه للمسجد على شلته النهارية. ثلاثتهم موجودون وأمامهم كاسات الشاي الأحمر، ناولوه كاسا قبل أن يجلس على كرسي الحديد الربيع وطيد، الذي يتفاداه الجالسون، مازحهم قائلاً:

(ألا تستحون، تشربون فائقين الشاي الأحمر ودماء الثوار حمراء تسيل في الشوارع، تشربوا السم الهاري).

رد الزعيم متسائلاً:

(خلينا من الشاي، إن بقت بس على الشاي هينة، أها الأخبار شنو؟).

رد قائلاً بلهجة مهتاجة:

(المعارك الكلامية على شاشات قنوات التلفزيون ورمتنا، عامله لينا صداع دائم، ناس النظام بالصيح بالكذب يريدون أن يسوقوا للعالم أن البلد بخير، الناس مبسوطين، راضين عنهم رغماً عن ضائقة معيشية، ومشاكل اقتصادية موروثية، والدولة بصدد حلها نهائياً، وناس الثورة واحدين منهم ما شادين حيلهم، الظاهر سنوات الغربية الطويلة جعلت معلوماتهم قديمة، معلومات كثيرة مهمة مستجدة غائبة عنهم، يعني ما مواكبين للحاصل في البلد).

رد أبو العباس بنبرة منسرحة:

(يا أخوانا ناس النظام يريدون توجيه الحوار على حسب هواهم، متعودين على الخم، يدخلون بي جاي ويخرمون بي جاي، ولكن الجهابذة لهم بالمرصاد، ما في طريقة، لما يزنقوهم زنقة حارة،

يفرفرون بي هنا وبى هناك، وفي الآخر يهددون بالانسحاب لعدم تكافؤ فرص النقاش، القنوات إعلام حر، لا ينحازون لأحرار ولا لطغاة، الحقيقة وبس، وتسقط بس، وبس، وبس).

رد الأستاذ بنبرة ضاحكة:

(يا أخوانا المدافعون عن الحق لا يحتاجون إلى كلام كثير، أما المدافعون عن الباطل فإنهم يلفون ويدورون مثل السكارى، السكر يتلف أعصاب المخ، لذلك ترى السكارى يمشون بخطوات مرتبكة غير ثابتة، حسب سُكرهم يحاولون أن يعدلوا من مشيتهم، بدلا من أن يعدلوا يخبوها، فيضحكون عليهم الناس).

رد الزعيم ساخرا:

(يا أخوي السياسة أصلها كده، تكذب وتستمر في الكذب إلى أن يصدقك الناس، وبعدين في ناس عقولهم ضعيفة، أي كلام يمشي عليهم، ما دام أنا معهم، فليقولوا ما يقولوا، أنا مصدقهم، - التفت ناحية شنيبو التفاتة ذات معنى خاص ثم استطرد قائلا- ولا شنو يا شنيبو؟ ليه نصدقهم، أنبياء، ما هم بشر مثلنا).

رد أبو العباس بحق:

(عارفين مصيبة بلدنا جائية من وين؟ جائية من هؤلاء الذين يجعلون طواغيتاً جبناً يمعنون في إذلالنا، وحرامية بلهاء يمعنون في نهب ثرواتنا).

رد الزعيم قائلاً:

(مغفل نافع ديل، ومعهم طبالين وزمارين بطانات سوء، عليهم جميعا لعنة الله، هم الذين غطسوا حجرنا).

رد شنيبو بخبث:

(أنا أمي، والله أمي، لكن عندي فهم شوية، أسمعوني مرة واحدة، دق الطاسة تجبيك ألف رقاصة، والله المستعان).

رد أبو العباس متسانلا:

(شنيبو ده راكب من وين، سألتكم بالله، هل عندنا قناة فضائية سودانية واحدة تجبرنا على أن نصبر على مشاهدتها لمدة دقيقتين، وصحيفة محترمة تجبرنا على الاطلاع عليها؟).

رد الأستاذ بنبرة قوية:

(الناس ليه يموتون في سبيل الحرية؟ لأنه لن تقوم لأي دولة قائمة بدون بسط الحريات، وأهمها حرية الإعلام، لأنه هو سلطة رابعة، بجانب سلطة تشريعية، تنفيذية، وقضائية، وهو العين الساهرة عليهم جميعا، تفضح كل جرائم فساد وخلافه).

وكالعادة عندما يكون شنيبو في أحسن حالته ينصت لكلامهم باهتمام منقطع النظير، وعندما يكون متعباً، نصف نائم ونصف صاحي، يضرب بكلامهم عرض الحائط، يبدو اليوم مصححاً شوية، خاطبهم بأسلوبه الملتوي قائلاً:

(شوفوا يا ناس هوي أنا ترى عربي ساكت، أخذوني على قدر فهمي،
أنتم ناس متعلمين وأنا أمي ساكت، (سوي رأسك مع مائة رأس إن
انقطع لا بأس)، و(على الله ما يقسى شيء)، وكلامي ثاني
ماني زايدة).

وبينما يخوضون فيما كانوا يخوضون فيه وإذ بصوت الإقامة
لصلاة الظهر يملأ أسماعهم وأسماع أهل الحارة بطمأنينة، ونام،
وسلام، هرولا مسرعين نحو المسجد تاركين أبو العباس وشنيبو من
خلفهما، قال لرفيقه:

(يا عزيزي لا تنسى الدعاء للثوار في صلاتك، أدعو لهم بالثبات
وبالنصر المؤزر، أدعو لهم بالصبر على البلاء، وأدعو على الظالمين
بالخسران المبين).

رد عليه بالآية الكريمة: (واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا
على الخاشعين، (صدق الله العظيم)).

قمع متظاهرين

كل دول العالم المتحضر تشهد من وقت لآخر مظاهرات سلمية، قننوها بالقانون، لم يجرموها، يجرموها، أو يشيطنوها، وإنما تقوم شرطتها بحمايتها، وتتصدى لها إذا ما انحرفت عن وجهتها بأساليب معروفة ومقبولة، كماء كثيف وغاز مسيل للدموع على أسوأ الأحوال. أما في ظل أي نظام دكتاتوري، يتحكم فيه فرد واحد شبه إله، وشمولية بغیضة تتحكم فيها مجموعة صغيرة أو حزب واحد في مصير أمة بحالها، فإنهم دائماً ما يدعون بأن التظاهر حق مكفول للمواطن بالقانون، ولكنهم يكبلون هذا الحق بشروطهم التي تجعل مؤيديهم وأنصارهم يجوبون الشوارع عرضاً وطولاً، ومناوئهم ومعارضهم، يساقطون كجراد من وابل من رصاص، يعطون هذا الحق بيد لمن يشاؤون، ويأخذونه بيد أخرى ممن لا يشاؤون.

الأنظمة، شمولية ودكتاتورية، بالإضافة إلى أساليب العنف المباشر التقليدية المعروفة، قتل، اغتصاب لرجال ونساء، تحرش جنسي، اعتقال وتعذيب في ظروف غير إنسانية، سحل، ضرب بهراوات وسياط وخراطيش بلاستيك، ركل بالبووت، لكم، تهشيم عظام، إهانة بأبشع ألفاظ، ابتدعت أساليب قمعية ذات طبيعة جهنمية، قمع فكري، يتسهم هرمة تجار دين، علماء سلطان، يقومون بتحريم وتشنيع أي عمل احتجاجي ويدرجونه تحت مسمى خروج على الحاكم، وهم بذلك يقومون بإضفاء شرعية على قمع مفرط، وتوفير

سند وغطاء ديني له، وفي نفس الوقت يتحاشون نصح الحاكم، إما انقاءً لشره، خوفاً على مكتسباتهم، أو طمعاً في عطاء جزيل منه، أو أنهم يغيضون الطرف طمعاً وخوفاً ومداراةً، وصدق من قال: (في هذه الأيام حاكم كافر أكثر رافةً بالمتظاهرين والمحتجين من حاكم مسلم، لأن الأول يعيش في دولة قانون، ولذلك يخشى القانون، والثاني هو دولة، وهو قانون، بل هو فوق القانون)، قمع ثقافي بحجة محاربة غزو ثقافي هدام أت من أعداء الأمة، قمع اقتصادي، انتزاع وتلاعب في بيع الأراضي المملوكة للدولة، افقار صغار مزارعي الريف وتشريدهم، تهميش غالب مواطني المدن ووضع عراقيل مجحفة أمام أعمالهم وسبل كسب عيشهم؛ هجرة من الريف إلى المدن، ومن البلد الملغوم إلى الخارج المشؤوم، رشوة مقننة تشجعها الدولة، محسوبية، سرقة مال عام نهاراً جهاراً، تضخم وعدم قدرة على تحكّم في أسعار، لأنه سوق حر، بلا ضابط، تتحكّم فيه رأسمالية طفيلية جزء أصيل لا يتجزأ من النظام، ندرة سلع استراتيجية لأن الاقتصاد منهار، العملة لا تساوي قيمة الورق المطبوعة عليه، الدولة عاجزة عن تقديم خدمات أساسية للمواطن. قمع اجتماعي، فقر يحول بين ملايين الشباب والحصول على تعليم ومعرفة، انحلال اجتماعي، ضياع، إجرام، إفساد في الأرض، تعاطي مخدرات، سياسات نخبوية في مجالات العمل، الصحة، والسكن، تزيد أهل التمكين تمكيناً وأهل الفقر فقراً. قمع إعلامي، الإعلام الحر مخنوق، تطويع ومسح للصحافة الورقية والكترونية، تحويل الإذاعة والتلفزيون إلى أبواق رسمية تجميلية لحكومة همها استبداد سياسي، بسن قوانين رقابية تركز سيطرة الأجهزة الأمنية على كل ما يمكن أن ينشر أو يقال علناً. قمع سياسي، توجيه كل مرافق الدولة لخدمة أجندة سياسية لنظام استبدادي، توجيه كل موظفي الدولة طوعاً أو كرهاً، للتماهي مع أطروحات في كثير

من الأحيان لا تخدم البلاد، وإلا فأدوات العزل، النقل، والتهميش مسلطة فوق أي رأس قوي ناشف لا يستوعب الدرس. محاربة الأحزاب السياسية المعارضة، تفكيكاً، طمس تاريخ ومحو نضالات وطنية وقومية، صناعة أحزاب سياسية جديدة ترضع من ثديه وتآمر بأمره. تحشيد المواطنين الفقراء السذج في مواكب تأييد صورية، استخدامهم في مسرحيات سياسية هزلية، بشراء ذممهم بحفنة جنبيات وبأكياس مواد غذائية. قمع قضائي، أدواته مستترة ومرئية، محاكم متخصصة، محاكم طوارئ مرتبطة بأسواق وخدمات عامة، محاكم نظام عام سمعتها سيئة، نتيجة ذلك قضاء غير مستقل، أداة طيعة في يدهم. قمع تشريعي، برلمانات لها سلطات تشريعية لا أنصفت مواطنًا، لا سنت تشريعا واحدا في مصلحته، ولا منعت تشريعا واحدا في غير مصلحته، أداة كغيرها من أدواته التي يستخدمها لتمرير سياساته. قمع موجه للحريات، تكميم أفواه يجعل حرية التعبير تخضع لرقابة مباشرة، ابتذال مفهوم الانتخابات، تزوير إرادة شعب برمنته عبر مهازل ومسرحيات انتخابية مدفوعة الأجر، خالية من أي معنى لشفافية وصدقية وطنية. قمع إداري، ما من أجهزة قمعية إلا وتتكئ على جهاز إداري معطوب، مرتشي، فاسد، مسخر للمراقبة، وللمتابعة السياسية، له دور في أعمال القمع والابتزاز والاعتداء على المواطنين والدوس على حقوقهم. قمع موجه لكرامة المواطن، دوس على كرامته عمدا، بجعله يشعر ويقبل بواقع تمييزي في حقوق وواجبات، وبين من هو غني ومن هو فقير، ومن هو منتمي لحزب حاكم وغير منتمي، في ظل حكومات فاشلة منهارة تتهرب من تقديم أبسط الخدمات للمواطنين وتتركهم نهبا لفساد تجار قطاع خاص شرهين، استلاب لحقوق المواطن المغلوب على أمره، بالحيلولة دون اكتسابه وعيا كاملا بما يجري حوله، وبما يمكن أن تؤول إليه أحواله مستقبلاً بنشر إشاعات

وأكاذيب مضللة. قمع نقابي، بتشريع قوانين نقابية تمهد للتحكم في نقابات اسمية، وتشكيلها بإزاحة وتسريح من الخدمة لكل كادر نقابي غير موال.

التأم شمل شلة الأُنس الثوري في يوم جديد من أيام ثورتهم المستعرة، التي أوارها في اشتعال مستمر مع مرور الأيام. لم تنكسر بالرغم عن كل المصاعب، والتحديات، والمذابح التي واجهتها، لم تحيد عن أهدافها، وغاياتها النبيلة، ووسائلها السلمية، رغباً عن كل وحشية وبربرية لا أخلاقية، يطبقها بعنفوان منقطع النظير وحوش نظام على محتجين عزل. ملايين خرجوا إلى الشوارع وهم يعلمون أنهم قد لا يعودون إلا ببيوتهم، وإن عادوا فقد يعودون بعاهات مستديمة، ولكنها ضريبة وطن، يدفعونها بنفوس هنيئة راضية مرضية، طفح الكيل، وطن في قبضة فاسدين، قننوا الفساد وتمادوا فيه، همهم مصالح ذاتية دنيوية ضيقة، وليذهب وطن بحاله إلى الجحيم. الثورة التي تعم الوطن الآن تصفها أقوال مأثورة، (إذا أردت أن تعرف رقي أمة فأنظر إلى نساءها)، (الرقى ليس الرقى المادي وإنما الرقى الوطني)، (إن الأمة التي يعرف شبابها كيف يموتون هي الأمة الجديرة بالحياة)، (الحق فوق الأمة والأمة فوق الحكومة)، (الشعوب لا تموت من الجوع بل تموت من الذل)، (الوطن تميته الدموع وتحببه الدماء)، (حيثما تكون الحرية يكون الوطن)، (جميل أن يموت الإنسان من أجل وطنه ولكن الأجمل أن يحيا من أجل هذا الوطن)، (الشهادة في سبيل الوطن ليست مصيراً سيئاً بل هي خلود في موت رائع)، (عندما يمسك بالقلم جاهل، وبالبنديقية مجرم، وبالسلطة خائن، يتحول الوطن إلى غابة لا تصلح لحياة البشر).

خيمة الثوار اكتظت بالسماز، جلسوا فوق أرائك جذوع نخل،
فوق بلوكات إسمنت، وفوق سجاد قديم مهترئ ممزق، ابتدر أميرو
الكلام قائلا:

(يا جماعة الخير هذا النظام الاستبدادي، في الثلاثين سنة التي حكمنا
فيها وجه قدرات البلد كلها اللهم الأمني، جهاز أمن، كتائب ظل،
مليشيات، أمن شعبي، شرطة شعبية، هذا ما عرفه، وما خفي أعظم).
رد تفتيصة بحنق:

(يا أخوي الظاهر لنا في النور حاجة، والمخفي في الظلمة حاجة
ثانية، نظام خطير، عنكبوتي، ناس قاعدين في المكاتب، لابسين مدني
احذروهم، ديل ملاقيط مندسين).
رد عدولة غاضبا:

(قربت، قربت، دنا قفافها- أشار بيده - الهايلكس الحائم بدون لوحات
داك تبع منو، الراكبين عليه ديل منو؟ يا أخوانا ديل ناس مجرمين،
فاتوا السي أي إن الأمريكية، والكي جي بي الروسية، والموساد
الإسرائيلية، ديل الله يكفيننا شرهم).
رد أميرو متعجبا:

(في حاجة غير مفهومة، لماذا يتعامل كلاب النظام مع المحتجين بهذه
الهمجية، تحس أنه فعلا عندهم غيبنة مبيته ضدهم، في سر غير
مفهوم، لا يختلفون عن الإنسان الآلي، مبرمجون على فعل أفعال
شيطانية، والآلي لا يشعر بذنب أو وخز ضمير).
رد عدولة بلهجته الساخرة:

(قربت، قربت، دنا قفافها، الإنسان ممكن أن يتحول إلى إنسان آلي،
يقوم بارتكاب جرائم حرمتها كل الأديان السماوية، لا تقبلها الفطرة
السليمة، إذا كان مغيب العقل، ووسائل تخييب العقل كثيرة ومتاحة،
مُسْكِرَات، مُخَدِرَات، وخلافه).

رد شنو بحدّة:

قلت شنو؟ يا جاهل كبير مخك (وخلافه) دي شنو؟ ما تعرف البنكنوت، المال الذي يسيل له اللعاب، قبضني وطلباتك على الرأس والعين، اغتصاب، تصفيات جسدية، أنت تأمر، ونحن ننفذ، والحساب ولد؛ وبعدين يا جاهل لازم تفهم لو غار النظام في ستين ألف داهية وجاءت حكومة عفيفة، مصيرهم أسود، خلاص بح، ماهية وبس، ثاني ما في خمش، ما في قلع، ما في هميته، لذلك لازم يشدوا الحيل ويربطوا الحزام معهم).

رد وليد متبرما:

(يا أخوانا الإجرام عندنا وصل منتهاه، مسلسلات شنو، وأفلام شنو، ده إجرام عبيط وعشوائي).

رد تفتيسة قائلاً:

(الأنظمة الشمولية في سبيل البقاء تستخدم كل الوسائل، مشروعة غير مشروعة، تتفنن، تبدع، وتتعلم من الغير، خصوصا المخابرات المجرمة، للحفاظ على نمط الحكم تدوس على كل شيء، الحاكم هو الحاكم بأمر الله، وفناء الحاكم فناء الأمة، لأن الحاكم هو الأمة).

رد شنو ساخطاً:

(يا سلام عليك يا تفتيسة ذكرتنا الفراعنة، حكامنا اليوم كلهم فراعنة، وشعوبهم ميتة، فرعون عاري، وشعب عريان، الحمد لله ظهر الطفل الذي يتف على الفرعون في وجهه، ويشمت فيه ضاحكاً، العريان، العريان).

رد عدولة بحرارة:

(قربت، قربت، يا جماعة الصور التي تعرضها قنوات التلفزيون العالمية تختلف عن صور قناتنا السيكوباتية، عاملة أضان الحامل طرشاء وعينها عمياء، لما تشوف صور العصر والفتك تدي نفسك

العجب، دين وين، قانون وين، وحوش مفترسة لابسة كاكي ولابسة مدني، غابة، يفرمون في الناس فرم).

رد أميرو مستنكرا:

(يا جاهل السيكوباتية دي جبتها من وين، ما تلقط كلام ما عارف معناه، ترميك في ورطة يحلك منها الجليل، الصور دي محترمة شوية، ما خفي أعظم، المعتقل يشوف الشمس بالليل والنجوم بالنهار، نوم ما في، ضرب سوط وخرطوش في الرأس، وبنية في الوجه والفك، شلوت في أي مكان تحت الحزام، قلع أظافر، صقع كهرباء، تبريد تحت الصفر، وحاجات ثانية كثيرة اللسان يخجل يقولها).

رد الأستاذ يهدوء:

(شوفوا يا (ثواراً من منازلهم)، حتى المعتقلات فيها خيار وفقوس، الواسطة والمحسوية هنا شغالة، في معتقلين نفوسهم ضعيفة، يطلعوا بواسطة ويتركوا إخوانهم، ومعتقلين أقوىاء، يرفضون الخروج، يشترطون إما خروج للجميع أو بقاء للجميع).

هنا اغرورقت عيناه بالدموع، شرد مع خواطره (هذه الأجسام النحيلة، التي هدها فقر مرض وجوع، تتعرض لصنوف من الفتن والمحن، ونظل منتصباً واقفة، شامخة مرفوعة الرأس، تهتف في وجه ظلم وقساة ظالمين (تسقط بس)، يا ما أنت كريم يا رب (تخرج الحي من الميت)، ثوار أحرار من شعب ميت، و(تخرج الميت من الحي)، زبانية نظام من نفس الشعب، لحظة مخاض صعبة، الأم قبل أن تضع مولودها تعاني الأمرين، وكذلك الوطن، قبل أن تيزغ فيه شمس الحرية، يعاني من ضيق وعسر ورهق، أحراره، تضيق بهم الدنيا على وسعها، ومع ذلك لا يقنطون من رحمة الله)، ثم عاد واستطرد قائلاً:

(مع السلامة يا ثوار حب وسلام، وسلام على كل من وقف ضد ظلم وطغيان، خلاص، الوداع، وسكنتت شهرزاد الثورة عن الكلام المباح، والصبح رباح، تصبحون على خير، ومع كل فجر جديد بشريات سعيدة، ويا عدولة (قربت، قربت، دنا قظافها) مبروك مقدماً، ولا نامت أعين الجبناء، وثورة حتى النصر، وتسقط بس).

وهو يجر جر خطاه في طريقه إلى بيته، تراحمت في خاطره مشاهد فتية وفتيات، بقلوب نقية، طاهرة، بيضاء، تركوا أحضان أمهات وآباء وبيوت، تركوا هواءً عليلًا نقيًا، أسرةً وفرشاً ناعمة، تركوا مذياعاً، تلفازاً، رقصاً، موسيقى، صنوفاً من أطعمة طيبة نظيفة، تركوا أهلاً أحبباً وصحاب، تركوا الدنيا وما فيها من نعيم زائف، رفعوا راية الحرية بيضاء، حموها بهتافات وأهازيج وأغاني، فضلوا عليها معتقلات بانسة حقيرة أشبه بحظائر خنازير، يصبحون ويمسون فيها على وجوه كالحة كريهة تذكرهم بزبانية جهنم، يعانون فيها ويتألمون، فقدوا فيها الغالي والرخيص، لكنهم! راضون كل الرضا، لأن مطمحهم ثمنه غالي جداً، دونه مهج وأرواح، أهل وولد، إنها حرية، سلعة غالية، لا تُستجدي لا تُمنح، تنتزع انتزاعاً، قوةً واقتداراً، تكتنفها سلمية أقوى من أيدي راجفة تحمل هراوات، مسيل دموع، ورمصاص.

قال في نفسه: (هذا نظام استبدادي، ظل جاثماً على صدر البلد لثلاثين سنة عجاف، حولها في النهاية إلى ثكنة، وكر دبابير، سجن، معتقل، أمليون مندسون في كل مكان، يمشون بين الناس في تعال وكبرياء، ومسدساتهم تبدو من بين طيات ملابسهم، يحشرون أنوفهم القذرة في كل شيء، التاتشر العسكري يجوب الشوارع، لا يأبه بناس،

ولا بقوانين مرور، لأنها بلد بلا قانون، الخطاب السياسي يتحدى الكل، مواطنين، منظمات إنسانية، مجتمع دولي، (البلد بلدنا ونحن أسيادها)، (العاجبُ عاجبُ والما عاجبُ يطُق رأسه في حيطَة أو يقع في بحر). نظام يدعي صلابة زائفة، لم تنفعه أموال شعب أنفقت على أميين، وأنفقت على جلب معدات وأدوات قهر وتعذيب، وأنفقت على شراء ذمم، لأن الثوار أكثر صلابة من كل هؤلاء، هم على حق وما عداهم على باطل، بعد ثلاثين سنة انكشف الزيف والباطل، لا أكلنا مما نزرع، ولا لبسنا مما نصنع، بل أصبحنا عِرة الأمم، نستجدي كل شيء، اليسوى ولا يسوى يدخل أصابعه الخمسة في عيوننا).

كالعادة قضى ليلةً حافلة بهم وغم قبل أن يهجم عليه النوم بقضه وقضيضه، بمبان، سيات، هراوات، وخراطيش، كأنها قرون شياطين، يحاول أن يفك طلاسم اللغز الذي أصبح يؤرقه ويهدله في كل ليلة، شعب معظمه في الشوارع، يقول بأعلى صوت (لأ)، لظلم، لحرامية، لعنصرية، لجهوية، لأ، لأ، ثم لأ، يقابله نظام فاسد، معترف بجرائمه، سوءاته، تقصيره، وبفشله، وعالم حقير يتفرج عليهما، عالم مصالح لا يعتد بقيم، لا يعدو عندهم المشهد سوى كونه مباراة مصارعة ممتعة يتفرجون فيها على ضرب، ركل، لكم، تهشيم عظام، عرق، ودم، يتمنون لها أن تطول، وبعد انتهائها تنوق نفوسهم المريضة إلى مشاهدة ملحمة جديدة في بلد متخلف آخر. السؤال: من يكسب ومن يخسر في هذه الملحمة؟ الاحتمالات تقول، الاحتمال الأول ٨٥% يكسب النظام، استبعده لأن النظام فاقد لعناصر أخلاقية، اقتصادية، وسياسية، يمكن أن تساعد على البقاء، الاحتمال الثاني ٨٥% يكسب الثوار، استبعده لأن الثوار يواجهون عصابة، إن فقدت الأمل لن تتورع عن حرق البلد بمن وما فيه، الاحتمال الثالث ٨٥% يخسر الاثنان، ويكسب طرف ثالث، يتربص ويتحين الفرص للانقضاض

على الفريسة بعد أن تتعب وتنهار من طول المطاردة، استحسّن هذا الاحتمال لأن اللعبة لعبة أمم وليست لعبة شعوب.

أشرفت الشمس بنور ربها، أشعتها تخترق الحجب لتصل إلى كل بقاع الأرض، إنها آية من آيات الله للناس لعلمهم يهتدون إلى السراط المستقيم، سراط حق، عدل، حرية، مساواة، الشمس زائلة، والناس كذلك زائلون، ويبقى وجه القاهر الجبار رب العالمين، بعد الموت يا أيها الظلمة، لن تأخذوا معكم بيوتكم، ولا عماراتكم، ولا أموالكم التي لم تراعوا فيها إلا ولا ذمة، وستتبعكم لعنات من دسّم عليهم، وسودتم عيشتهم، وستقفون بين يدي قاهر جبار يوم الحساب، توزن حسناتكم وسيئاتكم، وإذا بقيت لكم حسنات تطرح منها سيئات من ظلمتموهم، لا مفر، يا أصحاب السعادة، يا من ملأت أخباركم الصحف، وملأت صوركم شاشات التلفاز، هتف لكم المنافقون، طبل لكم الطبالون، زمر لكم الزمارون، و من هم عن الوعي مغيبون.

خلاص، انكشف المستور، العيال كبرت، وعوا درساً، فهموا الأعباء، مجازر سبتمبر ليست عنهم ببعيدة، لو استعان هذا النظام الهالك بكل أجهزة مخابرات الدنيا، استخدم كل أدوات قمع قديمة وحديثة، أنفق كل ما سرق من أموال الشعب، لن يستطيع أن يوقف مدأً ثورياً تمدد في كل شبر من أرض وطن زكي طيب.

مثلما كان يفعل دائماً مر قبل موعد آذان صلاة الظهر في طريقه للمسجد على شلته النهارية، ما عندهم مكان آخر يذهبون إليه، وما عندهم مواضيع أخرى يتحدثون فيها غير أخبار الثورة والثوار، مجبرين وليسوا مخيرين للحضور إلى هنا، حياهم والبشر يطّح من وجهه، لأن رؤيتهم أصبحت تعني له أن الثورة ماضية إلى الأمام بخطى حثيثة، خاطبهم مازحاً:

(ثوار الليل يقولون عنكم أنكم شلة عجائز، لا تجدعوا ولا تلقطوا الحجارة، يعني سجم رماد، يعني الثورة كان راجياكم عليها العوض، وبنبت العوض، وود العوض).

رد الزعيم ضاحكا:

(خلاص هم حطب، جاز، بنزين، وقود الثورة، ونحن قمري، حمام، دجاج ما جائبين خبر للثورة، فالح في الكلام، كلامك فاضي لا يقدم ولا يؤخر، الثورة محتاجة لجهد ومال، ده ما وقت الفصاحة، ده وقت الجد، والعمل، إما أن نكون حمير نجر الكارو، أو بني آدميين نسوق حمير الكارو).

بعد أن بصق جهة اليسار، واستعاذ من الشيطان الرجيم، رد شنيبو مستنكرا:

(يعني لازم تدخلوا الكارو، وحمير الكارو، وناس الكارو في الموضوع، ثورتكم مبروكة عليكم، سبيونا في حالنا، قال ثورة قال، قلت (تسقط بس)، قلنا (تقعد بس)، بس، وبس، وبس، والما عنده حمار يشوفله إن شاء الله ذيل حمار، وعر وعر وعررر و (تقعد بس)).

رد الأستاذ بنبرة رقيقة هادئة:

(يا شيخ العرب الجماعة ديل حساد بس، عين الحسود بالعود، حاسدتك في حمارك المناضل ده، حمارك انضم إلى قائمة مشاهير الحمير التي تضم كل من: حمار الهدوم، حمار النوم، حمار الحكيم، حمار الفلاسفة، حمار عزيز، حمار يعفور، حمار الأسفار، حمار الشيخ، حمار العطار، حمار جحا، الحمار الذهبي، والحمار التائه، أما حمارك فهو شيخ الحمير ديل كلهم).

رد بنبرة فرحة:

(هع، يعني يا أستاذ قصة الحمير أثارها طويلة، وأنا والبجم ديل ما جائبين خبر؟).

رد ضاحكا:

(يا شنيبو كبير مخك شوية، لماذا الناس عبت الشوارع وهي تهتف (تسقط بس)، يعني ما سمعت بقصة الحمار، والأسد، والثعلب).

رد مبتسما:

(يا أستاذ الحيوانات دي عندها مائة قصة وقصة، لكن سمعني قصتك دي).

رد قائلاً:

- (سأل الثعلب الحمار عن سبب ضعفه وهزاله، فأجابه الحمار: بسبب سوء تدبير صاحبي، فهو يجوع بطني ويثقل ظهري، وما اجتمعت هاتان الحالتان على جسم إلا أضعفته وأسقمتاه).

قاطعه قائلاً:

- (الموضوع فيه إنّ، يعني القصة لخبطة، ناس، وحمير، وسوء تدبير، وعوووك وأررروك، وجبانة هائصة).

رد قائلاً:

- (يا شيخ العرب، الحمير ما مهمشة إلا في بلدنا دي، مرشح أمريكي من الحزب الديموقراطي اختار الحمار رمزا لحملة الانتخابية التي كان شعارها " لندع الشعب يحكم"، واختار الحمار لأنه الأكثر صبراً وتحملاً، هناك جمعية للحمير ضمت صفة مثقفي وفناني فرنسا، وتأسست على شاكلتها جمعية في مصر، وسوريا، ولبنان).

قاطعه بنبرة مزهوة قائلاً:

- (طيب يا أستاذ وقت الكلام ده حاصل في أمريكا ذات نفسها، وفرنسا، ومصر، ولبنان، وسوريا، ما تفهم البجم القاعدين معانا ديل مَعزّة الحمير وعلو شأنهم في بلد الخواجات، والله يا أستاذ أنا ما نيّتي إلا في خواجية بيضاء زي القمره بالحلال، حد الله بيني وبين الحرام، وحماري كمان نيّته في حمارة خواجية بيضاء وكمان برضاها ما تُلب ساكت).

رد عليه قائلاً:

- (يا شيخ العرب أزيدك شوية، عشان تطلع في الكفر، وتطلع لسانك عليهم، الحمار حيوان مناضل أكثر بكثير من المناضلين المشهورين، في الكثير من الثورات الشعبية ساهم الحمار في نقل العتاد، إضافة إلى أنه هو أفضل كاشف ذو لحم ودم للألغام، لأنه يسير أمام الثوار، فتنفجر فيه الألغام المزروعة).

قام من مكانه، قفز عالياً في الهواء، ضرب بقدميه على الأرض، نظر نحوهم، قال بنبرة مبتهجة:

- (سيبك من البجم القاعدين معانا ديل، ولكن سر بيني وبينك، أوع شيخ الحمير المربوط داك يسمع كلمة واحدة من الكلام ده، حمالتك علي، إما زعل وجاء وطرдна من المحل ده، ودخل جوه وطررد أبو العباس من محله، ثاني ما تمد لي يدك بالسلام).

ترك شيخ العرب والتفت نحوهم قائلاً:

(يا أخوانا شيخ العرب حالف يدخلكم متاهات أكثر من متاهات النظام، أتركوه على جنب وتكلموا في الحرب المفتوحة على شعبنا الأعزل، سيارات تانتشر تحمل مضاد طائرات تجوب شوارع، قناصة فوق أسطح بنايات، قوات نظامية وغير نظامية منتشرة في كل مكان، روح البني آدم أرخص من ثمن رصاصة تافهة يصوبها قناص في صدره).

رد هندسة الذي ظهر بعد غياب طويل بسبب المرض قائلاً:

(وقعتنا سودة، النظام بي جهة، وشيخ العرب بجهة ثانية، الله يصبرك يا روح، روحنا طلعت خلاص).

رد أبو العباس غاضباً:

(الناس ديل أي أساليب قمع قذرة، طبقوها بامتياز، إما أن نسكت فنموت جوعاً ومرضاً، أو نحتج فنموت ضرباً بالرصاص، يعني في الحالتين ميتين، ميتين).

صفق شنيبو بيديه ثم رد قائلاً:

(عاد الموت ما من زول، من الله، في زول مات قبالي يومه، يا ناس هوي كلامي أنا الأمي ده ما منه فائدة، لكن الله في).

رد الزعيم بمرارة:

(يا ناس أنا حضرت أكتوبر، وأبريل، وسبتمبر، زي الحاصل ده لم أر له مثيلاً من قبل، أنا أشك في الذين يقومون بهذه الأفعال التافهة، من المؤكد أنهم فاقدين دين وأخلاق ووطنية).

رد الأستاذ متعجباً:

(فعلاً صدق من قال: من أين أتى هؤلاء؟ قطعاً لم يأتوا من رحم أمتنا المسالمة الطيبة، لم يرضعوا من أثداء أماتنا الحنونات، ولم يتشربوا بتعاليم ديننا السمح، الذي يحرم قتل النفس إلا بالحق).

رد أبو العباس بنبرة لا تخلو من نفحة إيمانية قائلاً:

(يا أخوانا نحن في آخر الزمان، قال نبينا عليه صلوات الله: (والذي نفسي بيده ليأتين على الناس زمان، لا يدري القاتل في أي شيء قتل، ولا يدري المقتول على أي شيء قُتل)).

رد الزعيم بنبرة لا تخلو من امتعاض:

(السياسة لعبة قذرة، تخرج العباد من الملة، عشنا وشفنا كيف هذه الدنيا الفانية التي لا تسوى عند الله جناح بعوضة، المسلمون تنافسوها حتى ضرب بعضهم رقاب بعض).

رد شنيبو متحدياً:

(يا ناس هوي كلام القصير ما مسموع، خذوها مني كلمة، نحن الأميين ديل أحسن من المتعلمين المثقفين، لا أكلنا حق زول، لا قتلنا زول، حامدين وشاكرين، قاعدين في ظل عشة، راكوبة ما همانا،

ماكلين كسرة، عسيذة رغيفة بائنة ما همانا، راكبين حمار، عجلة،
كداري ما همانا، لكن أنتم يا متعلمين عينكم طائرة، دايرين السمح كله
ليكم، والشين لغيركم، العين ما يملاها إلا التراب).
قال في نفسه:

(شعب ينتمي إليه مثل شيخ العرب، مع زلاته، والله لشعب عظيم،
ولكن يا للخسارة، لم يجد الحكم الراشد الذي يجعله يعيش عيشة كريمة
تليق به، لم يجد القيادة العبقرية الفذة، التي تمتلك الرؤية الواضحة،
والإرادة القوية، والتجرد والعزوف عن ملاهي الدنيا وملذاتها؛ ولكنه
ما دام يملك القدرة على الخروج إلى الشارع وقتما يريد، لن يُرَ كَعه في
يوم من الأيام فاسد أو مستبد).

قبل أن يسترسلوا في أحاديثهم أكثر فأكثر، إذ بصوت الإقامة
ينبههم للصلاة، نهضوا وكلهم همة، رشاقة، ونشاط، ترافقوا نحو
المسجد، يذكر بعضهم بعضا بالإكثار من الدعاء، بأن ينصر الله
المستضعفين في الأرض، وأن يخذل الظالمين المتكبرين، وأن تنعم
كل بلاد الله بحرية، أمن، وسلام.

خطاب الرئيس

استخدم النظام كل خبرات، أمنية، مخابراتية، وسياسية، قامت على مبدأ الغاية تبرر الوسيلة، تراكمت على مدى أكثر من ثلاثين سنة، في مجابهة ثورة غير مسبوقه في أهدافها، تنظيمها، وسعة انتشارها البشري، ومداهها الجغرافي، استخدم كل وسائل قمع وبطش متاحة، لقتل همة المتظاهرين، وإجبارهم على العودة إلى جحورهم لأنهم في نظره مجرد حثالة جردان، استخدم كل وسائل إعلامية مرئية، مسموعة، ومقروءة، للتضليل، وقلب الحقائق، وتسطيح أدمغة فهم شعبي جمعي، في نظره مجرد قطيع معيز يمكن التحكم في حركتها بكلمة أو بكلمتين معسولتين، قام ريسه بزيارات مكوكية داخلية ليوهم بها الرأي العام الداخلي بأن جذور شعبيته ثابتة في أعماق قلوب الجماهير، وبزيارات مكوكية خارجية ليوهم بها الرأي العام الخارجي بأن نظامه الآن بات أكثر قوة ومنعة، وأنه قادر على حماية ورعاية كافة مصالحهم، لم يفلح كل ذلك في وقف مد ثوري شعبي تنامي، لسبب بسيط، أن حياة الناس على كافة الأصعدة، سياسية، اقتصادية، اجتماعية، ثقافية ركدت، تعفنت، تسرطنت، وصلت إلى طريق مسدود، إلى نقطة لا عودة، وأن علاجها الوحيد اجتثاث كل الدود والعفن.

تضمن خطابه العديد من الأوامر: (فرض حالة الطوارئ في البلاد لمدة عام، حل الحكومة الاتحادية والحكومات الولائية، تعيين حكومة تصريف أعمال، تكليف حكام عسكريين لإدارة الولايات، دعا البرلمان إلى تأجيل النظر في التعديلات المطروحة على الدستور،

الالتزام بالوقوف على مسافة واحدة من جميع القوى السياسية والالتزام بقومية رئاسة الجمهورية، وثيقة الحوار الوطني هي أساس لم شمل القوى السياسية على أن يستمر الباب مفتوحا للحوار مع الجميع، تكون القوات المسلحة ضامنا وحاميا للحوار في الفترة المقبلة، دعا حملة السلاح إلى تسريع خطا وقف الحرب والعودة للسلام، انحياز الدولة للشباب انحياز صادق وأمين، الاستقرار السياسي هو هدف استراتيجي لتحقيق الاستقرار الأمني، الالتزام بتطبيق العدالة والشفافية في لجان عدل النائب العام للتحقيق حول مقتل عدد من الشباب في المظاهرات).

مع العلم أنه سبق هذا الخطاب لقاء مدير جهاز أمنه مع رؤساء تحرير الصحف، حيث أعلن لهم عدم ترشح الرئيس لولاية جديدة، وتخليه عن رئاسة حزبه الحاكم، وما جاء في الخطاب كان شيء آخر، بعض المحللين يرجحون أن تأجيل إلقاء الخطاب لأكثر من ساعتين، كان بسبب تعديل خطابه الأصلي في اجتماعه مع قيادة حزبه الحاكم. التأم شمل الشلة الثورية في يوم جديد من أيام ثورتهم السلمية الماضية رغم التحديات، ما كانوا متفائلين أبدا بأن يحمل لهم خطاب ريسهم بشريات أو حتى تطمينات من باب المجاملة في حديث ذو شجون، ثلاثون عاما مرت وفيها سمعوا منه كثير الكثير، سمعوا كلاما ولم يروا أفعالا، سمعوا وعودا بالونات تطير في الهواء، ملوا سماعه، عودهم إلا فائدة ترتجي، خطابات ضعيفة فارغة، تفتقر إلى سلطة وقوة، أوصل البلد إلى خراب، حتى هجرها الغراب. كلامه حمل مغالطات، كيف يكون حوار مع فرض حالة طوارئ، كلام وخلص، والحشاش يملأ شبكته.

لكن!! الثورة ماضية بكل عزيمة وإصرار في طريقها، هدف إسقاط نظام واهن ثابت لا يتغير، ثورة شابة نفسها طويل، ونظام كهل يتنفس من أمبوبة أكسجين، نفسه قصير. بعد الخطاب مباشرة اندلعت مظاهرات ليلية في أحياء العاصمة، ومدينة ود مدني، في وجود تعزيزات أمنية، وقوات جيش منتشرة في الشوارع الرئيسية تمشيا مع حالة الطوارئ، فيما بعد خرج آلاف المتظاهرين في مظاهرات نهائية بأم درمان، بري، شمبات، وجامعة العلوم الطبية، هذه المظاهرات بمثابة تحد صريح واختبار لما ورد في الخطاب، استمرت المظاهرات لمدة نصف ساعة، على مرأى من جنود الجيش ولم يتعرض لها أحد، ثم ظهر أفراد الأجهزة الأمنية، قاموا بممارسة هوياتهم القمعية الوحشية المفضلة، بصورة أقبح وأبشع، في جامعة العلوم الطبية دخلوا الحرم الجامعي وقاعات المحاضرات، أوسعوا الطلاب ضربا مبرحاً، على الرؤوس، وعلى كافة أجزاء الجسم، بخراطيش وهراوات، رسالتهم الأمنية الجديدة: (أيها المتظاهرون، شذاذ الآفاق، أعداء الدين والوطن، ثكلتكم أمهاتكم، إما أن تعودوا إلى جحوركم، وإلا، فإننا نرى رؤوسا قد أينعت، وحن وقت قطافها).

ابتدر أميرو الكلام قائلاً:

(سبحان الله، ده خطاب ريس، خطاب مخيب لآمال وتطلعات شعب ثائر، حيرنا وحير العالم، فعلاً ريس مصاب بجنون عظمة، لدرجة إنه ما شاعر إنه واقف فوق أرض مهتزة).

رد تفتيس ساخرا:

(يا عم هذا خطاب استهلاك محلي، محاولةً بانسة لكسب الوقت في مواجهة احتجاجات كل يوم تزيد وتكبر، خلاص، دق ناقوس الخطر، الأمور ما عادت زي زمان، الشعب صمم، ولما الشعب يصمم، خلاص، لا رصاص ولا بمبان، ولا طرزان، ولا فلنكان).

رد عدولة بنبرة متفائلة:

(قربت، قربت، دنا قطفها، يا أخوانا، معجزة، في جهات حسبناها مיתה، دجاج فطيس، تحولوا في لمح البصر إلى صقور كاسرة، من يصدق خروج مظاهرات من الأحفاد والعلوم الطبية، الأحفاد بنات منعمات مدلعات مع الموضة سائرات، العلوم الطبية أجانب وأولاد معتربين ومعتربات ومريشين ومريشات، يا ما أنت كريم يا رب، تمهل ولا تهمل، بغوا، تجبروا، داسونا مثل حشرات، وبعدين يا أخوانا الرئيس صلاحيته انتهت، خياراته صفر).

رد شنو ساخرا:

(الرئيس ماسك لينا في حاجة واحدة، حوار وطني، حوار طرشان، نحن زهقنا منه، هو ما زهق منه، الزول ده كم سنة يؤذن في مالطا، خلاص كلامه كمل، خلاص اللعبة انتهت).

نسي وليد متاعب الركشا وقال ضاحكا:

(يا أخوانا الرئيس ماسك حوار بيد، وقبضة أمنية بيد، ذكرني حكايتنا ونحن صغار، نقعد حول صينية الأكل وراجل كبير ماسك كراباجه فوق رؤوسنا، الكراباج ينزل على ظهر واحد منا، ومعه نهرة: (أكل براحتك العجلة شنو يا ملهوف)، ينزل على ظهر الثاني، وبعده نهرة: (على مهلتك الخير راقد يا حمار)، وينزل على ظهر الثالث، ونهرة: (أكل من قدامك يا مجنون)).

رد أبو علي قائلا بعد أن بصق سَفْتَه بنزق دلالة على الشعور بالسخط: (يعني رجعونا ثاني ثلاثين سنة للوراء، لحالة الطوارئ ذاتها لمن عملوا تمثيلية انقلابهم، كذب، خداع، لعب على الدقون، لكن هذه المرة لعبتهم مكشوفة، خلاص، اللعبة انتهت (قييم أوفر)).

رد عدولة قائلاً:

(قربت، قربت، دنا قطافها، يا أخوانا الطوارئ ليست حل، عائرة وأدوها سوط، الأسعار طارت السماء، كساد عم البلد، بضاعة مكدسة في الرفوف، مستثمر براني ما في، مستثمر جواني هج ترك البلد، أثيوبيا قريبة).

رد أميرو قائلاً:

(يا أخوانا كبروا أمخاكم شوية، كلام مدير المخابرات كوم، وكلام الرئيس كوم ثاني، خلال فترة تأخير الخطاب قيادات حزبه الحاكم مارسوا ضغوطا على المسكين، نتيجتها ما حصل، العصابة تفرقت، أبشروا بالخير، دي بداية السقوط).

رد الأستاذ قائلاً:

(طبعاً ناس النظام هذه الأيام عائشين في برجله ولخبطة شديدة، الضغوط عليهم فوق طاقتهم، مشاكل البلد ما ليها حل، الكراهية زادت، الحلول الأمنية البلدية ألبت الناس زيادة، لذلك عجبوني ناس تجمع المهنيين، لا مساومات، لا مهادنات، لا لرجوع للخلف، ثلاث لاءات، مظاهرات حتى الإسقاط).

صمت لفترة، مر أمام عينيه شريط لمشاهد الثوار يفرون تحت ظل قانون جائر، ليس له سند قانوني، فرضه النظام ليكسر به شوكة الثورة، يرى جثثاً مرمية في الطرقات، وهنود حمر من حولهم يضحكون، يرقصون، ويغنون، دماؤهم تسيل على الإسفلت، ومصاصو الدماء يغرزون أسنانهم ليمصوا ما تبقى فيها من دم، معتقلون مكومون أكياس حنطة داخل صناديق تانتشرات، مهشمي رؤوس، مهروسي عظام، فاقدي وعي.

قال في نفسه: (الله يكذب الشينة، النظام يرتكب كل أنواع المنكرات، فظائع، جرائم، ومذابح، ثم ينكرها بغباء، نيته مبيته لفعل الأسوأ، الطوارئ هي المقدمة، هي غطاء قانوني لمذابح مبيته، لا يخشون الناس، أو مجتمع دولي، أو رأي عام عالمي، لسبب بسيط، إن كنت لا تستحي من الله فافعل ما تشاء)، ثم استطرد قائلاً:

(أها يا أحرار حينما يأتي النوم، لا بد لشهرزاد من أن تسكت عن كلام الثورة المباح، ولا نامت أعين الجبناء، وسكنت شهرزاد الثورة عن الكلام المباح، والصبح رباح، وتصبحون على خير، وثورة حتى النصر، وتسقط بس).

وفقاً لتداعيات الأحداث، ينبغي له بعد قانون الطوارئ أن يكون في ذلك النهار منقبض النفس، ما حدث كان العكس تماماً، دار في خذه أن سنة الله في الكون ماضية، لا بد للنظام من أن يستنفذ كل ما عنده من وسائل عنف وقمع وجبروت يحسب أنها تعينه على البقاء، بدأها بفض المظاهرات، في البداية بأساليب ناعمة، ثم عنيفة، ثم بأساليب بربرية وصلت حد ضرب برصاص، وبخراطيش بلاستيك وعصي، ثم إدخال مليشيات ظل، وملثمين، وغيرهم لفض حشود حاشدة، مما زود عدد الخسائر في الأرواح، وزود وتيرة الاعتقالات والاختفاء القسري، وتوج كل ذلك بفرض قانون طوارئ، وحظر تجوال، كلها لم تأتي بنتيجة مرجوة، كل تصعيد قمعي يقابله تصعيد هيجان شعبي عارم، خلاص، منطوق تسلسل الأحداث يقول: (النظام مات إكلينيكيًا والأعمار بيد الله).

الشعب ملهم، منفتح لانتكاسات شعوب ثارت من قبله، مستلهم لعبر ودروس يستقيها منها، قادر على تفويت وإفشال أيتها مخططات مهددة لوجوده حاضراً ومستقبلاً.

تحية، تقدير، وعرفان لشباب ثائر مصادم لم يفت في عضده وعزيمته، بطش، ارهاب، تقتيل، تعذيب، سحل، ضرب، واهانة، بعثوا في أمتهم من جديد روح عزة وكرامة، أيقظوها من سبات عميق طويل، أعادوا لها وحدة ولحمة، بعد فرقة، شتات، وعزلة.

مر كالعادة قبل موعد أذان صلاة الظهر في طريقه للمسجد على شلته النهارية، ثلاثتهم موجودون وأمامهم كاسات شاي أخضر هذه المرة، ناولوه كأساً قبل أن يجلس على كرسي الحديد، محبوبه الوحيد وعدوه اللدود في آن واحد، مازحهم قائلاً:

(يا أيها الخسائر جالسون آخر جلسة، آخر طراوة، ترشفون كالسلاطين والعمد شأياً أخضراً، والشهداء يتساقطون كأوراق شجر في شتاء شوارع وساحات مدينتكم الفاضلة، عيب، والله عيب عليكم، وعلى شنباتكم، وذقونكم).

رد الزعيم بحق:

(خلينا، نحن انتهينا، شوف غيرنا، فات فينا الفوات، وإنت في رأسك ريشة؟ ألبس لبس خمسة، توكل على الله، وأخرج للجهد في سبيل الحرية).

رد أبو العباس متسائلاً:

(أها يا رجال رأيكم شنو في الطوارئ؟ النظام مزنوق زنقة فأر في مصيدة، الحلول الأمنية كملت، كملوها طب، أها البلد تمشي كيف؟ بالنهار واقفة، وبالليل ح تقيف، العساكر ديل يدوهم حقهم من وين؟ نسيت، الله يلعن الشيطان، رب، رب موجودة، ورق في، مطابع عملة في، أطبع ورس القروش للسقف رس).

رد شيخ العرب بخبث:

(يا ناس هوي، المدينة حارة منو البشيله مني، ما نتفع أبداً، (المَحْرَش ما بقاتل)، (الروح غالية)).

رد أبو العباس بنبرة هادئة:

(يا شيخ العرب كبير مخك شوية، أفهم الحاصل، حمارك إذا لم يشرب مويه ويأكل برسيم وقش، يقدر على جر عربية الكارو؟).

رد شيخ العرب بنبرته التي لا تخلو من لف ودوران:

(إذا قصرت أنا، ممكن يمشي يشرب ويأكل في أي مكان ثاني، أرض الله واسعة والخير باسط).

استطرد أبو العباس متعجبا:

(يا شنبيو حكايتك عجيبه، أنت الظاهر عليك بعد ما ترجع البيت، ناس تقعد بس بيرمجوك يعملوا ليك دروس خصوصية ونحن ما جائبين خبر؟ خطير والله، خطير يا شيخ العرب، إنت مهندس كبير).

رد بخبث:

(شوف أنا صُح أمي، لكن الأمية حقتي بفهم ماها ساكت، (ال ما يأكل بيده ما يشبع)).

رد الزعيم بلهجة لا تخلو من استهجان:

(كلامك كله خارم بارم، ندخل ليك من هنا، تطلع ليينا من هناك، يا راجل لي متين الغباء يعمي عيونك؟).

رد شيخ العرب مزهوا:

(هوي والله ما تعرفوني، أنا أمي ساكت، لكن مسلط، ماني هين، اسمعوا:

(فيك الدم والدخان وقف عسلاقة

المأك فايق الضاقت عليه

والصقار شبع من دم الرجال لا الناقة)).

رد الأستاذ متعجبا:

(يا أخوانا الزول ده مصيبة، لو اتعلم لخرب البلد، يسوطها من فوق لي تحت، الحمد لله ربنا كفانا شره وطلع أمي).

رد شيخ العرب بنبرته الماكرة:

(أنا زول عربي ساكت ما فاهم حاجة، لكن دَقَّ السَّرَجِ يجبر الحمار على التفكير).

وبينما شيخ العرب يتحفهم بحكمه الشعبية التي يتعجبون من أين يأتي بها، ومن ذاكرته القوية التي لا تفوت عليها فائتة، وإذ بصوت الإقامة يستعجلهم للصلاة، هرولوا مسرعين نحو المسجد تاركين أبو العباس من خلفهم، قال الأستاذ:

(يا عزيزي الزعيم أنا والله خائف على ثورتنا وثارنا).

رد قائلا:

(عليك بالدعاء، لا تترك الدعاء، وماذا بيدنا غير الدعاء، والله يولي من يصلح).

أي كوز ندوسه دوس

لغةً تعريف ومعنى، في (معجم المعاني الجامع) كوز (اسم)، مصدر (كاز)، الجمع أكواز وكيزان، والكوز: إناءٌ بعروة من فخار أو غيره، له أذن يشرب فيه أو يصب فيه، واصطلاحاً أطلق على جماعة الإخوان المسلمين السياسية في بلادنا، ويقال إنه في ندوة صاحبة بجامعة الخرطوم فجأة صرخ أحدهم: (الدين بحر ونحن له كيزان)، ومنذ تلك اللحظة أطلقت عليهم هذه الكلمة.

جاء شعار (أي كوز ندوسه دوس) كرد فعل على ما تقوم به قوات النظام الأمنية من دوس بعنف، بلا رحمة، أو إنسانية، أو وازع من أخلاق، أو دين، دوس على متظاهرين بسيارات تاتشر، دوس على رؤوس متظاهرين ببولت عسكري، دوس على كرامة متظاهرين بسحل وشم وضرب، ومن ثم تتويج ممارساتهم الهمجية الوحشية التي لا يرتضيها عرف، ولا قانون، ولا دين، بالخازوق، الذي كان يستخدم في القرون الوسطى، كأداة من أدوات تعذيب عتاة المجرمين.

بعض الموالين للنظام منطلقين من إحساسهم بكبرياء، واستعلاء على الناس، يرون في هذا الشعار نوعاً من استخفاف بهم، وبقوة عظيمة مادية ومالية لهم، قادرة على ردة فعل قوية، وعلى رد الصاع صاعين، وعلى بتر أي يد تمتد إليهم، وعلى قطع أي لسان يلسن عليهم، يقولون بكل وقاحة لمتظاهرين يعدونهم من المارقين: (لوح

بيدك، ولا تنس، أن تحمل بيدك الأخرى كفنك)، يرون في هذه العبارة الصادمة، التي ابتدعتها عبقرية شعبية ثورية خلاقية، إهانة لكرامة، ولقائمات سامقة، اجتماعية، اقتصادية، وسياسية، خصوصاً وأن هذا الشعار يصدر من أدنى لأعلى، متناسين أن هذا الأدنى مسحوا بكرامته الأرض، وعروه ملط، وما عاد يعرف أن في القاموس كلمة اسمها (كرامة).

هناك ثوار ينطلقون من إحساسٍ بأنه قد يكون من بين أتباع النظام من لهم ضمير حي، ووازع ديني وأخلاقي، قد يدفعهم للخروج من ظلم جماعة متنفذة عليا، إلى رحمة جماعة لا سلطان لها أخرى، انسلخت ونأت بنفسها عن لعب بنار، لأن الحريق إذا ما شب لن يترك غالباً أو مغلوباً، الجميع يروحون في ستين ألف داهية.

كل ما شهد به (عراب النظام) من سوءات، وجرائم، وإخفاقات، موجودة ضمن وثائق تسجيلية محفوظة لقناة الجزيرة (شاهد على العصر)، وكل ما شهد به كوكبة من مفكري النظام من البون الشاسع، بين تنظير وتطبيق للمشروع الإسلامي تحت ظل هذا النظام موثق وموجود، نموذجهم أصبح يدرس ضمن المناهج في بعض الدول كنموذج فاشل لإسلام سياسي، المؤشرات العالمية، وتقارير المراجع العام، وتصريحات المسؤولين الحكوميين، ومجالس المدينة تتحدث عن معدلات فساد يشيب لها الولدان. أما على مستوى المواطن الطيب، مسكين، مطحون، مسحوق، غُيب وعيه وخُدر طوال ثلاثين سنة بخطاب ديني، وبحفنة من مشروعات تنمية ممولة بقروض خارجية، وبتوفير أمن زائف، مع جهل ونظام تعليمي منهار متحيز لأغنياء، شهادات جامعية تمنح أحيانا لمن لا يستحقون، شهادات فوق جامعية ما

عادت جديرة بتوقير واحترام لأنها حامت حولها شبهات، بطالة بسبب عدم عدالة، محسوبة، تمكين، جوع، سوء تغذية، مرض، نظام صحي فاسد، المقتدرون يتعالجون والفقراء يموتون لارتفاع تكلفة العلاج وارتفاع سعر الدواء وندرته، الشعب فاقد للأمل في حياة كريمة، الأدهى والأمر يأتي منهم من يقول إنهم لم يفعلوا شيئاً يخجلون عليه، فعلاً (الإختشوا ماتوا).

التأم شمل الثلة الثورية في يوم جديد من أيام ثورة سلمية بيضاء مباركة، هذه الثورة التي التف حولها الشعب باستثناء أهل النظام، والمتحالفون معهم، والطفيليون أهل المصالح؛ من التف حول الثورة التف لأنها وسيلته الوحيدة المتاحة لتحرير بلده المختطف بأيدي فئة قليلة، أفقرته، أفقرت شعبه، وتمتعت بخيراته لثلاثين سنة عجاف، ومن وقف ضد الثورة، وقف لأنهم لا يختلفون عن البعوض، يمصون دم الناس ليعيشوا في بحبوحة، والسؤال الذي يواجه الثوار، هل يستأصلون البعوض أولاً أم يجففون المستنقع؟ والإجابة أن يفعلوا الاثنين معاً.

إلى متى يظل الأعمى على عماه، متى يدخل نور البصيرة إلى هذه القلوب التي أعماها متاع الحياة الدنيا فأدمنت غشاً وخداعاً، تدبير مؤامرات، وصيد جائر وممنوع في محميات مالية، ناسين متناسين أن لكل أجل كتاب، وأن حساب الله لا مفر منه، والعمر محدود وإن طال، «إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون» صدق الله العظيم.

هذه المرة خالف الأستاذ السنة، ابتدر الكلام بدلا عن أميرو قائلًا:

(والله حيرونا، واحدين منهم زعلانين قالوا كيف تقولوا أي كوز ندوسه دوس، اعتبروها نوع من المسخرة وقلة الأدب).

رد تفتيس ساخرا:

(يا خوي عمرك سمعت بعيد تطاول على سيده، ما علينا إلا أن نقول سمعا وطاعة، فضلهم علينا كثير، كفاية علينا نعمة الأمن، لولاهم لأكلتنا جردان، كلاب، وذئب، لولاهم للجأنا إلى دول الجوار، تستجدي الملبس، والمشرب، والمطعم).

رد الأستاذ باستهجان:

(سبحان الله، يعطون أنفسهم الحق في وصف الآخرين بأبشع الصفات، ويمنعونهم أن يصفوهم بكلمة نابية واحدة، لا تنسوا اثنان يرتعدان خيفة من يقظة النائم، اللص والحاكم).

رد عدولة بحنق:

(قربت، قربت، دنا قطافها، الدين عدل، والعدل لا يتحقق مع هوى، عنصرية، محسوبية، واسطة، رشوة، وفساد مالي، كل هذه البلاوي أدت إلى ظهور نخبة، نخبة تتحكم في مال شعب، في رقاب شعب، تدوسه دوس).

رد شنو بمرارة:

(داسونا حتى طلعا زيت، مشونا على حديدة، تفتح خشمك يملوه تراب، تقول سيك ميك يشنقوك، عجبك، عجبك، ما عجبك طق رأسك في حيطه، سبحان مغير الأحوال، قالوا زعلانين، زعلانين على كلام لا يقدم ولا يؤخر، نحن زعلانين على بطش، وذل، وامتهان كرامة ثلاثين سنة).

رد أبو علي بأسف:

(بلد، مخافة الله بح، أمن واستخبار، داسونا كحشرات تافهة، لا حقوق إنسان، لا حريات، ولا حق كلام، وجيوبنا بح فاضية).

رد وليد بمرارة:

(العياذ بالله، أخلاق الناس انهارت، مخدرات، غسيل أموال، نهب، إيدز، اعتداء جنسي على شُفع وشافعات، أولاد شوارع، أولاد سفاح، وطبعاً أي انهيار اقتصادي هو قاطرة لانهيار اجتماعي، وجهان لعملة واحدة، اثنان طبقة فاحشة الثراء، وطبقة فاحشة الفقر هم أكثر عرضة لهذا الانهيار، داسونا دوس، ومطلوب منا بالمقابل أن نقول لهم: (شكراً يا سادة دوسوا، دوسونا أكثر يا طوال العمر)).

رد الأستاذ بحزن:

(يا أخوانا الأمر أكبر مما تتخيلون، تجربة كارثية، حكم استبدادي شمولي، يرقص على قمته رجل واحد، يصر على حكمنا مدى الحياة، رغما عن كل تدهور، انهيار، وفساد، داسونا متناسين أن للدوس حدود، واستكثروا علينا أن نتأوه ونعيط (كفاية دوس)).

رد عدولة بضيق:

(قربت، قربت، دنا قطافها، يا أخوانا ماذا تتوقعون من مستجد، مستجد نعمة، متعجرف، متكبر، مال وسلطة؟ هل تتوقعون تصرفاً حضارياً منه؟ لا يمكن، فاقد الشيء لا يعطيه، مركب نقصه، أن يدوسك عملياً، ولا يقبل أن تدوسه لفظياً، المسألة فيها جرح لكبرياء، وخدش لمكانة اجتماعية).

رد وليد بعد أن تألقت عيناه بنور خاطف:

(يا أخوانا أنا شائف الحكاية دي فيها إنّ، الجماعة ديل خطرين جدا، يضخموا عبارة (ندوسه دوس) ليثبتوا عدم سلمية الحراك، وأن المتظاهرين مجموعة من راع صعاليك).

رد أبو علي متأففاً:

(أعوذ بالله، يقتلون القتل ويمشون في جنازته، قالوا ما عملوا حاجة غلط يخلجوا عليها، شنو فضل ما عملوه، إما فيهم وإما فينا حاجة غلط).

رد تفتيس بحدّة:

(كلنا غلط في غلط، في هذه الأيام، حرامي يدس يده في جيبك، تمسك يده جوه جيبك، ينكرها، يغالطك، ويضاربك، ويمشي معاك القسم، ويغلطوك كمان، قوانين البلد تحمي الحرامية، الجاني نظيف والمجني عليه وسخان، الحرامي عينه قوية، يقلع حقاك، يشرط بطنك، شيل شيلتك).

رد الأستاذ بنبرة هادئة:

(يا أخوانا إذا هم زعلانين، من مظاهرات، وتسقط بس، وندوسه دوس، نقول ليهم حينما يتوقف لص عن سرقة، وكلاب عن نبيح، تتوقف المقاومة).

رد أميرو قائلاً:

(نتيجة هذه التجربة المريرة، لا يصلح لنا إلا حكم مدني، ديموقراطي، قائم على تعددية سياسية، المواطنة هي أساس لحریات وواجبات، تحت ظل حكم مدني ما في حد يقدر يدوس حد، خلاص تخرج هذه الكلمة البغيضة من قاموسنا إلى الأبد).

رد الأستاذ بنبرة قوية:

(يا أخوانا الناس ديل عائشين الآن في برجله، بهدلة، ولخبطة شديدة، الضغوط عليهم تزيد في كل لحظة، مشاكل البلد تزيد، الكراهية تزيد، حلول أمنية فاشلة، بالمقابل تجمع المهنيين في مركز قوي، قوة المظاهرات تزيد قوته قوة).

صمت لفترة، مر أمام عينيه شريط لمشاهد أهل النظام وهم يأتون في سيارات فارهات إلى اجتماعاتهم، احتفالاتهم، ومؤتمراتهم، يرفلون في نعمة، جيب ناصعة بياض، عمم مطرزة أطراف، وشالات تغطي أكتاف، طواويس بشرية تتحرك، ثم تلت وتعجن، تهلل وتكبر، ترقص رقصة العرضة رمز الشجاعة، قوة، فتونة، وهيمنة، يظنون أن شعبهم عبيدهم ينظرون إليهم بعيون تجلة، تقدير، واحترام. كيف لا ينظرون إليها هكذا نظرة وهم يريقون دمهم، عرقهم، ودمعهم، يسهرون الليالي، يتعبون ويشقون، يشحدون بنات أفكارهم من أجل أن يوفروا لهم عيشة رغيدة سعيدة.

قال في نفسه سنة الحياة لن تتغير لأجل إسلامي، علماني، أو ملحد؛ وما أمعن قوم في ظلم، وأكل أموال الناس بباطل، واستهتار بروح بشرية، إلا وأتاهم أمر الله من حيث لا يحتسبون. ولنا في رسولنا الكريم وأصحابه أسوة حسنة، ما كانوا يعيشون في ترف وباقي المسلمين في مسغبة، وما غاندي ومانديلا عنا ببعيد، ما كانوا يعيشون في قصور الشوق وباقي شعبهم في بيوت القش والصفوح، ثم استطرد قائلاً:

(أها يا أيها الثوار حينما يكبس النوم يحرمانا من حكايات شهرزاد التي تتلج صدور، تحي أمل، وترفع معنويات هابطة، ولا نامت أعين الجبناء، وسكتت شهرزاد الثورة عن الكلام المباح، والصبح رباح، وتصبحون على خير، وثورة حتى النصر، وتسقط بس).

قضى ليلته تلك وهو يحاول أن يربط بين خيوط الأشياء، أن يربط بين شعاري (أي كوز ندوسه دوس) و (تسقط بس)، الأولى تعبر عن مدى قوة شحنات سخط وغضب تجاه نظام جائر حاكم، تغلي، تفور، وتمور، داخل نفوس جماهير ثائرة، والثانية تعبر عن إصرار على إسقاط هذا النظام، مهما كلف ذلك من تضحيات جسام وغير جسام، المهم عندهم أن يذهب غير مأسوف عليه إلى مزبلة التاريخ، لن يذكرونه ذات يوم بخير أبدا.

أشرفت الشمس، وجاء النهار، وتواترت الأخبار، المد الثوري في ازدياد، في كل يوم تكسب الثورة أرضاً جديدة، وفي كل يوم يخسر النظام أهلية البقاء، لأنه يتخبط ويرتكب أخطاءً قاتلة، حلولة الأمنية ما عادت تجدي، الثوار كسروا حاجز الخوف، يتفنونون وبيدعون، في كل يوم يفاجئونه بتكتيكات جديدة، وهو متفوق في مكانه، متخندق في غيه، جهله، وعنفه، لم يرق بتفكيره إلى درجة تجعله يفهم الأمور على حقيقتها، ليصل إلى حقيقة دامغة، أن مطلب الجماهير الثائرة ثابت لا يتغير، حرية، ثم حرية، ولا شيء غير الحرية.

نظر في خارطة شباب بلاده، هنا في الداخل وهناك في الخارج، شكر الله على نعمائه التي لا تحصى ولا تعد، هناك شباب ثائرون، لا يرضون بدنية، مسلحون بعلم ومعرفة تكنولوجية حديثة، وهنا شباب ثائرون، ينفجرون حماسة، قوة، وفتوة، تحسر على هذه القوة الشبابية

الهائلة التي لم تجد من يستثمرها لمصلحة شعب مكسور الجناح، لا يقدر على طيران، تركوها كماً مهملاً لمدة ثلاثين سنة، لم يحاولوا توجيهها نحو بناء وتعمير، وإنما تركوها نهبا لياس، وهجرة، بل وجنون.

مر كعادته قبل موعد آذان صلاة الظهر في طريقه للمسجد على شلته النهارية. ثلاثتهم موجودون صامتون كأنما على رؤوسهم ينقر ويزق الطير، بعد أن حياهم جلس على كرسيه الحديدي الوكر المهجور، مازحهم قائلاً:

(يا عجائز دي نفس قعدة أمس، ما عندكم بيوت؟ الظاهر طول الليل وأنتم هنا، تخططون لندوسوا كيزاناً دوس، وتسقطوا نظاماً تلتخ بدماء أبرياء).

رد الزعيم بحزم وصرامة:

((أي كوز ندوسه دوس) دي حارقاهم حرقة شديدة، ما متصورين يجيء يوم يتعرضون فيه لمثل هذه الإهانة، متناسين أن من يهين عشرة درجات يهان مائة درجة، الصاع صاعين، القوة لوحدها لا تحمي، القوة تحتاج إلى عوامل مساعدة، عدل، حسن إدارة، وشفافية).
رد أبو العباس متحسراً:

(داسونا ثلاثين سنة، فعلوا فينا كل ما لا يرضي الله ورسوله، وزعلانين من أربعة كلمات لا تسمن ولا تغني من جوع، هم أشراف، أسياد، وفي نفس الوقت بلطجية، يفعلون ما يحلو لهم، هم فوق المساءلة، فوق القانون، وفوق الناس، وعشان جملة واحدة يقوموا الدنيا وما يقعدوها، الناس قالوها (أي كوز ندوسه دوس)، وأعلى ما في خيلهم يركبوه).

رد الأستاذ متحسرا:

(ثلاثون سنة، جعلت كل هر يحكي صولة الأسد، جند الوطن تحولوا
من حماية حدود إلى حماية لصوص، ضاع كل جميل من أيدي الناس،
وقبضوا مكانها حسرة، ندامة، عويل وبكاء على لبن انسكب، آه
الصيف ضيعنا اللبن، حلياك يا أبا عاج يا دراج المحن).

رد شنيبو بخبثه المعهود:

(يا ناس هوي، أنا عربي، أمي، يتيم، وقصير، وكلام القصير ما
تسمعه، القرية المخرومة لا تمسك مويه).

رد الأستاذ بنبرة لا تخلو من لوم:

(يا شيخ العرب، بعد كلامنا ده كله، عندك لسه باقي كلام فاضي، لا
يقدم لا يؤخر، يعني دربك الأعوج الماسك فيه ده ما تختاه أبدا).

رد قائلا بنبرة لا تخلو من جسارة:

(أنا زول أمي لا يودي ولا يجيب، لكن ماني ساكت ليكم أبدا، تحلبوها
تصروها أنتم أحرار، وما على الرسول إلا البلاغ المبين (والشريف
شوي)، وإذا أنا أمير وإنت أمير منو البسوق الحمير).

رد الزعيم مازحا:

(اليوم عرفنا معلومة جديدة، شيخ العرب شريف من الأشراف، ومنجم
يقرأ المستقبل قراءة جيدة، لا فاضي في وداعية ولا منجماتية).

لا يفوت فرصه، قطب وجهه ورد قائلا:

(أنا طبعا زول أمي ساكت، وماني شريف، وكلامي كلام ساكت،
فهمي قليل وأنتم ناس فاهمين ومتعلمين، أقول ليكم يا عيال هوي

أبعدوا بعيد ما تطلعوا للثعلب في ذيله، تقول سيك سيبك، ميك ميبك
ولسه مُعلق فيك).

وبينما شيخ العرب ينفخ في شنباته متحفزاً لمزيد من الكلام، ويردد
بين لحظة وأخرى:

(أقول ليهم تيس يقولوا أحلبوه، الماعندو كبير يشتريه كبير، ما ناس
بندر، وناس البندر مساكين، لكن لباسهم نظيف، ولسانهم طويل،
يعرفوا يقعدوا الكلام كان بالصيح كان بالكذب).

وإذ بصوت الإقامة لصلاة الظهر يجلس في المكان، هرولوا
مسرعين نحو مسجدهم وهم يرددون في خشوع كل كلمة من كلمات
الإقامة، ويدعون الله أن يكتب ويعجل بالنصر للثوار، ويفت في
عضد المستبدين.

أوامر طوارئ

بعد ثلاثة أيام من إعلان حالة الطوارئ أصدر الرئيس أربعة أوامر طوارئ حظر بموجبها التجمهر، الإضراب، والمواكب غير المرخص بها، ونظم التعامل بالنقد الأجنبي، وخروج الذهب عبر الموانئ والمعابر. بموجب هذا الأمر فوض قواته النظامية السلطات التالية:

أمر طوارئ رقم (١): (دخول أي مباني لتفتيشها أو تفتيش الأشخاص، فرض الرقابة على أي ممتلكات أو أشخاص. الحجز على الأموال أو المحال والسلع والأشياء التي يشتبه بأنها مخالفة للقانون وذلك حتى يتم التحري أو المحاكمة. حظر أو تنظيم حركة الأشخاص أو نشاطهم أو حركة الأشياء أو وسائل النقل والاتصال في أي منطقة أو زمان. اعتقال الأشخاص الذين يشتبه في اشتراكهم في جريمة ذات صلة بالطوارئ. أي سلطات أخرى يراها رئيس الجمهورية ضرورية. الأمر أعطى النائب العام سلطة التقرير بشأن رفع الحصانة عن أي شخص متهم بارتكاب جريمة معاقب عليها بموجب قانون الطوارئ وحماية السلامة العامة لسنة ١٩٩٧م أو اللوائح أو الأوامر الصادرة بموجبه. وينشئ النائب العام نيابات الطوارئ وإصدار القواعد التي تنظم إجراءات التحري والتحقيق والاستئناف).

أمر طوارئ رقم (٢): (يحظر التجمهر والتجمع والمواكب غير المرخص بها. يحظر قفل الطرق العامة وإعاقة حركة سير المواطنين ووسائل النقل. يحظر التقليل من هيبة الدولة وأي رمز من رموز سيادتها أو أي من أجهزتها أو العاملين بها بأي وسيلة أو نقل. يحظر

الإضرابات والتوقف عن العمل أو الخدمة أو تعطيل المرافق العامة. يحظر التعدي على الممتلكات العامة والخاصة والتخريب وترويع المواطنين والإخلال بالأمن والسلامة العامة. يحظر إقامة الندوات والتجمعات والفعاليات المختلفة والأنشطة إلا بإذن من السلطة المختصة. يحظر إعداد أو نشر أو تداول الأخبار التي تضر بالدولة أو المواطنين أو تدعو لتقويض النظام الدستوري القائم أو بث روح الكراهية أو العنصرية أو التفرقة بأي وسيلة من وسائل النشر المرئي أو المسموع أو المقروء أو أي وسيلة من وسائل التواصل الاجتماعي. يحظر إعداد أو نشر المعلومات والصور والوثائق والمستندات الشخصية الخاصة بأي شخص يشغل وظيفة عامة أو أسرته. يحظر مقاومة السلطات المختصة أو رفض الانصياع لما تصدره من أوامر أو توجيهات. يحظر التجوال في المواعيد المحددة للحظر بواسطة السلطة المختصة. يحظر نشر المعلومات أو التحقيقات في الدعاوي الجنائية دون إذن النيابة العامة. وكل من يخالف هذا الأمر عن طريق ارتكاب الفعل أو التحريض أو المقاومة أو التداول يعاقب بالإضافة لأي عقوبة منصوص عليها في أي قانون آخر بالآتي: السجن مدة لا تزيد عن عشرة سنوات والغرامة. مصادرة الوسيلة أو المال المستخدم في ارتكاب أي فعل محظور بموجب هذا الأمر.

أمر رقم (٣): خاص بتنظيم التعامل في النقد الأجنبي وتحديد ضوابط خروج النقد والذهب عبر الموانئ والمعابر.

أمر رقم (٤): خاص بحظر توزيع وتخزين وبيع ونقل المحروقات والسلع المدعومة خارج القنوات الرسمية.

كما أجرى تعديلات في صفوف كبار قادة الجيش وفق ما أعلنت وزارة الدفاع. ووفقاً لما قالت بعض التقارير الإعلامية تشير هذه التعديلات إلى خشيته من وقوع انشقاقات في الجيش مع استمرار

الضغوط الشعبية والدولية، وأن المرحلة التي تمر بها البلاد خطيرة وتستدعي مثل هذه الإجراءات، أو لأنه مصاب بالرعب من جهة الجيش. ولكن الجزئية المحيرة في هذه التعديلات استدعاء بعض الضباط من التقاعد وترقيتهم، ومن ثم إحالتهم مباشرة مرة أخرى للتقاعد.

اليوم التالي لإعلان الطوارئ شهد وقفات احتجاجية في المستشفيات، وبعض المؤسسات الخاصة، ومظاهرات في بعض الجامعات الخاصة، وسوق أم درمان، والمستشفى الدولي، كرد فعل على قتل الأطفال الذي ارتكبه جهة أمنية بأحد أحياء الخرطوم، وكذلك شهد مظاهرات ليلية في بعض أحياء العاصمة، مما يعني أن الشعب قد فاض به الكيل، وردة على ريسه، أن قراراته لم تعد تعنيهم في شيء، وأحرى به أن يُموصَّها ويشربها.

التأم شمل الشلة الثورية في يوم جديد من أيام ثورتهم السلمية الماضية إلى غاياتها، أدهشت العالم شكلا وجوها، ثوار ينادون بحرية وكرامة، يرفعون سلمية راية، في سبيلها يُقتلون، يُقطعون إربا، إربا، يُسحقون، يُسحلون، تُفَقَأُ أعين، تقطع أذن، يُعقلون، يُعذبون، يُضربون، ولكنهم لم يستكينوا أبدا، يخرجون من معتقلات، يعودون مرة أخرى إليها، بأسرع ما يكون، قلوبهم ساحات مظاهرات واعتصام، رغما عن شعورهم بألم عميق، أن جلادهم من أبناء جلدتهم، وبغضهم لهم، لفجورهم في الخصومة، بفعل كل منكر وخبيث، لم يلجؤوا لأساليب عنف مضاد، وهم يعلمون أنهم قادرون عليه، الكثرة تغلب الشجاعة، والخاسر في النهاية الوطن برمته، والنظام (يا نحن فيها يا نجيب عاليها واطيها).

إلى متى كل هذا، غباء، مكر، صلف، وجبروت، أرض تهتز بقوة من تحتهم، بساط ينسحب من تحت أقدامهم، شعب هذه المرة ليس هو الذي هب في مرات سابقات، ظلم تخطى كل خطوط حمر، فساد عم بر وبحر، دولة ضاعت وعليها العوض؛ تواتر الأحداث يقول إن الشعب مصمم هذه المرة ولن يردعه رادع، وأنه لن يعود للوراء، ولن يرضى بنصف أو ربع ثورة، وأن ثلاثين سنة من ضنك، عذاب، ومهانة، قوت شوكته، وحدته، وحقنته بكل أمصال وعي ومفهومية واقية.

ابتدر تفتيس الكلام ساخطا:

(يا أخوانا التاريخ يعيد نفسه، ما حصل في سبتمبر يعيدونه اليوم، بالقانون، يحق لهم دخول أي مباني، تفتيشها، وتفتيش الأشخاص، أما هم، يقولوه صراحة طز في القانون وأهل القانون ويطالبون الآخرين باحترامه، وهل هناك قانون يعطي حقاً للحرامية وغير الحرامية لتسور بيوت الناس؟).

رد أميرو في حيرة:

(يا أخوانا ده حكم القوي على الضعيف، حكم قراقوش، لكن ده كان زمان، المعادلة تغيرت الآن، الشعب أقوى وهم أضعف، قدموا تنازلات تلو تنازلات، الشعب سادي دي بطينة ودي بعجينة، فرضوا رقابة على الممتلكات والأشخاص، من هم أصحاب الممتلكات؟ إنهم الذين نشفوا البلد من خيراتها، الشعب كله تحت الرقابة من زمان، شعب جائع، لا لاقى أكل، ولا حرية).

رد عدولة ساخرا:

(قربت، قربت، دنا قظافها، حيرونا، والله حيرونا، ديل ما عائشين
معانا؟ الحجز على الأموال، أو المحال، أو السلع، أو الأشياء التي
يشتبه بأنها موضوع مخالفة للقانون، وذلك حتى يتم التحري أو
المحاكمة، يا أخوانا دي زكرتني حكاية الراعي الغشيم، حرس غنمه
لذئب، وحط نعاله تحت رأسه ونام، لما صحي من نومه لا وجد الذئب
ولا الغنم).

رد شنو ساخطا:

(قلت شنو، يا ولد يا خطير، ذئب وغنم، زمنا ده، إذا لم تكن ذئبا أكلتك
الذئاب، حظروا الإضراب، والتوقف عن العمل أو الخدمة، وتعطيل
المرافق العامة، ده كلام ده، أين النقابات التي كانت تهز الأرض تحت
الحكومات؟ نقاباتهم، برلماناتهم، مجالسهم، كلها معينة ومضروبة،
موظفون ليس إلا، منفذون للأوامر ليس إلا، يأخذون أتعابهم على
دائرة المليم ليس إلا، وليذهب الشعب إلى الجحيم ليس إلا).

رد وليد بمرارة:

(سبحان الله، حظروا التعدي على الممتلكات العامة والخاصة،
والتخريب، وترويع المواطنين، والإخلال بالأمن والسلامة العامة، يا
أخوانا جيبوا الحبال، ربطوني أنا جنيت، من الذي يتفنن في فعل
المصائب؟ المتظاهرون السلميون، أم المسعورون الذين يفتكون بكل
شيء، لا عندهم حرمة لمسجد، بيت، أو مواطن، شعارهم المرفوع
(أي جرد وجرذة ندوسه دوس)).

رد الأستاذ بهدوء لا يخلو من تحد:

(الله، الله، خلاص فكت منهم، حظروا إعداد، أو نشر، أو تداول الأخبار التي تضر بالدولة أو المواطنين، أو تدعو لتقويض النظام الدستوري القائم، أو بث روح الكراهية، أو العنصرية، أو التفرقة، بأي وسيلة من وسائل النشر المرئي، أو المسموع، أو المقروء، أو أي وسيلة من وسائل التواصل الاجتماعي؛ الشعب يتحدى كل ما يأتي منهم، وسائل التواصل الاجتماعي خرجت عن سيطرتهم، فالقين رؤوس الناس بكذبة اسمها نظام دستوري، يا سلام، النظام لا يحترم دستوره الذي وضعه على كيفة، يريدون تعديل الدستور والتمديد لريسهم ليحكم مدى الحياة، السادة سادة، والعبيد عبيد، من الذي أدخل الكراهية والعنصرية؟ الدنيا لن تمشي كما يحبون، هيهات، الشعب خلاص قرف، ومش عانز يشوف وجوهاً كالحة بعد اليوم).

رد أبو علي متبرما:

(ده كلام يا أخوانا، الفات كوم والجائي كوم، حظروا إعداد، أو نشر المعلومات، والصور، والوثائق، والمستندات الشخصية، الخاصة بأي شخص يشغل وظيفة عامة أو أسرته؛ القصة مش بلد أو أمن قومي، القصة أمن شخصي، تقديس، تهبش أي واحد منهم استعد لقطع الرقبة).

رد عدولة في نبرة لا تخلو من تحد:

(حكايتهم خربت خالص، أحسبوها معي، حظروا كم حاجة، مقاومة السلطات، رفض الانصياع للأوامر والتوجيهات، التجوال في المواعيد المحددة للحظر، نشر المعلومات أو التحقيقات في الدعاوي الجنائية دون إذن النيابة العامة، كل من يخالف هذا الأوامر، يعاقب بالإضافة للعقوبات المنصوص عليها في القانون، بالسجن مدة لا تزيد عن عشرة سنوات والغرامة، وبمصادرة الوسيلة أو المال المستخدم في

ارتكاب المخالفة؛ بالمقابل الشعب يقول: خلاص ما ليكم عندنا سمعا لا طاعة، تسقط بس، حراق روح منكم، ما قادرين تصدقوا أنكم في نظر الشعب (جنازة بحر في انتظار الدفن) ، أصبحتم من مخلفات ماضي (سحيق).

رد شنو ضاحكا:

(يا أخوانا أو عاكم تموتوا من الضحك، قالوا تنظيم التعامل في النقد الأجنبي، وتحديد ضوابط خروج النقد والذهب عبر الموانئ والمعابر، على هامان يا فرعون، من يخزن النقد الأجنبي معروف، ومن يحمله عبر المطارات معروف، والذهب من يملك شركاته معروف، اتقوا الله يا فجار).

رد الأمير ساخرا:

(يا أخوانا زدودوا الضحك، حظروا توزيع، وتخزين، وبيع، ونقل المحروقات والسلع المدعومة خارج القنوات الرسمية، حاميتها حراميتها، زمان قالوا باعوا لواحد مغفل السكة حديد، هسي باعوا لنا السكة حديد، النقل النهري، مصفاة الجيلي، والقصر الجمهوري كمان).

رد الأستاذ بإصرار:

(يا أخوانا العبث كثير، التخبط كثير، والعصر كثير، والنظام ضعيف متهالك، والتعديلات جارية في صفوف كبار قادة الجيش، لا ينفع جيش موالي، ولا أحزاب فكة، الشعب خلاص، قال كلمته، انتهى الأمر الذي به يستفتون).

صمت لفترة، مر أمام عينيه شريط لمشاهد مواطنين شرفاء، يعانون ظلم مر تحت قانون جائر، أكثر مما كانوا يعانون من قبل، أجهزة قمعية فاسدة تفحش الآن وبالقانون، شرفاء يقبضون، ينكل بهم على مرأى من الناس، يعتقلون في معتقلات يعافها المجرمون، يشهر

بهم في وسائل إعلام مأجورة، وفاسدون، معززون مكرمون، في كل مكان يصلون ويجولون، وبحديثهم المستفز يتشدقون، ومن فئات موائدهم على الجياع يتكرمون. جوعى في ألم ممض، يتحملون دوساً في صمت، يتحملون ذلاً، ومهانة، في صبر، ولكن!!! للصبر حدود، ولكل أجل كتاب.

قال في نفسه ماذا بعد طوارئ وحظر تجوال؟ لا شيء، خلاص، كل سلاح محرم دولياً استخدم في معركة خاسرة، لم يبق إلا استسلام أو فناء، والاثنتان يحتاجان إلى شجاعة، والشجاعة يمتلكها نظيف يد وعفيف لسان. ثم استطرد قائلاً:

(أها يا إخوتي حينما يهجم النوم تسكت شهرزاد الثورة عن الكلام المباح، والصبح رباح، ولا نامت أعين الجبناء، وتصبحون على خير، وثورة حتى النصر، وتسقط بس).

قضى ليلته تلك وهو يحاول أن يحلل علاقة الارتباط بين (قوانين وأوامر الطوارئ) من جهة و(المظاهرات، والاعتصامات، والحراك الثوري) من جهة ثانية، معلوم أن العلاقة بينهما عكسية، خاف على الثوار، خاف عليهم من انكسار تحت وطأة هجمات، لا محالة ستكون شرسة، عنيفة، ولا إنسانية، ثم طرد الخوف من خاطره، اعتبره هواجس تنتاب كل حريص، لا فكاك منها، إنه على يقين، بعد كل ما رأى من جراءة، ثبات، وبطولة منذ بداية الثورة وحتى الآن، أنه كلما كان منحنى بطش النظام في تصاعد فإن منحنى صمود الثوار يكون في تصاعد بوتيرة أكبر.

أشرقت شمس النهار، تزف البشرية للشعب الثائر أن أصبروا وصابروا وربطوا، النصر قريب، صبر ساعة، ودولة الظلم إلى زوال، معسكر الثورة يتنامى ويزداد، نسوة على باب الله، كن بلف ودوران، يُفَوِّجْنَ كعميز ليذهبن إلى صناديق انتخابات هزلية، عرفن

أن حبل الكذب، والخداع، والنفاق، قصير، حتى الأطفال الصغار أصابتهم عدوى الثورة، خلاص بوعي أو بدون وعي أصبوا ثواراً، أليس لهم أعين يرون بها، وأذان يسمعون بها، والقنوت التلفزيونية، ليل نهار، تعرض لهم ما يجري في شوارع بلدهم من مسخرة لا ترضي عقلاً أو مجنوناً.

خلاص توحد الشعب بجميع فصائله في خندق واحد، عدوهم واحد، هو من ظلمهم، وأذلهم، ونهب مقدرات وطنهم، وتركهم بقايا حطام، ينتظرون عطايا، هبات، صدقات، وزكوات أهل الخير من أمم الأرض، وبلدهم يزخر بما لا عد ولا حصر له من نعم الله ظاهرة وباطنة. بعد ثلاثين سنة تحولوا من أعزاء، يملكون قرارهم بيدهم، إلى متسولين قرارهم بيد آخرين.

مر كعادته قبل موعد آذان صلاة الظهر في طريقه للمسجد على شلته النهارية. ثلاثتهم موجودون صامتون كصمت القبور، بعد أن حياهم جلس على كرسي حديده المنبوذ، منبوذ لأنه لا يحسس براحة وإنما وخز إبر وطعن خناجر، مازحهم قائلاً:
(يا عجائز، يا خارجين على القانون، جالسين في مكان واحد، وقانون الطوارئ يقول ممنوع التجمهر، وأنتم تتجمهرون، تتحدون السلطات، مكالمة واحدة مني، وبعدها خراب بيوتكم).

رد الزعيم غاضباً:

(حظر تجوال مقطع فوق رؤوسهم، كان عندهم رؤوس، شعبههم في حالة عصيان، عصيان ثلاثة أشهر، شهر وراء شهر، يا أخي قول ليهم احترموا نفوسكم، أدونا عرض أكتافكم).

رد شنيبو بخبث:

(يا أخوانا أنا عربي صوح، لكن عندي فهم، ولو إنه ما قدر فهمكم، المثل يقول (ربايتك لوليدك مفتاح وصواميل)).

رد أبو العباس متسائلا:

(يا أخوانا فكوا لينا صواميل كلام شيخ العرب، ما فاهمين حاجة، البلد دي ماشه على وين؟ النظام يدوس جاز، الشعب يدوس جاز أكثر، النظام يرخي، الشعب يدوس جاز، يعلنوا طوارئ، الشعب يلعنها ومن سواها، العالم مذهول، يتساءل هل على ظهر الأرض في هذه الأيام شعب جسور مثل هذا الشعب؟).

أجاب الأستاذ بمرارة:

(فعلوا ما فعلوا بهذا الشعب، والشعب يسمع ويرى، أدلوه، عذبه، أفقره، والشعب صامت، صابر عليهم لعلهم يعودون إلى رشدهم، ولما ينس منهم، رأوا منه ما لا يحتسبون، لن تنفعهم طوارئ، ولا إبادة جماعية، خلاص، ما عليهم إلا أن يتجنبوا غضبة الحليم إذا غضب، ولا راد لقدر الله إلا الله).

رد شنيبو بخبث:

(أسمعوني هوي، أنا عربي ساكت، (القرماد ولا الرقاد)، (والضربة الما تموتني تقويني)).

رد الزعيم مستكرا:

(يا أخوانا الجهل مصيبة، وتبسيط الأمور مصيبة أكبر، كثير من الناس عندهم الحاكم، وشيخ الحلة، وشيخ الطريقة، حاجة كبيرة خالص، ينزلوهم منزلة فوق البشر، نعم، ما قلنا شيء، الاحترام لهم واجب، ولكن في حدود، وبشروط، الحكاية مش مطلوقة ساكت).

رد الزعيم بنبرة متحيرة:

(يا أخوانا، يا هو ده بلدنا، بلد العجائب والغرائب، لو ما كان كده، الجماعة ديل يقدروا يحكموه بالحديد والنار ثلاثين سنة).

رد الأستاذ بمرارة:

(العيب ليس فيهم وإنما فينا، سلمناهم رقابنا وقعدنا نتفرج، نحن نصغر وهم يكبرون وقعدنا نتفرج، يسلون سيوفهم في وجوهنا، وقعدنا نتفرج، زي حكاية التتار، يصلون ويجولون والمسلمون قاعدين يتفرجون، الواحد من التتار يقول للمسلم خلي سيفي يقعد جنبك هنا إلى أن أذهب وأعود، وفعلا الجبان من الخوف يقعد كالحجر، مع أنه يعلم يقينا ما بعد انتظار إلا موت زؤام، يعود صاحب السيف وينفذ فيه حكمه، نحن مثلهم، بعد ما وقعت الفأس في الرأس، جاءت الفكرة، جاءت بعد طول الفرجة، والنومة، والسكره).

ظل شيخ العرب ينفث الهواء من مناخيره كحصان سباق هائج، عبارات الزعيم الأخيرة أغضبته، وقبل أن يترجم غضبه إلى كلام وإذ بصوت الإقامة يجلجل في المكان، هرولوا مسرعين نحو المسجد وتركوه وهو يحاول أن يطفئ نار غضبه بماء الوضوء، ومن أعماق قلوبهم يدعون له الله أن يزيل عنه الغبش والغشاوة، ويزيل عن بلدهم نظام ظلم وفساد.

(١٨)

غليان شعبي

لم تزد قوانين وأوامر الطوارئ الوضع إلا اشتعالاً، ما عاد لجماهير ثائرة أذن تسمع لأي خطاب أو كلام من طرف نظام أسقطوه من حساباتهم، سقط في عرفها ولم تتبق له سوى أيام معدودة، العلاقة طردية بين قمع ظالمين وثورة مظلومين، كلما ازداد القمع كلما ازدادت الثورة، وقمع نظام عجوز مهما تعاضم له حدود والثورة فتية ليس لها حدود. وتيرة الأحداث تصاعدت، الصحفيون والمراسلون ما عادوا قادرين على مواكبة الأحداث من فرط سرعتها، يعني ذلك أن النظام دخل دائرة الخطر، دخل غرفة الإنعاش، يتغذى بمحاليل وريدية، الأطباء يقولون إنه من ناحية سياسية بيولوجية قد انتهى، ولم يبق إلا أمر الله.

الخميس الثامن والعشرون من فبراير، أعلن الحزب الاتحادي الديمقراطي/الميرغني انسحابه من حكومة الوفاق الوطني على كافة المستويات، شملت المظاهرات عدد كبير من أحياء الخرطوم، كما شهدت بعض مستشفيات الخرطوم والأقاليم وقفات احتجاجية من الأطباء، شهدت بعض شركات الأدوية وقفات احتجاجية من الصيادلة، جرت اعتقالات واسعة في صفوف المتظاهرين وتم تقديم بعضهم في اليوم التالي لمحاكم الطوارئ، صدرت أحكام ضد بعضهم تراوحت بين السجن أسبوع وخمس سنوات. بعد هذه المظاهرات والاحتجاجات الكبيرة أشار بعض المحللين إلى أن البلاد مقبلة على ثلاث سيناريوهات لا رابع لها: إما أن يجبر المتظاهرون مع وجود ضغوط خارجية الرئيس على التنحي وتسليم السلطة للجيش، وهذه مستبعدة في ظل

بعض المخاوف الخارجية من النظام البديل القادم. وإما بعد أن يحتد الصراع بين الطرفين ويصل إلى مرحلة قد تجر البلاد إلى الخطر يتدخل الجيش ويجبره على التنحي. وإما أن يصر الرئيس على موقفه وبالتالي تنجر البلاد نحو الفوضى، فوض الرئيس صلاحياته كرئيس لحزبه الحاكم إلى نائبه، طالبت الأزمات الدولية الرئيس بالتنحي.

السبت الثاني من مارس، حاصر الأمن مقر حزب الأمة المعارض لمنع عقد اجتماع للمعارضة، شهد المكان احتجاجات ومظاهرات، أعلن زعيم الحزب رفضه لإعلان حالة الطوارئ، وطالب الرئيس بالتنحي وعدم وضع الجيش في مواجهة الشعب، طالب الحزب الاتحادي الديموقراطي على لسان أمينه العام، الذي كان بالأمس القريب وزيراً لداخلية نظام يسحق المتظاهرين، بحل البرلمان وتعيين جمعية تأسيسية تقوم بوضع دستور دائم للبلاد، وأن يبقى الرئيس رئيساً للبلاد طيلة هذه الفترة الانتقالية، تواصلت المظاهرات الليلية من المحتجين ضد النظام، سربت وسائل الإعلام خبر لقاء مدير مخابرات النظام بمدير الموساد الإسرائيلي في جنيف، وأن مصر، والإمارات، والسعودية، تسعى لاستبدال الرئيس بمدير مخابراته، ادعى النظام أن دولة قطر تسعى لإحداث انشقاقات في صفوف قيادة الدولة.

الثلاثاء الخامس من نفس الشهر، نفذت قطاعات مهنية، وبعض الشركان الخاصة إضراباً عن العمل لمدة يوم واحد استجابةً لدعوة تجمع المهنيين وتحالفات المعارضة، تمهيدا لإضراب شامل وعصيان مدني، شارك أطباء، صيادلة، محامون، وصحفيون، في الإضراب، أغلقت صيدليات، وبعض شركات خاصة، وبعض محال تجارية أبوابها، فيما استمرت مؤسسات حكومية وبنوك تجارية في عملها، خفت حركة المواصلات في الشوارع بشكل واضح، تم إطلاق سراح بعض سجناء الرأي، ومن بينهم رئيس حزب المؤتمر الشعبي

المعارض، استمرار المظاهرات التي تطالب بتتحي الرئيس ونظامه وترتيب انتقال سلس وسلمي للسلطة في دول المهجر، تسليم مذكرة لمحكمة العدل الدولية تطالب بمحاكمة الرئيس.

الأربعاء السادس من نفس الشهر عقد جلسة للمجلس الوطني لمناقشة إعلان حالة الطوارئ، حيث أُرِجى التصويت عليها ليوم الاثنين المقبل.

الخميس السابع من نفس الشهر الدعوة لمظاهرات عارمة باسم مواكب المرأة تنادي بإسقاط النظام رغم سريان قانون الطوارئ، تجددت المظاهرات في عدد من المدن، وبعض أحياء العاصمة القومية، وافقت منسقيه عليا للحوار الوطني تتكون عضويتها من ممثلي الحزب الحاكم والأحزاب الموالية له على قانون الطوارئ، وافقت الأحزاب الموالية عليه كرد لجمائل سابقة في رقيتها لنظام يعيش في محنة وعزلة شعبية.

التأم شمل الشلة الثورية في يوم جديد من أيام ثورة شبابية سلمية، الشباب تركوا كل مشاغل الدنيا من خلفهم، انطلقوا أحراراً في شوارع وأزقة ينشدون حرية لوطن مجروح، يقدمون تضحيات تلو تضحيات، لا يهمهم من يقف معهم أو يقف ضدهم في الداخل أو الخارج، حزموا أمرهم، حددوا أهدافهم، لا بديل عن حرية، كرامة، وعدالة اجتماعية، لا رجعة إلى بيوت أبداً إلا بعد نصر أو فناء، خلاص، غرغرت، بلغت الحلقوم، وطن يتأرجح بين أن يكون أو لا يكون.

إلى متى خداع الناس بشعارات رنانة، طنانة، زائفة، أعمالهم وأفعالهم، يا سبحان الله! ما أنزل الله بها من سلطان، أي شريعة سماوية تلك التي تبيح قتل منظاهرين سلميين يهتفون بحناجر صداحه، ينادون برفع ظلم ومحاربة فساد، تبيح هدر كرامة إنسان، مصادرة كل حقوقه الأساسية، لقلّة أن تحكم كما تشاء، تحويل دولة إلى كانتونات يتحكم فيها قراد نهم، لا يشبع أبداً من مص دماء بسطاء.

ابتدر تفتيس الكلام مبتهجا:

(يا أخوانا الحكاية سخنت، الدنيا ولعت نار، الكلام دخل الحوش، زي ما قال عدولة (قربت، قربت)، دنا قظافها، خلاص، الجُوه جُوه، والبرّه برّه، انسحابات من الحكومة، المركب غرقت، ويا روح ما بعدك روح، النجاة، قبل فوات الأوان).

رد عدولة فرحا:

(دنا قظافها، الحارات كلها ولعت، الحاج يوسف، الثورات، جبره، الصحافات، الجريفات، الكلاكلات، أم بدات، مايو، ما فضل أعمى ولا كسيح، ليل نهار مدورين، ناس أمن وشرطة قالوا: روب، روب، المحتجون يقولون: لا روب، ولا لبن، ولا بطيخ، الشارع بس، وتسقط بس).

رد أمير و ساخرا:

(الحكاية مش مظاهرات وبس، تجمع المهنيين يعملون وفقا لخطط مدروسة، ما في عشوائية، تنظيم دقيق، يعرفون ماذا، ومتى، وكيف يفعلون، أدخلوا فنوناً جديدة في المعركة، دخلوا وقفات احتجاجية في المستشفيات، وشركات الأدوية، ودور الأحزاب، جنوهم جن، مخهم مفتح، والهمج مخهم متربس).

رد شنو مستهزئا:

(فعلا مخهم متربس، يقدمون المتظاهرين لمحاكم طوارئ فورية، كلما زادت أعداد المعتقلين، زادت تكلفة الإنفاق عليهم، صحيح يدفعوهم غرامات مالية، ولكنها ما جانبه حقها، زودت الضغوط الخارجية عليهم أكثر وأكثر).

رد وليد متعجبا:

(يا أخوانا ده كوم، وفي خبر عجيب كوم ثاني، مدير مخابراتهم بجلالة قدره، قالوا قعد مع مدير موساد إسرائيل في سويسرا، يعني في سبيل البقاء مستعدين يقعدوا مع إبليس ذات نفسه).

رد الأستاذ بارتياح:

(ده خبر كويس جدا، فتنة، ربنا يفتنهم ويقلل حجازهم، مدير مخابراتهم ده هو رجل أمريكا، وأمريكا واليهود حاجة واحدة، هياؤه ليكون ريس بلدنا القادم، طموحاته عالية، وما تنسوا له سوابق في تدبير انقلابات، يعني الريس خائف منه خوف عديل، ما منه أمان، حكاية الانقلاب تقوم تطلع في رأسه، يعاود الكرة، والسلطة حلوة وجذابة، وعيال الحرام ناس (المديدة حرقتني منو البشيله مني)، ممن يتقنون الاصطياد في ماء عكر مالين البلد).

رد عدولة بمرارة:

(أحلام ظلوط، إن متنا كلنا، ما فضل فينا ولا واحد على قيد الحياة، لن ترض جماجمنا به حاكما، يا أخوانا المحبة والقبول من عند الله، بعد ما فعل بالناس ما فعل، بدون خجلة يريد أن يحكمهم، سبحان الله، إنا لله وإنا إليه راجعون).

رد أبو علي بحماس:

(يا أخوانا سيبونا منه، خلونا في المفيد المختصر، ثوار الخارج، قلبوا هوبه هناك، معهم خواجات، أفارقة، وعرب، ويلا تسقط بس، هلولة، زيطة، وزمبريطه، وتسقط بس، علمنا رفر فخافا في كل مكان، وتسقط بس، صوت الثورة وصل للخواجات، للمنظمات، للحكومات، وتسقط بس).

رد الأمير مستنكرا:

(بعد ده كله، والبلد يمر بعاصفة، بدون خجلة، المجلس الوطني يمرر حالة الطوارئ بعد تقليصها إلى ستة أشهر، وناس الحوار الوطني، حوار الطرشان، يحذون حذوهم، مسرحية هزلية سمجة).

قال الأستاذ بعد أن تألقت عيناه بنور خاطف:

(الرد عليهم، كان مظاهرات عارمة، سموها موكب المرأة، المرأة الثائرة، الكنداكة، ملكة الزمان الغابر والحاضر، موت وموتوها، بمبان ومسكت ورجعت، ضرب وانضربت، شعرها تاج رأسها وقصوه، ومع كل ذلك، رؤوسهن مرفوعة، فوق في السماء، وهتافهن يدوي في البيوت، في الشوارع، وفي داخل المعتقلات، تسقط بس، تسقط بس).

صمت لفترة، مر أمام عينيه شريط لمشاهد ثوار أشاوس، بأجسام نحيلة تحولت بقدرة قادر إلى عملاقة، تدوس بأقدام حافية تاتشترات بمن فيها، تهتف كرعود وبروق، ترتجف منها خوفا وفزعا قلوب همجية، تتسابق إلى الأمام، تتراجع جحافل الشر إلى الوراء باحثة عن ملجأ وملاذ، هم أصحاب قضية، وهؤلاء قتلة ماجورون.

قال في نفسه العين البصيرة ترى ما لا تراه العين العادية، بإرادة وعزيمة وإصرار، يدنو بعيد ويتبدد مستحيل، خلاص، الطريق أصبح معبدا وسالكا، مواكب الثوار تتدافع للوصول إلى نقطة النهاية، لن يردعها رادع، ولن يوقف زحفها المقدس باطش أو متجبر، أو كتائب ظل، أو نظام هائج في بلد مستودع خزف يحطم فيه كل شيء، خلاص نظام بائد تجاوزه الزمن، أصبح نسيا منسيا.

ثم استطرد قائلاً:

(أها يا ثوار للنوم سلطان، ولأنفسنا حق علينا، وسكنتت شهرزاد الثورة عن الكلام المباح، والصبح رباح، ولا نامت أعين الجبناء، وتصبحون على خير، وثورة حتى النصر، وتسقط بس).

قضى ليلته تلك وهو يحاول أن يحلل أحداثاً تدور بسرعة مذهلة في مدة زمنية وجيزة، انسحابات، مظاهرات ليلية ونهارية، طوارئ، وقاتات احتجاجية، اعتصامات، كأنما الزمن أصبح جند خفي من جند الثورة، لا يعطي النظام فرصة لكي يلتقط أنفاسه ويعيد تنظيم قواه، الثوار ملايين، في حالة ازدياد دائم، لا يعرف فتر وملل إلى همهم سبيلاً، ولا خوف إلى قلوبهم مدخلاً؛ قوات النظام عددها محدود، في تناقص مستمر، أدركوا أنهم مخدوعون مستغلون، وأنهم مجبورون بحكم ظروف معيشية طاحنة، على طاعة أوامر مهيبية، لا يستسيغها أي عقل يميز بين حق وباطل.

أشرقت شمس النهار، هذه المرة أكثر إشراقاً، كأنما تقول للثوار إني معكم أسمع وأرى، بإذن ربي بأشعتي أمدكم بمنعة، قوة، وصمود؛ النهار شمس، الحق شمس، الحرية شمس، كلها شمس ترسل ضيائها لإضاءة حيوات الناس، الثوار في هذه اللحظات، في ميس الحاجة لهذه الأنوار، إنهم يتنفسون منها، يرشفون منها، يطعمون منها، هي كل زادهم في حياتهم، ما أجمل الحياة حينما تكون لأجل أغراض نبيلة سامية، وما أكرم الإنسان حينما يسعى لتحقيق حب، ونام، سلام، وعدالة، بين العباد.

خلاص، النظام تهاوى، انبطح مرات ومرات، ما عادت له بفائدة، ملاً الدنيا زعيقا، نهيقا، وبلطجة، ما أتت له بفائدة، موالو الداخل بدأوا ينفضون من حوله، داعموه بالخارج أداروا له ظهر المجن، يعني في مفيد مختصر ضاقت عليه الحلقات، وربما قططه السمان والنحاف يرتبون أمورهم للقفز (تُلب) من سفينته الغارقة.

مر كالعادة قبل موعد آذان صلاة الظهر في طريقه للمسجد على شلته النهارية. ثلاثتهم موجودون وهم يتضحكون بوجه مستبشرة، بعد أن حياهم جلس لأول مرة على كرسي البلاستيك الأزرق لأن كرسي الحديد تعرض لحادث عرضي وهو في غرفة الحدادة تحت الصيانة، مازحهم قائلاً:

(بشرونا يا عجائز، اليوم معنوياتكم عالية، خلاص الحكاية خلصت، العصابة سقطت).

رد الزعيم ضاحكاً:

(يا أستاذ ما فضل فيها شيء، من الفرحة ما قادرين نقعد، الأولاد الصغار في البيوت، مما تطلع عين الشمس، وهم يغردون مع الطيور تسقط بس، تسقط بس، الحكاية دي وراها سر إلهي).

رد أبو العباس بنبرة واثقة:

(دعوة المظلوم يا حاج ليس بينها وبين السماء حجاب، ثلاثين سنة، خراب، فرعنة، دوس للناس، مهما بلغ بالناس جهل، جبن، وغباء، بعد أن أوصلوهم إلى نقطة لا عودة، لن يصبروا عليهم، بعدها، خلاص، على الباغي تدور الدوائر).

رد شنيبو بخبث:

(أنا ما متعلم مثلكم أنا أمي لكن والله نفهمها وهي طائرة، (عشمكم عشم إبليس في الجنة)، (شهرأ ما عندك ليهو نفقة ما تعد أيامه)).

رد الأستاذ مستنكراً:

(يا أخوانا شيخ العرب ده حكايته شنو؟ (تقعد بس) داخله في رأسه دخلة المسمار في الخشب، مهما فعلوا، في نظره هم على حق، خلاص، أنسوه، اعتبروه فاقد تربوي، فاقد عقل، فاقد إرادة حرة، فاقد أي حاجة وخلص).

رد شنيبو بنبرة لا تخلو من عدم استكانة:

(فعلا أنا فاقد أي حاجة، ما جانب للدنيا خبر، لكن (لا تنتقد كلمات بقولوها فينا)، (يجي الخريف واللوارى بتقيف وتكثر علينا التعاريف).

رد الزعيم في مرارة:

(شيخ العرب ده نوعه كثير، واحد مطرطش يلوي لسانه يقول البديل منو؟ وواحد ثاني يقول ديل ثلاثين سنة خبرة، تكتكة وضبط للأمر، الجن الأحمر ما يقدر يلمسهم، وواحد ثالث يقول أمريكا، وروسيا، والخليج معهم، ظهرهم مؤمن عوجة واحدة ما صانداهم).

رد الأستاذ بنبرة واثقة:

(يا أخوانا من يعدل، يمشي عليه ما مشى على الفاروق، (عدلت فنمت يا عمر نوم قرير العين هانيها)، يحكم إلى ما شاء الله، ومن يظلم لا يتذوق طعم النوم والراحة أبدا، لا يأمن متى، ومن أين تأتيه ضربة ماحقة).

رد شنيبو بلهجة ماكرة:

(أنا زول بادية ساكت، فهمي على قدر حالي، خذوني على قدر عقلي، وكلامي لكم (شراً بيد الرجال عطش)).

ظل شيخ العرب يبرم في شنباته، مزهوا بعبارته الأخيرة التي رماها كالقنبلة وترك الجالسين في حيص بيص يضربون أخماسهم في أسداسهم، وقبل أن يسمع منهم ردا إذ بصوت الإقامة ينبهم للصلاة، هرولوا نحو مسجدهم وتركوا أبو العباس وراءهم يغلق أبواب محله على عجل لكي يتهيأ للصلاة. عبارات شيخ العرب الأخيرة كانت مستفزة بدرجة كبيرة للزعيم، ولذلك ظل يرغي، ويزبد، ويتأفف، ويردد:

(العياذ بالله، إلى متى الغي والضلال، إلى متى العمى، إلى متى الصمم، إنا لله وإنا إليه راجعون).

(١٩)

ميدان بري الدرايسة

الخميس السابع من سبتمبر داهمت كتائب مجهولة، يسمونها الناس كتائب ظل، ارتبطت عندهم بسفك دم، خسة، ووحشية، ميدان بري الدرايسة، ميدان في حي صغير، عريق، وآمن، يقع على الجانب الشرقي من مدينة الخرطوم، تهب عليه نسائم النيل الأزرق باستمرار من جهة الشمال، داهموه، وهم يستعرضون عضلاتهم، وترسانتهم العسكرية، استفزوا مواطنين عزل من خلال مكبر الصوت، بثوا فيديو مصوراً يوثقون فيه احتلالهم للميدان، انتشوا بنصر مزعوم كاذب على سكان حي يسكنه مديون. سبحان الله!! منتشون، مسرورون، في خيلاء يتبجحون، أبطال، وهل الأبطال ينكرون بأبناء جلدتهم؟ أهل بري، الحمد لله، مواطنون شرفاء لم يشتكوا من جوع، سوء تغذية، أو مرض، نشدوا ما هو أسمى من كل ذلك، حرية، عدالة، وكرامة؛ الطرف الآخر، يعتبرهم عبيدا مارقين، ليس لهم إلا الكراج، نعم، غاب أهل الحي العزل عن الميدان، فوتوا عليهم فرصة ذهبية، يدخلون بها تاريخ الحروب من أوسع الأبواب، يطبقون عليهم كل نظريات القمع وفنون القتال التي درسوها نظرياً وتدريبوا عليها عملياً؛ ازدهوا باحتلالهم للميدان واختفاء الجردان، فضيحة مدوية!! قوات مدججة بالسلاح تصارع طواحين هواء، تهزم هزيمة نكراء حفنة مواطنين عزل، بانسحاب وليس بضربة قاضية فنية، السؤال هل هناك أواصر أخوة ودم تربط بين الإثنين؟ أعلنوها على الملأ وبمكبرات الصوت (حضرنا ولم نجدكم يا أهل بري الجبناء)، فضيحة أخرى اضيفت لسجل فضائحهم، رحم الله المعلم الشهيد أحمد خير، سؤالان

محيران أولهما مر، الأول هل يستطيع هؤلاء الأقرام، دخول الحي بدون سلاح، رجل لرجل، مثلما كان يفعل رعاة البقر في الغرب الأمريكي، عندما كانوا يرمون أحزمة مسدساتهم على الأرض، ويتقاتلون بالأيدي، تكافؤ فرص، رغما عن همجيتهم، وحشيتهم، وبريتهم، كانوا رجال، للقتال عندهم مثل، قيم، وأخلاق، الثاني هل فقد النظام عقله، ما عاد يعي ما يفعل وما يقول؟ من هم هؤلاء الذين يديرون شأننا أمنياً لنظام هالك صُنع على وجهه بثلاثة إيدانات دولية في ظرف أسبوع واحد، المضحك المبكي، أن بعض قنوات التلفزيون العالمية تناولت هذا الخبر بشيء من سخرية وتهكم، ولا مناص للشرطة، على أرفع مستوياتها، من أن تتبرأ من هذا الفعل، لأن الجناة كانوا يرتدون زيهم، ليتم حفظوا ما تبقى لهم من كرامة، وتقدموا باستقالاتهم، وهل تعرف الاستقالة إلى من يتقلدون مناصب عليا في أنظمة استبدادية سبيلا؟ والسؤال العبقرى ما زال قائما، من أين أتى هؤلاء؟

التأم شمل شلة الأفس الثوري في اليوم التالي لهذا الحدث المستفز، استفز ملايين الثوار، الذين يشجعون الثورة من منازلهم، يتمنون لها أن يتفجر لهيبها وأوارها، حتى تحقق غاياتها؛ منهم من يجلسون أمام شاشات التلفاز، يكتفون بالمشاهدة، وعيونهم وقلوبهم معها، ومن يتحلقون قدام محال تجارية، أو داخل غرفات البيوت، يتداولون ويتناقلون في شغف أخبارها، منهم عجائز في أرذل العمر لا تقوى سيفانهم على جري، ورناتهم على مسيل دموع، وحناجرهم على هتاف، وبلطجية هُبل لن يرحموهم أبداً إذا ما أمسكوا بتلابيب خناقهم، ومنهم من رزقهُ يوم بيوم، أي غياب له عن العمل، لأي سبب من الأسباب، يعني مسغبة له ولعِياله، ومنهم من ينتظر نزول هذه الملايين

إلى الشوارع، لينضم لحافلهم الهادرة، ينتظرون ذلك اليوم الذي لم يحن وقته بعد، ولكنه أقرب من قريب، وليس ببعيد.

تتحنح أميرو، سلك حنجرته التي صدنت من طول جلوسه لفترة طويلة داخل محله يلحم ويفك ويربط بدون كلام مع آدمي أو شيطان، هتف قائلاً في حسرة مكتومة:

(يا أخوانا ما حصل في بري بالأمس لا يمكن السكوت عليه، تحدي سافر لكل الناس، من الجهتين، (ترحل بس) و (تقعد بس)، بل تحدي للعالم أجمع، تتار مدججين بالسلاح، يمتطون تاتشترات، مشحونين كراهية وحقد، يهاجمون حي سكني آمن، يعيثون في أرضه فساداً).

أطلق فطيس زفرات حرى، مشبعة غبناً وألماً، ورد قائلاً:

(آخ، آخ يا أميرو، عمل مخجل، مقرف، مخزي، أين الوطنية؟ أين الشهامة؟ أين النشامة؟، أين الأخلاق؟ غافلون، أغبياء، جهلاء، هل سمعتم بمجرم، سنة أولى إجرام، يرتكب جريمة، يقوم بتوثيقها صورة وصوت؟ اقتحموا حياً آمناً، أطلقوا رصاصاً عشوائياً على أبواب وحيشان بيوته، ضربوا بسياط سابلة يمشون في شوارع وأزقة، سبوا وشتما بحناجر شيطانية تنقرز منها الحمير، قتلة فاقدو شرف، ينفذون أوامر قادة طائشين، بس القادة، وبس الجنود، القيادة بريئة منهم أجمعين، القيادة حضارة، ثقافة، تربية وطنية حميدة، خلق عظيم، معدن طيب وليست فتونة، وصلكة، وقلة أدب).

عطس وكح عادل عدة كحات، لأن الجو متقلب يوم حار ويوم بارد، ثم رد قائلاً:

(قربت، قربت، دنا قطاقها، والله عار، ما بعده عار، تصرف بليد، أغبياء لا يميزون بين بشر وحيوانات، لا يميزون بين خالة، وعمة، وجدة، وكنداكة، الغباء أحياناً جند من جند الله، غباؤهم يدفع الثوار لأن يأتوا بمعجزات وخوارق، لن يتركوا لهم الشوارع، لن يعودوا لبيوتهم، إلى بعد أن يدوهم عرض أكتافهم النجسة).

رد الأستاذ بمرارة:

(البرابرة، التتار، المغول، واليهود يتأفون من مثل هذه الأفعال، إلى أي عصر هؤلاء ينتمون؟ من أين أتوا؟ يمرطون بالأرض شعباً مسكيناً مضطهداً يدفع لهم مرتباتهم التي يعناشون بها، وهم أكثر مسكناً منه، لأن مرتباتهم لا تكفيهم مؤونة عيالهم خمسة أيام في الشهر، قالوا عندهم بنطلون أخذوه ولازم ناس بري يرجعوه، بنطلون مقطع في وجوههم، البنطلون أعز من النبي آدم؟ البنطلون علم وطن؟ هيئة النظام لا تتحقق إلا برد شرف هذا البنطلون العظيم؟).

انتصب وليد واقفا كمن لدغته عقرب وصاح مغتاضاً:

(اقتحام بيوت آمنة، إهانة رجال بضربهم أمام أسرهم، ضرب فتيات بوحشية، سبهن بألفاظ بذيئة، في الباطن عندهم هذه الأمور رجولة، بطولة، وجسارة، وفي الظاهر يمثلون علينا أنهم رسل محبة وسلام).
وضع أبو علي سعوط كيفة تحت شفة سفلى غليظة، وتنهّد وشهق وزفر ثم قال:

(إن كانت الرجولة هكذا، ملعون أبو الرجولة، أفعال غريبة، يا أخوانا في حاجة غلط، ما قادر أفهم الغلط ده وين، حاجة مش مفهومة، مش ممكن تخش دماغ، مش ممكن عقل يقبلها).

دخل عدولة على الخط وقال:

(قربت، قربت، دنا قطافها، دقيقة يا شباب، أدوني فرصة، مخزون النظام الأخلاقي خلاص نفذ، أوباش، عصابات، مافيا، خلاص تاتشر الشر وقوده كمل، جربوا كل شيء، قتل، سحل، تعذيب، فشلت كلها، الثوار صامدون صمود الجبال، خلاص، علي وعلى أعدائي، يا ظالم ليك يوم، البعيد أصبح قريب).

خرج سولومون من صمته ورد في عبارات سريعة:

(يا أخوانا، الذود عن حياض الوطن، عند الحدود هناك، وليس هنا في بري، زمان كان في واحد شغال ترحيلات في بلدنا، كان يخدع القرويين البسطاء، يشحنهم كالبهائم في اللوري في ظلام الليل الدامس، يأخذ الأجرة منهم مقدما بزعم أن الرحلة نهايتها الخرطوم، ويتحرك بهم اللوري، يخرج خارج المدينة، يلف ويلف بهم في جنح ظلام الليل في الفاضي، ثم يعود بهم من حيث أتى، يفهمهم بأنهم أوصلوهم الخرطوم، وما عليهم إلا أن يرقدوا حتى الصباح لأن أولاد الحرام في المدينة كثيرين، وفي الصباح يكتشفون الخدعة، ولا أثر للمجرمين، ولا للوري، وهؤلاء مثلهم، ربما فهمهم أنهم ذاهبون إلى حلايب، وجابوهم بالليل بري، والله أعلم).

وصلت سيارة كايا بيضاء صغيرة، ترجل منها شنو وهتف في لهفة سائلا:

(السلام عليكم يا جماعة الخير، الأخبار شنو، الجديد شنو؟).

رد تفتيس بابتسامة عريضة:

(سبحان مغير الأحوال، ثورة يعني ثورة، لازم نطبق عليك قانون من أين لك هذا، يمكن تكون انحرفت، أغروك بحاجة كده ولا كده، المعاش جبارة يا زلمبليط، وبعدين تسمع مننا خبر بري الدرايسة).

رد شنو متبرما:

(يا أخي سينا من كلامك الفارغ ده، سيارة واحد صاحبي عيان، قلنا نجر بيها الشارع شوية، هو يتصرف ونحن نتصرف في الأيام السخنة دي، الناس كلها اليوم تسب وتسخط، يقولون بلدنا خلاص ضاعت، عليها العوض، بري في نظرهم حي انفصالي، تحصن بمتاريس، وباتريوت، وقبة حديدية، لازم يتأدب، لازم يعود إلى حظيرة الوطن، أما حلايب وأخواتها، يكتفون بالاحتفاظ بحق الرد على المعتصب في الوقت المناسب، أسد علي وعلى العدو نعمة).

رد تفتيس منهكماً:

(الغريب في الموضوع يا جماعة، الشرطة نفت أي صلة لها بالموضوع، الشينة منكورة، عتادهم شرطة، زيهم شرطة، عرباتهم شرطة، إذن من هم هؤلاء؟ طفح الكيل، كفاية لعب على الدقون، كفاية تضليل، كفاية استخفاف بعقول الناس).

دخل عدولة دخلة ضفاري، هتف بنبرة حادة قانلا:

(قربت، قربت، دنا قطافها، يا أخوانا على من ترمون اللوم؟ كل شيء بين وواضح، حراق روح، خلاص، توقعوا الأسوأ، بلد حظر تجول، بلد حالة طوارئ، بلد في كف عفريت، مع كل هذه التحديات فإن الثورة لم ولن تتوقف، الثوار ألغام تتفجر، عواصف ترابية تخوزق العيون).

رد الأستاذ بصوت خرج من جوف مملوء حزنا وأسى، وبعيون بدأ يدب فيها وسن ونعاس:

(الكلام ليك يا المطير عينيك، ليك يا عدولة، ولأهل بلدنا، أحياء وأموات، شعارات كبيرة كانت ترعب الخواجات، أمريكا دنا عذابها، خبير خبير يا يهود، ذابت طارت في الهواء، تضاءلت انحصرت في بري).

وقف بصعوبة، لأن الجلوس الطويل كلس عظام ظهره وسيقانه، حولها إلى ألواح خشب، ثم استطرد قائلاً: (مع السلامة يا أيها الأحرار، نحن عجائز وقودنا قليل، تصبحوا على خير، وسكنت شهرزاد الثورة عن الكلام المباح، والصبح رباح، ويا عدولة قربت، قربت، ودنا قطاقها، ولا نامت أعين الجبناء، وثورة حتى النصر، وتسقط بس).

صمت لفترة، مر أمام عينيه شريط مشاهد بيوت بري، شوارع ضيقة، أهلها مسالمين طبيين، نسوة يخرجن من بيوتهن صباحاً يودعن صغارهن وهم في طريقهم إلى مدارسهم، يخرجن بعد الضحى إلى أقرب بقالة يحملن أواني فول الفطور، ويجلسن أمام التلفاز بعد المغرب يتجاذبن أطراف الحديث في همومهن الخاصة وهموم بلدهن المنهار، مسالمات حتى النخاع، حولهن النظام بأعمال طائشة إلى ثائرات عظيمات، إلى منارات ثورية يستهدي بها الثوار، إلى شاشة عرض من مقاس كبير، تعكس كل سوءات، وإرهاب، وجرائم استبدادية.

قال في نفسه: (أهل الأرض كلهم يطأطئون رؤوسهم، ينزعون قبعاتهم، عقالاتهم، طواقبهم، عممهم، يلوحون بها احتراماً وتقديراً لسكان حي صغير، لا يربو عددهم عن بضعة ألوف، لأنهم وقفوا وقفة بطولية، ليس لها مثيل، أمام همج، مدججين بسلاح، مبرمجين، لا وازع ديني أو أخلاقي يثنيهم عن اقتحام بيوت أمنة، ضرب شيوخ وعجائز، إطلاق رصاص تخويفاً لأطفال حجارة؛ ومع ذلك صمدوا، لم يركعوا، لم يرفعوا رايةً بيضاء، على عهدهم مع الثورة باقون، مهما طال ليل قهر وظلم، متمسكون للنهاية ب (تسقط بس).

كالعادة قضى الليل قبل أن يدهمه النوم وهو يحاول النباش في الأحداث، بري حي من أحياء الخرطوم، وضع نصب عينيه حقيقة أن أهله متجانسون، مترابطون، ومتداخلون، صلاتهم الأسرية، حميمة، عميقة، وقوية، جذورها تمتد عبر الزمن، نظرية حركة الفراشة تلعب دورها هنا، ما يجري في حي ينداح في سرعة البرق إلى أحياء الأخرى، لأن الناس أصلاً متواصلون، وسائل التواصل الاجتماعي جعلتهم يسكنون بيتاً واحداً، بل غرفة واحدة، نتيجة كل ذلك بدلاً من بري واحدة تحولت كل أحياء العاصمة إلى براري، وصلت الثورة إلى مرحلة متقدمة جداً، همجية، بربرية، ووحشية تحولت إلى وقود يزكي نارها، يزيد من ضرامها، كلما زادت الوحشية توحشاً زادت الثورة اشتعالاً، خلاص، وصلت الأمور نقطة تكسير العظام.

أشرقت شمس النهار، كأنه يراها تسلط أشعتها على حي بري من دون سائر بقاع الأرض، لأنه فعلاً حي يستحق تكريمها، صمود أسطوري، طفلهم شمشون جبار، بنتهم جميلة بوحيرد، صبيهم عمار بن ياسر، شيخهم عمر مختار، وعدوهم من يا ترى؟ يا للعار، إخوة لهم، من بني جلدتهم، قتلة مهوسون ومأجورون، عرايا ملط من نخوة وفضيلة.

خلاص، النظام ثور هائج داخل حلقة مصارعة ثيران محلية، ثور ذو قرون حادة، وبنية قوية، ضخمة، وصحيحة، ولكن!!! كثرة الطعن برماح وسهام الثورة جعلت الدم ينزف غزيراً منه، خارت قواه، لم يبق له إلا سقوط وانهيار، لينال طعنة سيف أخيرة، وينسدل الستار على مصارعة استمرت لمدة ثلاثين سنة.

مر كعادته قبل موعد آذان صلاة الظهر في طريقه للمسجد على شلته النهارية. ثلاثتهم موجودون، وجوههم متجهمة، صامتون صمت القبور، خشي أن تكون حلت بأحدهم نائبة من نواب الدهر، أعادوا كرسي الحديد من غرفة العمليات، نظر نحوه نظرة ذات معنى، نظرة مشحونة برد الجميل، حياهم وجلس عليه برفق، خاطبهم متسائلاً:

(مالكم اليوم يا عجائز، إن شاء الله خير، وجوهكم عليها غبرة ترهقها قنطرة؟).

رد الزعيم غاضباً:

(يعني ما سمعت بما جرى في بري؟ ديل بلطجية، قطاع طرق بزي رسمي يفعلون ما يشاؤون، بدون خجلة العالم كله يتفرج عليهم، إذا بليتم فاستتروا).

هتف أبو العباس قائلاً:

(أين الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر؟ ألا يرون ما نرى؟ لماذا صامتون؟ والله سقطوا في أعين الناس سقطتة، لن تقم بعدها لهم قائمة أبدا).

رد شنيبو بمكر:

(أنا زول أمي ساكت، كلامي لا يودي ولا يجيب، لكن اسمعوها وانسوها (حمارا تركبه ولا حصانا يرميك على الأرض)).

رد الأستاذ مازحاً:

(شيخ العرب ده كلامه كله كلام طير في باقير).

رد وهو يهز رأسه دلالة عدم رضا:

(ثاني وثالث أنا أمي وعربي ساكت لكن (إذا رفسك الحمار لا ترفسه، وثانياً أنا لا فاضي في البناء ولا البجيب الطوب)).

رد الزعيم بمرارة:

(الراجل ده مصيبته مصيبة، لمن يروح صنمه في ستين ألف داهية، مصيره إما جلطة، أو رأسه يخف، أو يترك حياة الناس ويعيش مع الحمير).

رد الأستاذ متسائلاً:

(الهيسة والجوطة دي كلها عارفنها عشان شنو؟ عشان كلام فارغ ما يدخل المخ، عشان بنظلون).

أجاب أبو العباس مستنكرا:

(غياب العقل جعلهم يكبروها، اعتبروها إهانة، ولازم يردوا الصاع صاعين، وهيبة دولتهم ما فيها لعب).

رد الأستاذ باقتضاب:

(جو يكملوها عموها).

رد شنيبو بنبرة لا تخلو من تورية:

(شوفوا يا ناس هوي أنا عربي ساكت، لكن (الخوف يجعل الحمار أسرع من الحصان، والما يدورك في الظلام يحدر يعاين ليك)).

رد الزعيم مبتسما:

(لأول مرة ينطق صاحبنا بجملة مفيدة).

رد شنيبو بخبث:

(لأول مرة تفهموني يا عيرات المدينة، ما أنا عربي ساكت).

نظر جهة حماره، ولما اطمأن عليه، بأن رآه باركا على الأرض يأكل في أمان من خشاش الأرض، هتف قائلا:

(قوموا للوضوء، أجهزوا للصلاة، كلامكم كثير، وما منه فائدة، والله البباري الجداد يوديه الكوشة).

قبل أن يسمع منهم ردا إذ بهم يسمعون صوت الإقامة ينبههم للصلاة، نهضوا، أغلق أبو العباس محله على عجل، مشوا نحو مسجدهم وقلوبهم تهفو إلى اليوم الذي تنتصر فيه الثورة، وترفرف راية الحرية خفاقة فوق كل بيت، من بيوت بري، وكل بيت، من بيوت بلدهم الحبيب.

ود نوباوي

كثير من أحياء العاصمة لعبت أدواراً بارزة في صنع الثورة، الثوار تفننوا، أجادوا، وأبدعوا في مواجهة نظام عنيد بتشتيت أفكاره، وإنهاكه، وتكسير عظامه. وكما كتب حي (بري الدرايسة) اسمه بمداد من ذهب في سفر الثورة فإن (حي ودنوباوي) كتب اسمه بمداد من فضة.

إنه حي من أحياء أم درمان القديمة، العاصمة الوطنية، تعود تسميته إلى ود نوباوي، أحد قادة جيوش المهديّة، قالوا أنه هو من قتل غردون باشا؛ يحده من الشرق شارع الهجرة يفصل بينه وبين حي أبو روف وود البناء، من الغرب شارع الوادي، من الشمال شارع ود البصير، ومن الجنوب شارع أبو روف؛ ينقسم إلى أربعة أقسام، القلعة، ود نوباوي شمال، ود نوباوي وسط، وود نوباوي، يفصله شارع الدومة الذي يمتد شرقاً وغرباً إلى قسمين؛ من أعرق أحياء المدينة، وأهمها، معقل أنصار المهدي، به مركزهم الرئيس، ومسجد السيد عبد الرحمن الذي يؤم فيه زعيم طائفة الأنصار الصلاة كل جمعة، من خلال خطبته يرسل إلي مريديه بصفة خاصة، وإلى جماهير شعبية عريضة بصفة عامة ما يريد من رسائل عن أوضاع اجتماعية، اقتصادية، وسياسية في البلاد. سكن الحي على مر السنين سياسيون، مثقفون، ومبدعون كثير.

منذ اندلاع الانتفاضة الشعبية دأب مصلو مسجد ود نوبوي على الهتاف داخل المسجد عقب كل صلاة مرددين شعارات الثورة (حرية سلام وعدالة والثورة خيار الشعب)، (رص العساكر رص، الليلة تسقط بس)، ومع تنامي مدها خرجوا بمظاهراتهم الأسبوعية عقب كل صلاة جمعة إلى شوارع الحي والشوارع الرئيسية المحيطة به، لم تتوان قوات الأمن في التصدي لهم بإطلاق غاز مسيل الدموع، هراوات، وخرطيش بلاستيك، ثم بدأ ثوار الحي و ثوار الأحياء المتاخمة (حي العمدة، بيت المال، أبو روف، ود أرو، وأحياء أخرى) يتجمعون بالقرب من جامع الشيخ قريب الله الكائن بالحي، ينظمون مظاهرات ليلية، لوجود أزقة ضيقة بين بيوت الحي، يصعب ويمتنع مرور سيارات الباشيزق عبرها.

شكل حراك الحي الاحتجاجي الكثيف صداعا دائما لسلطات الأمن، مع خطاب ناري أسبوعي من زعيم حزب أعلن صراحةً انحيازه لثورة الشعب، مظاهرات داويه في كل جمعة، مظاهرات ليلية يومية، مظاهرات نهائية، يصحبها تعطيل حركة المرور، حرق إطارات في الشوارع الرئيسية، كل أهل الحي والأحياء المجاورة، أطفال، شباب، رجال ونساء، شيوخ وكهول، يشاركون في إزكاء ملحمة شعبية ليس لها مثيل، نساؤه يزغردن يفلن فعل السحر في نفوس الثوار، يندفعون إلى الأمام جموعا هادرة لا توقفها قوة مهما بلغت عظمتها، ثلاثين سنة متواصلة من ظلم وفساد كفيلا بأن تحولهم إلى ثوار، بلغت ردود أفعال أجهزة أمنية، وغير أمنية، حشدها النظام لفض الاحتجاجات، ذروتها بقيامهم بمطارة المحتجين بسيارات محملة بمسعورين وملثمين في شوارع وأزقة الحي، دخلوا وراءهم البيوت، اصطادوا منهم صيداً وافراً، اعتقلوهم في بيوت الأشباح، شتموهم بأفطع الشتائم، وبالمقابل ابتدع الثوار أساليب مقاومة جديدة، جمعوا

قاذفات لهب، طوب أحمر، كوموه فوق أسقف البيوت، رجموا به المسعورين ليلاً، وجد المسعورون أنفسهم في موقف لا يحسدون عليه، لا خيار لهم غير الهرب بأقصى ما يستطيعون، وهكذا هو الحال، صراع بين خير وشر، صراع بين (اقتل أمسح ما تجيبه حي) و (حرية، سلام، وعدالة)، وما ضاع أبداً حق من ورائه طالب.

التأم شمل شلة الأئس الثوري في يوم أغر من أيام ثورة شعبية فريدة، يطرز الثوار وشاحها بحريير وخيوط مذهبة تحت غاز مسيل للدموع، دخان عوادم سيارات تاتشر، ركل بووت، ضرب سياط وخراطيش، وشتائم فجة. حي (ود نوباوي)، وما أدراك ما هو، جذوره تمتد إلى الثورة المهدية، هذه الثورة التي مهما كتب عنها المؤرخون لن يوفوها حقها، كانت ثورة ضد مستعمر أجنبي، ظلم العباد في البلاد، وديسمبر ثورة ضد مستعمر وطني، أيضاً ظلم العباد في نفس البلاد، ميزان القوة وقتذاك لم يكن في صالح الثوار، ولكن بقوة إيمان بقضية، وبعزيمة، وإصرار، وصمود، حققوا نصراً على عدو يفوقهم قوة، ثوار ود نوباوي لا تغيب عنهم بطولات أجداد لهم، غيروا بها مسار تاريخ البلاد والعباد، أدخلوا في سِفْره باباً عنوانه ثورة مهدية، الرجال لا يلدون إلا رجالات، الأبطال لا يلدون إلا أبطالاً، والأحرار لا يلدون إلا أحراراً، لا يقبلون الضيم أبداً، دربهم واحد، والنظام وعصاباته الإجرامية لم يعودوا كما كانوا من قبل، تخطاهم شعب يعشق الحرية، يموت فيها ويحيا بها، قال كلمتين عبقريتين، تجاوز معهن كل العالم الحر (تسقط بس).

وصل عدولة اليوم إلى المحل مبكراً، يبدو أن أمور جيبه ماشه كويس، لأنه كان يبتسم لسبب ولغير سبب، خاطبهم قائلاً في فرح غامر وهو يدندن بغناء جميل:

(عجبوني أولاد (ود نوباوي) عجبوني وسروا بالي

طول الليل واقفين سواري
ترسوا البحر بالطواري ما شالونا باللواري
عجبوني الليلة جو ترسوا البحر وسددوا
عجبوني أولاد الفرسان ملصوا البدل والقمصان
ورسوا البحر خرسان من شاوش لي برقان
عجبوني الليلة جو ترسوا البحر سدوا
الكوراك في العداره مرقوا أخوان السراره
مركز جاب الإشارة ما شالونا بالطيارة).
قال تفتيس بنبرة ضاحكة لا تخلو من دهشة:

(يا أخوانا، الحاصل شنو، عدولة لطش، خلاص فكت منه، نسي قربت
قربت ودنا قطافها، لطش، أصبح في حالة ثانية، حالة أحسن منها
العرس، سبحان الله، سبحان مغير الأحوال، وإنا لله وإنا إليه
راجعون).

رد بنبرة فرحة:

(أفهموني يا ناس يا عجر، يا همج، قربت، قربت، دنا قطافها، الغنا ده
كله عشان عجبوني أولاد ود نوباوي، يعني كثير عليهم؟ يا أخوانا أنتم
والله لا تعرفون شيء، غير طق الحنك، وأولاد ود نوباوي يعطون
الدرس تلو الدرس لتلاميذ الكجر في مادة دراسية جديدة اسمها
المقاومة والصمود).

رد أمير بنبرة حازمة:

(شوفوا يا أخوانا كل أحياء العاصمة ما قصرت أبدا في هذه الثورة،
ولكن لازم نعطي كل ذي حق حقه، ناس بري الدرايسة وود نوباوي
دبل حاجة ثانية خالص، من يقف قصادهم الله قال بي قوله، الخوف
ذات نفسه يخاف منهم).

رد الأستاذ بنبرة لا تخلو من حماس:

(شوفوا يا ناس هوي، ابن آدم ده مخلوق عجيب، لا يعلم سره إلا الذي خلقه، لديه طاقات كامنة رهيبية، متى ما استغلها استغلالاً جيداً، لا تقف قدامه قوة أبداً).

رد شنو بارتياح:

(ناس بري وناس ود نوباوي حاجة واحدة، ناس بري معروفين أشراف، ناس الهندي، والبلد كلها بقت أشراف، ناس ود نوباوي معروفين أنصار، ناس المهدي، يعني ناس لا يقبلون بالحقارة، ثلاثين سنة والنار تاكل قلوبهم من جوة، صابرين على مضض، الفرصة جاءتهم جوه بيوتهم، يضيعوها؟ يكونوا طير مغفلين).

رد وليد قائلاً:

(يا أخوانا صمود ناس بري وود نوباوي ولع النار في داخل كل حي، وداخل كل بيت في البلد، موت الكثيرة عز، يا نموت كلنا ويا نحيا كلنا، نعيش أحرار في بلدنا، كفانا ذلة ومهانة).

رد تفتيس مبتسماً:

(يا أخوانا ثورتنا شبيهة بثورة المصريين في كثير من النواحي، مثلما لهذين الحيين نكهة ثورية خاصة في ثورتنا، كذلك كان للعجوزة، والدقي، نكهة خاصة في ثورتهم).

رد شنو بنبرة لا تخلو من خوف:

(شنو قلت شنو يا تفتيس، إن شاء الله زي ما انتصرت ثورة مصر تنتصر ثورتنا نحن كذلك، ولكن ما يحصل علينا ما حصل عليهم، يأتي من يخطفونها ويسرقونها، وينطبق علينا القول: (الثورة يديرها الدهاة، وينفذها الشجعان، ثم يكسبها الجبناء)).

رد عدولة بنبرة لا تخلو من أمل:

(قربت، قربت، دنا قطفها، خليها تسقط بالأول وبعدين ليها ألف فرج، ربك رب الخير يعدلها إن شاء الله).

رد أمير بنبرة متشائمة:

(كل الثورات ما قبلها كوم وما بعدها كوم آخر، أعداء الثورة لن يتركوها في حالها، لن يتركوها تمضي في طريقها بسلام).

رد الأستاذ قائلاً:

(الثورات حكايتها طويلة، الثوار يناضلون، يقدمون تضحيات، يسقط منهم شهداء، يتعرضون لاعتقال وتعذيب، ثم ينتصرون، تسقط أنظمة فاسدة، وماذا بعد؟ إما أن يعود النظام القديم مرةً أخرى بأقنعة جديدة، وإما أن يسرقها السراق، وتبقى أهدافها مجرد أحلام يقظة بعيدة المنال).

وقف لأول مرة بدون أن يشعر بخدر أو ألم، ربما لأن ثوار حي ود نوباوي والأحياء المساندة له أعطوه قليلاً من عنفوانهم وقتوتهم، ثم استطرد قائلاً:

(تركتكم بعافية والسلام عليكم يا أيها الأحرار، خلاص أزفت ساعة النوم، تصبحون على خير، وكل صباح جديد أحلى من قديم، ويا عدولة خلاص دنا قطفها، وسكتت شهرزاد الثورة عن الكلام المباح، والصباح رباح، ولا نامت أعين الجبناء، وثورة حتى النصر، وتسقط بس).

صمت لبرهة، مر أمام عينيه شريط مشاهد بيوت حي ود نوباوي وكيف يعيش أهلها في ظل ما مر بهم من أحداث، نعم إنهم يعيشون حياتهم بصورة طبيعية، كباقي أهل أحياء العاصمة، وكباقي أهل أحياء مدن البلاد الأخرى، حديثهم ذو شجون، شكوى من ارتفاع أسعار، غلاء طاحن، صفوف خبز ووقود، أقساط مدارس خاصة في ظل تعليم

حكومي منهار، تكاليف علاج خاص في ظل مستشفيات حكومية خرابات، زحمة مواصلات، انقطاع ماء وكهرباء، من حيث لا يدرون أصبحوا بين ليلة وضحاها لاعبين أساسيين في ثورة تعم بلادهم من أدناها إلى أقصاها، أخبارهم، مواكب مظاهراتهم، بيوتهم، وزنقاتهم، بصورة وصوت، تعرضها قنوات تلفزيون عالمية.

قال في نفسه: (بقدرة قادر تحول كل سكان الحي إلى ثوار، لأنهم أصيلون، والأصيلون بطبعهم طيبون، ومسالمون، وصبورون، ولكنهم حينما يُستَغْرَضون يتحولون إلى مردة جبابرة جبارون، تصعب السيطرة عليهم، لم يعد خلافهم مع النظام خلافا سياسياً، وإنما أخلاقياً، كيف تسمح قوات نظامية لنفسها بأن تقوم بتكرار كل فعل قبيح قامت به في حي بري الدرايسة، بل بأكثر وألغن، أفعال يتزفع عن فعلها رجال المافيا والعصابات الإجرامية، فعلوها مع كل الانتقادات التي وجهت لهم، في المرة السابقة أنكروها وتملصوا منها، هذه المرة يا عيب الشؤم، فضيحة مججلة، لذلك خيار أهل الحي واحد، السير في طريق (تسقط بس) إلى نهايته).

كعادته قضى الليل قبل أن يدخل في نوم عميق يحاول أن يفهم ما دار من أحداث في ذلك الحي، لم تغب عنه حقيقة أن أهله لا يقلون في ترابط، تجانس، وعمق صلات ضاربة بجذورها في عمق الزمن، عن بري الدرايسة، بدا له أن الأمور بدأت تتعقد وتتشابك أكثر أمام أهل الحكم، طولهم الأمنية المبالغ فيها، ولدت دوافع قوية تجبر الناس على تظاهر واحتجاج؛ الناس الفيهم كافيهم، ضيق معيشة وفساد، شهداء، معوقين، خراب، فوق كل هذا مسعورو النظام أذاهم طال الجميع، لا يفرقون بين صغير، كبير، أعمى، كسيح، امرأة، رجل، كلهم عندهم سواء، لا حرمة لمدرسة، مستشفى، بيت، أو جامع، شعارهم وعقيدتهم (أفرم بس).

أشرفت شمس النهار، كما رآها من قبل تسلط أشعتها حصرا على
حي بري، يراها الآن تسلط أشعةً خفيةً حصرا على حي ود نوباوي،
أشعة لا يحس ولا يشعر بها إلا من ثار على الظلم، من طلق كل هموم
الدنيا طلاقا بائنا، وانصرف بكلياته نحو هم نبيل واحد هو انعتاق من
ربقة عبودية عششت لثلاثين سنة، عبودية سياسية، اقتصادية،
 واجتماعية، من يرنو إلى الدخول في مرحلة حرية إنسانية متكاملة،
تمهيدا لصنع وطن حر، يعيش فيه مواطنوه متساوون في حقوق
وواجبات، في أمن، وأمان، وعيش رغيد.

خلاص، لم يعد للنظام جهة يقبل عليها، بنى حواجزاً نفسية
إسمنتية ضخمة سميكة بينه وبين مواطن عادي، لا يهمله شيء سوى
عيش كريم؛ القبول به كنظام حاكم بصيغة جديدة، أو تراجع عن
احتجاجات، صار من رابع مستحيلات، لذلك يتحتم على عقلائه
إخراجه من ورطته بأقل خسائر قبل فوات الأوان، ووفق تطور
الأحداث، فإن الأوان قد فات، فات.

مر كالعادة قبل موعد أذان صلاة الظهر في طريقه للمسجد على
شلتته النهارية. لم يتغير في المشهد شيء، حتى ملابسهم التي يلبسونها
هي نفس ملابس الأمس، وجوههم جامدة لا تشي بخير أو شر، بعد أن
حياهم وجلس على أحضان حبيب القلب كرسي الحديد، طفق ينددن
بأنشودة خليل فرح:

(أذكر بقعة أم درمان

في السودان (فتيح) معروف

ولسه (أب عنجة) خور وسروف

(ود نوباوي) زول معروف

باقي وديك مشارف (أبروف)).

رد الزعيم بحسرة:

(يا سلام، يا سلام يا أستاذ الحكاية شنو، يعني لازم ترجع علينا المواجه، لازم تقلب جلستنا هم وغم).

رد عليه بنبرة لا تخلو من شعور بالراحة:

(يا حاج ود نوباوي موجودة في قلب تاريخ المهديّة، وفي قلب كل ثائر لا يخش بطش الظلم ولا جبروت الظالمين، في هذه الأيام المباركة دخلت تاريخنا الحديث من أوسع الأبواب، أبطال ود نوباوي سطوروا ملحمة بطولية، وفي كل يوم جديد يسطرون ملاحم ثورية نادرة، يا سلام، كنا وين، وهسي نحن وين).

رد أبو العباس مبتهجا:

(بري من جهة، وود نوباوي من جهة، شفتم حجار الطاحونة، النظام الذي يدخل بينهم، يفرموه فرم، ويعجنوه عجن، ويطحنوه طحن، مش يطلع دقيق، يطلع أبو الدقيق ذاته).

نظر شنيبو يمناة ويسرى ثم رد بمكر:

(أنا عربي ساكت، نسمع ليكم وأنا ساكت، لكن مرات المغصّة تمسكني، أخاف تقتلني، كلمتي ليكم واحدة، ترى ألمي حار ولا لعب قعونج).

رد الزعيم غاضبا:

(نحن قعونج يا شيخ القعونج، يعني لازم تخرب القعدة، تخرب العامرة، صنفكم واحد إنت وجماعتك، إن الطيور على أشكالها تقع).

رد الأستاذ بهدوء:

(يا أخوانا خلونا من القعونج، الثورة أنتجت جيل جديد، مبدع، مبتكر، كل يوم يستنبط أساليب مقاومة ونضال مدهشة، المسعودون يلفون

ويدورون في الفاضي، فرق كبير بين من يفكر بعقله ومن يفكر
بقبضة يده).

رد أبو العباس ساخراً:

(يا خوي ده جيل فيسبوك، تويتر، واتساب، المسعودون جيل دقة
قديمة، زي المقارنة بين (كارو) شيخ العرب، و(أوباما)
المعلمين الكبار).

رد شنيبو بعبارة مقتضبه:

(شوفوا يا متعلمين ويا مثقفين، أنا زول أمي، ولكن المشتهي الحنيطير
يطير، والبراميل الفاضية دايماً تعمل كركبة).

رد الزعيم بارتياح:

(عجني والله كلامك القبيل يا أستاذ، شباب الثورة شباب واعى، جنبنا
إلى جنب مع أساليبهم النضالية المتجددة، لا يزالون يحافظون على
السلمية، بالرغم عن كل ما يتعرضون له من أساليب وحشية
لا إنسانية).

نظر الزعيم في البعيد، سرح مع ذكرياته الجميلة، إن لحي ود
نوباوي مكانة خاصة في نفسه، شهد طفولته وشطرا من شبابه، الأهل
والعقب لا يزالون هناك، صداقاته القديمة تزداد مع الزمن قوة
وحميمية، درج على حضور صلاة الجمعة في مسجد الأنصار،
في آخر جمعة رأى بيت العيلة القديم بحال يرثى لها، سوره من
الخارج سبورة مكتوب عليها شعارات الثورة (لن ترتاح يا سفاح)،
(تسقط بس)، لمباته الخارجية مكسرة، وأبوابه محطة.

خاطبهم قائلاً:

(اليوم أعدتم لي أجمل ذكريات).

رد الأستاذ:

(الله يديم الذكريات الحلوة عليك وعلينا، ويفرج كرب الثوار).
قبل أن يكملوا باقي حديثهم إذ بهم يسمعون صوت الإقامة ينبههم
للصلاة، نهضوا، مشوا نحو مسجدهم، هتف الزعيم قائلاً:
(مسجد ود نوباوي، نهاية الأسبوع، يحوله الثوار إلى جمعة غضب،
التاتشر لهم بالمرصاد، وبعد الكر والفر يختفي المسجد وسط
دخان البمبان).

رد الأستاذ:

(ذهب الكثير وبقي القليل، بإذن الله النصر أقرب مما تتصورون).

محاكم طوارئ

لا تلوح في الأفق بوادر حل لمأزق خطير تعيشه البلاد الآن، النظام يملك قوة باطشة يستخدمها إلى حد الجنون بدون مراعاة لقيم دينية أو أخلاقية، والثوار ملوك الشارع وقتما يشاؤون يشعلونه بهتافات، احتجاجات، مظاهرات، إطارات محروقة، نار، ودخان، كل منهما يرفع شعاراً صفرياً، (تسقط بس) مقابل (تقعد بس)، ولكن! يبدو أن ما في جعبة الثوار كثير، بينما نصب الذي في جعبة النظام، خصوصاً وأن أزمة اقتصادية عصية استعصت على كل حل، رغباً عن شوية انفراج صاحب حكومة مهام خاصة في أيامها الأولى.

أسباب عدة تعمل على إطالة مخاض الثورة، النظام سخر كل إمكانيات الدولة على ضعفها ومحدوديتها لتثبيت أركان حكمه، اتخذ تحوطات احترازية أمنية غير مسبوقة في المنطقة، نظام حكم عقائدي استنفر كوادرات حركات إسلامية من كل أنحاء العالم، أعد وحشد عشرات الأجهزة، أمنية، شرطية، جيش، ومليشيات، لحمايته بصورة مطلقة، مارس كافة الوسائل، قمع، تنكيل، قتل، وما يحدث في شوارع مدن البلاد لا يخفى على أحد، قاداته دمويون مطلوبون في محكمة العدل الدولية في جرائم تتعلق بإبادة جماعية، ماضي حكام البلاد مليء بارتكاب فظائع، جرائم، وفساد، مما يجعلهم لا يتورعون عن ارتكاب المزيد منها في سبيل إجهاض الثورة، ظروف معيشية قاسية تجبر الناس على الانقلاب على توفير أرزاقهم وتمنعهم من المشاركة في الحراك الثوري، خدمة مدنية، عسكرية، وشرطية حكر على أهل الحظوة والولاء، وجود كيانات غير قانونية تعمل في العلن والخفاء،

مليشيات كتائب ظل، وأمن شعبي، كل همها بقاء نظام واستئثار بخيرات بلاد فقيرة رزق اليوم باليوم، وجود رأسمالية فاسدة ارتبطت مصالحها برموز النظام، ما عادت تكثرث لمعانة شعب مهيبض الجناح، ثلاثون سنة من حكم فاسد سمت أخلاق وقيم شعب خلوق أصبح سارقه مكرم وشريفه مجرم، العاملون في القطاعين عام وخاص مرعوبون لأنهم مهددون بفقدان وظائفهم إن قاموا بانتقاد النظام ناهيك عن الوقوف صراحةً ضده، لذلك ما يقولونه في مواقع عملهم شيء، وما يقولونه في بيوتهم شيء آخر، النقابات العمالية يسيطر عليها موالون للنظام ولذلك يعيشون حياةً مرفهة مترفة وقواعدهم تقتات من خشاش الأرض، الاتحادات الطلابية مفبركة لا تمثل قواعد طلابية وإنما تأتمر بأوامر النظام، يفتكون بأساتذتهم وزملائهم الطلاب الأحرار بلا شفقة أو رحمة، يعيشون في بحبوحة عيش، يقتنون سيارات وأساتذتهم يركبون مواصلات.

الأحد التاسع من مارس، انطلقت مظاهرات نهائية من عدة مواقع في العاصمة، وداخل قلة من جامعات ظلت مفتوحة للدراسة، أبرزها تلك التي انطلقت من مقر حزب الأمة بأم درمان متوجهةً إلى مبنى المجلس الوطني، تصدت لها قوات الأمن واعتقلت عدداً كبيراً من المشاركين فيها من ضمنهم نائبة رئيس الحزب واختها، أصدرت محكمة طوارئ فورية حكماً عليهما بسجن سبعة أيام وغرامة ألفي جنيه، كما أصدرت ذات المحكمة أحكاماً بسجن وغرامة على مجموعة أخرى من قيادات الحزب شاركوا في هذه المظاهرة، شكك البعض في نوايا الحزب وبأنه يطمع في قيادة حراك الجماهير في الشارع بالرغم من أن أسرة ريسه منقسمة بين طرفين متناحرين، طرف مع الثوار والآخر يشارك في الحكومة.

ظلت بعض أبواق النظام تهدد بلهجة جديدة تقول إما حوار أو خراب، يا فيها يا نجيب عاليها واطيها، يا فيها يا نفسها، يقصدون حواراً على مقاسهم وشروطهم، يستنسخون به ما يريدون استنساخه من حلول تكرر لسلمة جديدة في أيد ملطخة بدماء بريئة.

الاثنين العاشر من نفس الشهر، قامت مظاهرات في ثلاث جامعات أهلية بالعاصمة تطالب بسقوط النظام، انتصار ثورة الجزائر بإعلان الرئيس بوتفليقة عدم ترشحه لعهدة جديدة وتأجيل الانتخابات، قرار رأس النظام بالإفراج عن كل معتقلات المظاهرات ما عدا اللائي تم الحكم عليهن بقانون الطوارئ، حكم من إحدى محاكم الطوارئ على تسع تائزات بالسجن شهراً والجلد عشرين سوطاً لمشاركتهن في المظاهرات.

ولتكتمل الصورة في الأذهان، ها هي مقتطفات متخيلة من الذكاء الإصطناعي لجلسة لمحكمة من محاكم الطوارئ:

القاضي للمتهم:

- اسمك؟

المتهم:

- المقهور مجاهد عبد الخالق.

القاضي:

عمرك؟

المتهم:

- ثلاثون سنة.

القاضي:

هل شاركت في مظاهرة يوم الأحد الموافق التاسع من مارس؟

المتهم:

- نعم، كنت في طليعة المشاركين.

القاضي:

- هل هتفت وقلت تسقط بس.

المتهم:

- نعم، هتفت تسقط بس.. والآن تسقط بس.. وبكرة تسقط بس.

القاضي:

- مع سبق الإصرار والترصد، وباعترافك أمامي أنا القاضي عبد المأمور، تكتفي المحكمة باعترافك الشفوي الصريح، وترى أنه لا داعي للاستماع لشهود، ولذلك حكمت عليك المحكمة ب ثلاث سنوات سجن وثلاثة الاف جنيه غرامة، وبعدم الدفع ستة أشهر أخرى.

خرج المتهم عن طوره، صرخ مهتاجاً بكل ما يملك من قوة:

- أسألك سؤال بسيط بالله عليك هل أنت قاضي.. هل محكمتك هذه محكمة.. قاضي مسخرة، محكمة مسخرة، كل شيء في البلد أصبح مسخرة، المتظاهرون العزل بدم بارد يقتلون في الشوارع برصاص حي.. المثلثون يعيثون في الأرض فسادا.. سيارات خالي لوحات تجوب الشوارع.. تدهس المتظاهرين بلا رحمة.. رجال أمن يتسورون البيوت، يحطمون أبوابها، يستبيحون حرمتها، ويروعون الأمنيين.. أنتم عميان أم طرش يا قضاة السلطان؟ جوه المحكمة تسقط بس.. وبره المحكمة تسقط بس.. وجوه وزارة العدل تسقط بس.

القاضي:

- بدلاً من ثلاث سنوات حكمت عليك المحكمة بستين سنة سجن.

المتهم أكثر هيجاناً:

- ما فارقة أعملها مائة سنة.. أولادكم وأولاد حكومتكم شغالين، وأولاد الغبش، عمال، رعاة، وفلاحين، يحملون باقات البلاستيك يبيعون الماء في الأسواق، يدفرون الدرداقات في المحطات، أو يشمون هواءً تحت

أشجار نيم، يا قاضي الحيرة، أنت ذات نفسك تسقط بس.. ومحكماتك
تسقط بس.. وحكومتك تسقط بس.. وتسقط بس.. وتسقط بس..

القاضي:

- محكمة.. انتهت الجلسة.

وصدحت حناجر جمهور الحاضرين بالهتاف:

- تسقط بس... وثاني تسقط بس... وتسقط بس.. وبس.. وبس...

المفاجأة التي أذهلتهم، أن القاضي ذات نفسه، بجلالة قدره، هب واقفا
وظفق يهتف:

- تسقط بس... تسقط بس... وتسقط بس..

ردد وراءه الشرطي:

- تسقط بس... تسقط بس... وتسقط بس..

ردد وراءه الخفير:

- تسقط بس... تسقط بس... وتسقط بس..

خرج كل من في القاعة، ركبوا الشارع وهم يهتفون:

- تسقط بس... تسقط بس... وتسقط بس..

انضم إليهم الألوف وهم يهتفون:

- تسقط بس... تسقط بس... وتسقط بس..

كبست القوات الأمنية، فعلت ما فعلت، ضربت، اعتقلت، وقتلت،
ما فارقة معهم، تشتتوا، ذهبوا إلى بيوتهم، ضمدوا جراحاتهم، استعدوا
لجولات أخرى، الثورة كر وفر، ومن سار على الدرب وصل.

التأم شمل الشلة الثورية في يوم جديد من أيام ثورة دنا قطاف
ثمارها، شعب أعزل أشعث أغبر، نحت جلاميد صخر بأظافره ليوفر
رزقاً حلالاً لعياله في ظروف عصيبة لا يعلمها إلا من خلقه وسواه؛
واجه كل صنوف العذاب، تسلط، بطش، وجبروت، بقلوب مسالمة،

متسامحة راضية، لا تعرف بغضاً وكرهية؛ بإمكانهم أن يردوا الصاع صاعين لمجرمين قتلة، وأن يحرقوا أخضراً ويابساً، ولكنهم فضلوا الصبر على البلاء، خوفاً من ضياع وطنهم من أيديهم إلى الأبد، خصوصاً وأن أعداء داخل وخارج يتربصون بوطنهم الحبيب الدوائر. فعل النظام كل ما في استطاعته لأن يبقى إلى أجل غير مسمى، لم يترك شاردة ولا واردة وإلا ووضع لها ألف حساب، استراتيجيات، خطط، وبرامج أمنية، وضعت على أعلى مستويات، تحت إشراف خبراء محليون ودوليون، كوادر بشرية غُسلت أدمغتها وأعدت إعداداً جيداً لمواجهة كل الاحتمالات، وُفرت لها وسائل، معينات، أدوات، وأسلحة، ما عليها سوى تنفيذ الأوامر بلا نقاش، لأن الأمر حياة أو موت.

يبدو أنهم نسوا أمر الله، الملك بيد الله لا بيد زيد أو عمرو، يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، لذلك الخير كل الخير في سلوك الطريق القويم المستقيم حكماً ومحكومين، جرد الحساب إن لم يكن في الدنيا ففي الآخرة، والفتن من يعي الدرس قبل فوات الأوان، وقبل أن تأتي ساعة إهانة أو إكرام، ومهانة عزيز قوم ذل فادحة، ثقيلة، وعظيمة.

ابتدر أميرو الكلام قائلاً في حسرة:

(يا أخوانا هوي أسمعوني كويس، الناس يقولون فلان عامل مُقَدِّده، فلان عامل أبو العرام، فلان سيده، الكلام ده كله ينطبق بحذافيره على ناس النظام، من شدة ما تكبروا وتجبروا أصبح الشعب في نظرهم مجرد معيز، يفكوا عليهم كلب واحد، يهوهو هُو هُو هُو، كلهم يمسكوا الدرب عديل، يدوه العجاجة والكتراية).

رد تفتيس بنبرة واثقة:

(الكلام ده في البداية، كان صحيح ألف في الميه، الكلاب الضالة كانت تهجم هجمات شرسة، شراسة منقطعة النظير، كلاب ضخمة، مسعورة، مسلحة بأظافر حادة، وأنياب مسننة، متعطشة لسفك الدماء، والشعب معيز هزيلة، ما عندها حيلة عشان تدافع عن نفسها، كانت معركة غير متكافئة؛ ولكن الآن حدث العكس تماما، المعيز تحولت إلى كلاب، والكلاب تحولت إلى معيز).

رد عدولة بنبرة سخنة حارة:

(قربت، قربت، دنا قطفها، يا أخوانا بنت في عمر الزهور، عمرها ما شالت حجر، أخذت البمبان مرتين ورجعته ثاني على المسعورين، ده حصل وين، يا هو ده بلدنا، ديل هم الكنداكات، وديل هم شبابنا، رفعوا رؤوسنا بعد طول تنكيس، وذلة، ومهانة، ردوا شرفنا، وردوا اعتبارنا).

رد شنو مبتهجاً:

(هوي يا معيز، يا مسطحون، زي ما ناس النظام منظمين أمورهم، ناس التجمع منظمين أكثر، يا أخوانا المظاهرات بقت بالجدول، الساعة الفلانية في المكان الفلاني، بق بن لا تقدم ولا تؤخر، الجو يكون هادي، الشباب قاعدين مع ستات شاي، داخلين في محلات، ماشين في شارع، فجأة بس تسمع صفقة خفيفة، بس صوت خافت ينادي حرية كرامة عدالة، بس والقيامة تقوم، وبعد شوية بس ويبيك ويبيك، ووك ووك، وبس تاتشر، دفار، شرطة، بمبان، ورصاص).

قاطعه عدولة ضاحكاً:

جننتنا يا شنو، بس، بس، بس، إنت بقيت كديس ولا شنو).

رد الأستاذ بنبرة هادئة:

(يا أخوانا، الثوار لهم عقول مبدعة عبقرية، أساليبهم متجددة، متنوعة، ومرنة، يحسنون تنظيم حراكهم في رقعة جغرافية محصورة، أما المسعورون فهم متحجرون أسلوبهم عقيم أوحده، وفي ساعة الزنقة يعملوا كابتن ماجد، يفكوا بيرق على طول لا يلتفتون وراء ولا قدام، الروح حلوة لا يفرطون فيها، الثوار الروح عندهم رخيصة، يبذلونها في سبيل وطن عزيز).

رد وليد بنبرة لا تخلو من إعجاب:

(المظاهرات دي فيها عجب عجاب، يفرقوهم من هنا، يرفعوا عشرات منهم في التاتشر مع ضرب وإهانة، ما يهتمهم، يلماو ثاني من هنا، حيروهم، وتحير العالم معهم، رجالة عجيبة، وحماقة، وركوب رأس).
رد أبو علي متسانلاً:

(يا أخوانا بالله عليكم كده حلوا لي أم غلوتيه دي، إنتو بالله فاهمين حاجة، يفرجوا على السجينات التائرات من الحبس من هناك، يقبضوا عليهن ثاني في المظاهرات من هنا، ويحكموا عليهن تخويفاً بسجن وغرامة وجلد، ومع كل ذلك ما خائفات، المظاهرات مدورة أكثر وأكثر).

أجاب الأستاذ قائلاً:

(ده التخبط بعينه، يتنازلون من هنا، ويضغطون من هناك، لا ده جانب حقه ولا داك جانب حقه، الثوار كلهم، عن بكرة أبيهم، امرأة ورجل، رامين قدام).

رد تفتيس قائلًا:

(يا أخوانا القلوب مليئة بغبن وظلم ثلاثين سنة، ديست فيها كرامتهم الإنسانية بالأقدام، غبن محفور في ضمير الشعب، الذي يحرك الجماهير بهذه القوة، ما هو إلا بنزين، وغاز، وحطب الظلم الفات الحد).

رد أميرو بنبرة لا تخلو من عدم ارتياح:

(يا أخوانا نسيتم ثورة الجزائر، شهر واحد وعملوها، ثورتهم جابت نتيجة، أعلن الرئيس بوتفليقة عدم ترشحه لعهدة جديدة وتأجيل الانتخابات، عمت مواكب الفرحة كل أرجاء الجزائر، بلاء وانجلي عن الجزائريين، متى يأتي يوم فرحتنا نحن كذلك لينا كم شهر قاعدين نجر كراع وراء وكراع قدام).

رد الأستاذ بنبرة فيها نوع من مرارة:

(ثوار الجزائر في شهر واحد جابوا أجل بوتفليقة الديناصور، ونحن نعاقر ونقعد ونقوم ثلاثة شهور وديناصورنا لسه يرقص، ويصول، ويجول).

صمت لفترة، مر أمام عينيه شريط لمشاهد الثوار وهم يناضلون وثوراة الجزائر نصب أعينهم، الحال نفس الحال مع ثوار الجزائر، تزامن عجب، كل واحد منهما يستقي دروساً وعبراً من الآخر، يستقوي ببطولات الآخر، يتمسك بالسلمية كما يتمسك الآخر، هدفهما واحد، حرية، كرامة، وعدالة، ثورة كاملة النصاب لا تنقص مثقال ذرة، تكنس كل بناء قديم آيل للسقوط وتشيد مكانه بناءً جديداً متيناً.

قال في نفسه: (هذه بشارة خير، كما انتصر ثوار الجزائر سوف ينتصر ثوار بلدنا الحبيب، مهما طال الزمن، المسألة مسألة وقت، سنة الله في الكون ماضية لن تجد لها تبديلاً ولا تحويلاً، فالحكاية هنا

وهناك واحدة، فساد، ظلم، خبث، وعناد؛ مع اختلافات غير جوهرية)،
ومن ثم استطرد قائلاً:

(أها يا أيها الثوار، أهل الصفة، جاءت ساعة النوم، وسكنت شهرزاد
الثورة عن الكلام المباح، والصبح رباح، ولا نامت أعين الجبناء،
وتصبحون على خير، وثورة حتى النصر، وتسقط بس).

قضى ليلته تلك يتململ ويتقلب فوق فراشه، ما راه وسمعه نهراً
كبس على عقله وقلبه ليلاً، عقله يفكك ويربط ما بين أحداث كثيرة
شاردة وواردة، قلبه تنتابه وتتنازعه مخاوف من انتكاسات بسبب
إدخال النظام لأساليب قمع وتخذييل جديدة، نظام قضى في الحكم
ثلاثين سنة كأنها ثلاثين ألف سنة لن يعدم حيلة في استنباط أردأ،
أجبن، وأوسخ وسائل قمع تخطر على بال إنسان، أو بسبب تناقص
همة الثوار، أو فتور حماسهم، أو ديبب اليأس إليهم، فهم مثلهم مثل
كل البشر لقوة تحملهم حدود، ولصمودهم حدود، ولنفسهم مهما كان
طويلاً حدود، غلبه النوم، غشاوة بيضاء انسدت على عينيه، مشهد
رهيب، أيادي ثوار الجزائر تلوح لثوارنا بأعلام وإشارات النصر،
أصواتهم تتغني بأناشيد الفرح والخلاص، دعواتهم ترتفع إلى عنان
السماء شكراً لله على نصره لهم وطمعاً في نصره لنا.

أشرقت شمس النهار، أشرقت هنا قبل أن تشرق في الجزائر، مع
أن الشمس هي الشمس منذ الأزل، والشمس والقمر ليس لهما علاقة
بما يحدث لأحد من البشر، ولكنه رآها في ذلك اليوم تشرق إشراقاً
مهيباً، كأنها تبارك لأهل الجزائر نصرهم العزيز، وتبشرنا بنصر يتلج
الصدور قريب، يا لطواغيت الأرض متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم
أمهاتهم أحراراً، الحرية لا تتجزأ، إما أن تكون كاملة، أو لا تكون،
ومن ينكر حرية للآخرين لا يستحقها لنفسه.

خلاص، المقدمات تقود إلى نهايات، مقدمات سعيدة تقود إلى نهايات سعيدة، ومقدمات سيئة تقود إلى نهايات سيئة، الحمد لله مقدمات ثورتنا حتماً سوف تقود إلى نهايات سعيدة، لأنها كانت سعيدة، زحف عاتي، هادر، صاخب، يشق طريقه في عنفوان رهيب، لا تقدر على وقوف في وجهه أو إيقافه قوة، بطش، أو جبروت.

مر كعادته التي فطره الله عليها قبل موعد آذان صلاة الظهر في طريقه للمسجد على شلته النهارية، ثلاثهم موجودون، وجوههم نضرة ضاحكة مستبشرة، بعد أن حياهم وجلس على كرسي جده السلطان علي دينار، مازحهم قائلاً:

(يا عجائز، جالسون كسلاحف متخمة من تناول وجبة سمك دسمة من برميل زباله مطعم عوضيه، وثار الجزائر عملوها، بوتفليقة أدوه كرت أحمر).

رد الزعيم قائلاً:

(شوف يا زول نحن الكرت الأحمر مرقناه من بدري، ماسكنه في يدنا، أي مخالفة جديدة منهم على الطلاق، على طول نديهم ليه، ومعه واحد أزرق، وأسود كمان).

رد أبو العباس في حسرة:

(سبحان الله، نحن كان أحوال بلدنا سمحة ربع أحوال الجزائر كان نصبنا رئيسنا ملكا علينا مدى الحياة، أفقرونا، بهدلونا، جننونا، ولسه طامعين يحكمونا).

رد شنيبو قائلاً في خبث:

(أنا كلامي عربي ساكت، زول بادية وأنتم ناس مدينة، أخذوني على قدر عقلي، (كان شالوا ما بنشال وكان خلوه سكن الدار)).

رد أبو العباس ساخراً:

(ده كلام شنو يا شيخ العرب، عارف المثل ده معناه شنو، قاصدين به (التندل) مكب القمامة، يعني إنت تمدح ولا تهجو في صاحبك حبييك؟).

رد شنيبو بنبرة مأكرة:

(بالحيل أنا عارف الكلام ده، بس عدلته وصلحته شويه، الزول الذكي يفهمها وهي طائرة، أنظر للمعنى الخفي مو المعنى الظاهر، فهموه صاحبكم ده، مخه بدورلو شوية نخنخة).

رد الأستاذ قائلاً:

(يا أخوانا الجزائر دي كانت تاج مستعمرات فرنسا، الفرنسيون كانوا يعتبرونها أرضاً فرنسية، استوطنوها وعمروها على حساب أهلها، وقالوا نفس كلام ناسنا ديل، أنهم قاعدين فيها إلى يوم القيامة، ولكن ثورة جزائرية كان مهرها مليون شهيد قالت ليهم باي باي يا شرادم غجر وبجم وهمج، باي باي ديحول).

رد الزعيم قائلاً:

(التاريخ معلم الشعوب يقول: مع إصرار الشعوب لا يوجد مستحيل، ثوارنا متظاهرين ومعتصمين، بما لديهم من إصرار، عناد، وإقدام، حتما سيكتبون سطوراً جديداً في تاريخنا الحديث).

رد أبو العباس بمرارة:

(الثورة بدت في الجزائر بعدنا بشهرين، خلصوا مهمتهم في فترة وجيزة، أزاحوا صنماً من شمع، ونحن لسه في الوحل، ندفر وراء وقدام، ما قادرين نزرحح صنمنا).

رد الأستاذ متحسرا:

(يا أخوانا الجزائر فيها حزب حاكم، فجر ثورة، تستهدي بها كل الثورات، لكنها دولة مؤسسات، يا سلام على جيشها، نواته قدامى المحاربين الذين طردوا الفرنسيين، يا سلام على نهضة ثقافية ورثوها منهم، أما نحن، انحدرنا نحو القاع في كل شيء، نحن في وادي وهم في وادي، نحن نجابه نظام همجي، وهم يواجهون نظام متحضر شوية).

رد شنيبو بدهاء:

(أنا عربي ساكت، اسمعوني يا جماعة الخير، وقولوا علي أي حاجة، لأنكم متقنين ومتعلمين، (يا حليل البصل نذبحه ونبكي عليه)).

رد أبو العباس متسائلا:

(يا أخوانا شيخ العرب ده رأسه القوي ده يلين متين؟).

رد الزعيم في حسرة:

(مثله في البلد كثير، الجن والغباء ما في ليها دواء، يظنون هكذا إلى أن يرتاح الناس منهم بدفنهم في القبور).

رد شنيبو بنبرة مأكرة:

(أنا زول أمي ساكت لكن خذوا النصيحة مني، (عاملين زي المسامير ما تدخلوا إلا بعد تندقوا على رؤوسكم)).

نهض، رمقهم بنظرات تحمل رسائل عديدة مليئة بالتحدي، توجه نحو صنبور المياه ليتوضأ، قبل أن يسترسلوا في حديثهم إذ بصوت الإقامة ينبههم للصلاة، هرولوا نحو المسجد تاركين أبو العباس من خلفهم وعبارة تندقوا زي المسامير تطلع وتنزل وتلف داخل أمخاخهم، ثلاثين سنة والدق بعنف شغال ومتواصل على رؤوسهم، وفي النهاية أين أدخلوهم؟ أدخلوهم جحر ضب، لا نسمة هواء، ولا قيس من ضوء، ولا بارقة أمل بخروج.

عصيان مدني

ظلت الثورة في حالة تطوير مستمر لأساليبها الاحتجاجية عبر مسيرتها الطويلة التي تعدت حاجز ثلاثة أشهر، ثم بدأت خطى الأحداث تتسارع بوتيرة مذهلة مدهشة، يوم الأربعاء الموافق الثالث عشر من مارس نفذ عصيان مدني بصورة جزئية، قلل النظام من مدى تأثيره على تعطيل العمل، المعروف أن النظام يحشد في مواكبه وتجمعاته فقراء، مساكين، ومغييبين بأساليب لا أخلاقية، ويجبر العاملين على تأييده بأساليب قذرة، مصارف حكومية وتجارية في حالة عصيان مدني غير معلن منذ زمن طويل، لا سحب ولا إيداع من قبل العملاء لعدم توفر السيولة، ومراكز صرافاتها الآلية بنت عليها العناكب، في تطور إيجابي خطير ظهرت للوجود قناة تلفزيونية تتحدث بلسان الثورة، أصبح للثورة صوت عالي مسموع يصل إلى كل بيت في البلد وإلى كل بقعة في الأرض، أسنان تعض، لسان يكشف مستور جرائم وفضائح، بعد أن كان الفضاء برمته محتكرا لأبواق نظام مأجورة تصول وتجول فيه بلا منافس، ثم جاء إعلان عن مؤتمر باريس، يضم ممثلي الجهات الموقعة على ميثاق الحرية والتغيير، يعني الموضوع خلاص تخطى الحدود وأصبح شأناً دولياً له علاقة بالأمن والسلم العالميين.

شهد الخميس الموافق الرابع عشر من مارس موكب الحرية والتغيير الذي جاء عقب تشكيل حكومة الكفاءات المزعومة، مع مظاهرات واسعة شملت معظم أحياء العاصمة، وبعض المدن، منها مدني، عطبرة، والجنينة.

شهد اليوم التالي مظاهرات جمعة المساجد، أوقفت مصر الربط الكهربائي بين البلدين إلى أجل غير مسمى، نيوزيلندا حدثت فيها مذبحة في العاصمة كرايست تشيرش تم فيها إطلاق نار على المصلين في مسجدين قبيل صلاة الجمعة هما مسجد النور بشارع دينز ومسجد آخر بشارع لينوودز، بلغ عدد الشهداء تسعة وأربعين مع عدد كبير من المصابين والجرحى، إثر الحادث أُلقت الشرطة القبض على أربعة أشخاص ثلاثة رجال وامرأة، وردت بلاغات عن وجود عبوات ناسفة بدائية الصنع مثبتة في مركبات وتم إبطال مفعولها، المتهم الأول بارتكاب هذه المذبحة رجل مسلح أسترالي الجنسية بث لقطات الهجوم الذي نفذه على فيسبوك متبنيا وجهات نظر عنصرية مناهضة للمهاجرين وعلى وجه الخصوص المسلمين.

التأم شمل الشلة في يوم جديد من أيام ثورة سلمية ناصعة البياض، حبلى بحرية، سلام، خير، ومحبة لأهل البوادي والحضر، قطعاً سوف يأتي يوم تنكشف فيه كل الأفاعي، تتعري فيه كل السوءات، لسبب بسيط أن الفساد استشرى وعم البر والبحر، ضاعت دولة القانون، القانون يحمي مجرمين وفاسدين، وشعب مسكين مسلوب الإرادة يرى متسلقين كانوا بأمس قريب لا يملكون درهماً يتناولون في البنيان، حكايات تروى عن تهريب ذهب ودولار، تجارة مخدرات منقولة في حاويات، غسيل أموال، خاتم سليمان، مصباح علاء الدين، شجرة إكسبير، استخدام جن في تنزيل أموال، استيلاء على أصول دولة بأسعار زهيدة، وشركات ومنظمات مجهولة الهوية.

ما زال النظام معدوم الشفافية، وأبواقه الإعلامية تتعمد بتضليلها وكذبها زيادة الصورة المعتمة أصلاً تعتيماً بدلاً من تسليط الضوء عليها، وعلماء سلطان يمجدون الحاكم ولا يملكون الجرأة للحديث عن ظلمه وبوائقه وخروقاته، الشعب ماض في طريقه، لا يهمنه من يشجعونه ويدفعونه ويقفون معه، ولا من يثبطون من همته ويلعبون عليه.

الشعب يؤمن بأن للظلم حدود، قلة فاسدة تمتلك كل شيء، سخرت كل موارد البلد لأجل مصلحتها، غالبية الشعب يعانون الأمرين، خدمات أساسية بعيدة المنال، فوق ذلك مطالبون بدفع ضرائب، جمارك، جبايات، مكوس مباشرة، وغير مباشرة، تذهب ولا تعود عليهم بخدمات، تذهب مقابل صرف على أجهزة أمن قمعية، توفير مسيل دموع، رصاص، حوافز لمتنفذين متسلطين، يؤمن بأن الله ناصره لأن الله ناصر للمظلومين ولو بعد حين، ما دامت أكفهم مرفوعةً ليل نهار يطلبون منه عوناً ومدداً، يؤمن بأن الثوار الذي يضحون بمرتخص وغالي من أجله هم أحرص الناس عليه.

ابتدر أميرو الكلام قائلاً:

(يا أخوانا أنا على موقفي، وعلى كلامي، ناس تجمع المهنيين ما سهلين، يتحركون بخطط مدروسة، بعد إنهاك النظام بالمظاهرات، خلوا العساكر يكرهوا حاجة اسمها كاكبي، ويفكروا في مخالفة تعليمات، دخلوا حاجة اسمها عصيان مدني).

رد تفتيس سائلاً:

(السؤال كيف ينجح عصيان ونقابات كلها مسيسة، كلها تبع النظام، أي حركة لموظف أو عامل مرصودة ومحسوبة، غياب من حشدهم، مشاركة في مظاهرة، أو عصيان، أو اعتصام، تتفوه خلسة بكلمة كده ولا كده، النتيجة إما اعتقال، أو إحالة لصالح عام، أو ركن على جنب، تهميش وظيفي).

رد الأستاذ قائلاً:

(نعم أن يتحقق العصيان بدرجة مائة في المائة، هذا أمر مستحيل في ظل الظروف الراهنة، ولكن العافية درجات، خطوة خطوة، يبدأ بواحد في المائة، يتدرج شويه شويه إلى أن يصل ثمانين في المائة، وهذا يعتبر قمة النجاح).

رد عدولة ساخرا:

(قربت، قربت، دنا قطافها، واحد من صحابي الذين يعملون بالبنوك أداني درس مجاني، قال لي: عصيان شنو يا بجم، البنوك في حالة عصيان قسري منذ شهور طويلة، زي محطات الوقود، خرابات، لا داخل لا خارج).

رد شنو بمرارة:

(يا أخوانا قُلْتُ شنو، ثلاثين سنة مرت والناس لم تر ولم تسمع بحاجة اسمها عصيان مدني، كابس على نفسهم نظام بوليسي قمعي، لذلك منطقي جدا أن تكون استجابتهم ضعيفة).

تمتم وليد قائلاً:

(يا أخوانا أنا على باب الله، ركشا يا عم، لافي الشوارع فوق تحت، حركة الناس في يوم الاعتصام كانت ضعيفة، أقل من المعتاد، صحيح ناس الحكومة ما نفذوه، لكن كثير من ناس السوق نفذوه).

رد أبو علي ساخطا:

(خلونا من عصيان، تعالوا لحكومة كفاءات مزعومة، يا أخوانا الحاصل شنو؟ الحكاية عبط، ولا نحن طراطير، أي كلام فاضي يلزق فينا، نفس الأسماء التي مللنا سماعها، نفس الوجوه التي لا نطبق رؤيتها، جاءوا بها من ثاني، والله في المدرسة إن دخل علينا مدرس واحد حصتين في اليوم، نكره المدرس، نكره المدرسة، نكره الرداء الكاكي، نكره القميص الأبيض ونكره التعليم ذات نفسه).

رد عدولة في حسرة:

(قربت، قربت، دنا قطفها، الدنيا مقلوبة فوق تحت، عكة شديدة، النظام يقتل المحتجين هنا، الإرهابيون يقتلون المصلين في نيوزيلندا، ليبيا مولعة، سوريا مدورة، واليمن أرض محروقة).
رد أميرو بلهجة حانقة:

(القاسم المشترك بينها جميعا أن القتلى من المسلمين، دمهم أرخص دم في العالم، دم رخيص ما عنده ثمن).
رد الأستاذ بنبرة لا تخلو من تشاؤم:

(يا أخوانا ما يجري عندنا، وما يجري في باقي بلدان العالم الإسلامي، بسبب أنه ليس فيها مكان للديموقراطية، لسه بدري عليها، أو لأنه السيد المستعمر قديماً وحديثاً عايز كده).

صمت لفترة، مر أمام عينيه شريط لمشاهد حكومات إثر حكومات تعاقبت على إدارة شئون بالبلاد، ما يجري في زمن النظام القائم شيء فريد، لعبة كراسي مملّة، نفس الوجوه تتبادل المواقع، يخرج من يخرج، من يخرج يذهب إلى موقع أرفع، ويقعد من يقعد، ومن يقعد يتحكر بمزاج، و يا دنيا ما فيكي إلا أنا، وداك يا حشم، وداك يا خدم، تكية أبوه، إذا أردت أن تحكم على فشل نظام، أحكم عليه من خلال حجم مأساة عملته، قيمة سعر الصرف العملة المحلية بالدولار هي مؤشر لقيمة النظام الحاكم في أي بلد في سوق السياسة، بالسوق الموازي صعدت قيمة الدولار من اثنا عشر جنيهاً في نهاية تسعينات القرن الماضي، إلى ستين ألف في نهاية العقد الثاني من القرن الحالي، بوجود ثلاث أصفار محذوفة، يعني قيمة النظام هبطت حسب قراءة مقياس القيمة من ستة في المائة إلى واحد من مائة ألف في المائة .

قال في نفسه: (نعم العامل الاقتصادي هو الجندي المجهول الذي يحارب مع الثوار الآن، لأن البطون الخاوية لا تهاب الموت، فهي في كل الحالات ميتة، وأفضل لها أن تموت بشرف بدلا من أن تموت ميتة فطيسة، الفقراء لا يخشون الموت لأنهم لا ذهب، لا فضة، ولا نقود مكنوزة، يخافون عليها من الضياع، ولا عقارات، مزارع، ومصانع، يقلقون عليها من نزع ومصادرات، يعني الحياة ما عندهم فيها ما يدعوهم إلى تثبيت وتمسك حتى النهاية). ثم استطرد قائلا:

(أها يا أيها الثوار، يا رفقاء الكفاح، أزفت ساعة النوم، وسكنت شهرزاد الثورة عن الكلام المباح، والصبح رباح، ولا نامت أعين الجبناء، وتصبحون على خير، وثورة حتى النصر، وتسقط بس).

قضى ليلته تلك وهو يغوص في نفوس العاملين بمؤسسات القطاع الحكومي، يعلم أن مرتباتهم في ظل معدلات التضخم القياسية لا تفي بمقابلة خمسة في المائة من احتياجاتهم المعيشية، ويعلم أن منهم من يعمل بعد ساعات دوامه الرسمي في أي مهنة، ملائمة أو غير ملائمة، ما يعينهم هو أن يكون عندهم مصدر رزق إضافي، ويعلم أن منهم من يتهرب من الرجوع إلى بيته لأن جيبه خاوي، ومع كل ذلك هم مجبورون على مسابرة نظام فاسد، بألسنتهم معه، وبقلوبهم يلعنون خاشه وأبوه، ولكن المسألة برمتها تتلخص في حكم قوي على ضعيف، من لا يملك قوته لا يملك قراره.

أشرفت شمس النهار، بعد أن أشرفت على نيوزيلندا، التي ما زالت دماء الشهداء تلطخ سجاد، بلاط، وجدران مساجدها، الشمس ظلت تشرق لسنوات طويلة لا يعلم عداها إلا خالقها، أشرفت خلالها على دماء أهل الحق تسيل بغزارة على مر الزمان، أهدرها أهل باطل، ظلت تشرق وستظل تشرق إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لأن الحق والباطل سيظلان يصطرعان في الحياة الدنيا إلى قيام الساعة.

خلاص، بدأت الأمور تتركب على بعضها، كل الأحداث تصب في خانة مصلحة الثوار، العالم يحترم الذي ينبذ العنف ويحترم السلام، النظام يضربهم على خد أيمن فيمدون له خدأ أيسر، النظام يحاول أن يسكت صوت سيمفونية الحرية، وهم يفرشون وروداً، يطلقون حماماً، ويلوحون بأغصان زيتون. ثورتهم غدت مدرسة، تعلم شعوب الأرض أدبيات وأخلاقيات ثورات شعبية بيضاء بياض الثلج، تسير في طريقها برأس مرفوع، لا يهتمها من هو معها، ولا من هو ضدها، يهتمها أولاً وأخيراً وأبداً مصلحة شعبها.

مر كعادته قبل موعد آذان صلاة الظهر في طريقه للمسجد على شلته النهارية. ثلاثتهم موجودون، لأنهم حريصون على الحضور، لا يتغيبون مهما كانت الأسباب والظروف التي تدعوهم لذلك، بعد أن حيا وجلس، طبعاً كرسي الحديد كان على أحر من الجمر في انتظاره، مازحهم قائلاً:

(أما آن لهذا الليل أن ينجلي، أما آن لهذا القيد أن ينكسر، أما آن لهذا الشعب أن يترجل؟).

رد الزعيم بنبرة لا تخلو من زهو وتيه:

(الليل انجلي والقيد انكسر، والشعب ترجل، يا خوي خلاص ما فضل حاجه، الخوف راح، الثوار من فوق أسقف البيوت رجموا الشياطين بالحجارة، رشقوهم بالنبل، أثبتوا لهم كيف تكون الرجالة عندما يتسلح الإنسان باليقين، وكيف يخور الظالم عندما يحمى وطيس المعركة).

رد أبو العباس بارتياح:

(القصة بقت مزاج شعبي عام، تسمع واحد: (يا أخوانا خرمانين بمبان)، وآخر: (الناس ينظرون إلينا باحترام، صرنا أبطالاً شعبيين، بعد أن كانوا يعدونا شماسة)، وآخر يقول له أمني رشتني بالمويه الصباح وقالت: (الراقد ليها شنو؟ سجم وشك، وإخوانك في الميدان، قوم موت معهم)).

رد الأستاذ بنبرة متفائلة:

(يا أخوانا ما يجري الآن في بلدنا، لا يعرف حقيقته إلا من يعيشه لحظة بلحظة، ما يجري شيء يفوق الوصف، كلما أفحش النظام في أساليب قمعه، كلما زاد دوران عجلة الثورة، وزاد زخمها).

رد الزعيم مستنكرا:

(النظام ياهو النظام، يلف ويدور جمل عصاره، في نفس المكان وب نفس الوجوه، إفلاس في الخبرات والكفاءات، وفي النقود، والأخلاق، والنتيجة الطبيعية، لازم تكون باي باي، (تسقط بس)).

رد شنيبو بنبرة مأكرة:

(يا أخوانا كلامي عارفه أعوج، كلام زول ساكت، أسمعوه من هنا وطلعوه من هنا (في أشياء كلما تتكلم وتنق فيها تكبر)).

رد الزعيم متبرما:

(الحال في حاله، في ناس لازم يكون عندها سيد، شيخ حلة، عمدة، رئيس لجنة شعبية، المهم زول من الأزوال يعبدوه زي الصنم، يعملوا ليه هيلة وهيلمان، يرفعوه فوق رؤوس الناس، وما يقبلوا فيه كلام أو نقد).

رد الأستاذ ساخرا:

(فرعون من الذي فرعنه؟ أليس شعبه، قال لهم أنا ربكم الأعلى، صدقوه، معيز الدنيا، بغالها، وحميرها ضحكت على غيابهم، وسذاجتهم، وجهلهم).

رد أبو العباس متسانلا:

(اليوم مالكم، كلامكم كله ماشي جهة الحمير؟).

رد الزعيم ساخرا:

(شنيبو عشان عنده حمار، ويفهم لغة الحمير، يريدنا أن نفكر كالحمير).

رد شنيبو بخبث:

(ناس المدينة يضحكوا على كلام ناس البادية، أضحكوا أشبعوا ضحك، ولكن المثل يقول: (حمار السوء إن جاع رفس وإن شبع نهق)).

نهض من جلسته، جرى نحو حماره الذي زهق من ربطته الطويلة، ومن عدم وجود حمارة في الجوار تؤانسه ويؤانسها، تحكي له عن جور صاحبها، ويحكي لها ودموعه تنقط عن جور شيخ العرب، فجأةً هز الحمار رقبتة بعنف، ركل برجليه الخلفيتين في الهواء، تحرر من رباطه، ومشى متبخترا في الشارع العام، قبل أن يعلقوا على ما جرى إذ بصوت الإقامة ينبههم للصلاة، أغلق أبو العباس محله على عجل، هرول شيخ العرب خلف حماره وهو يقول: (عووك، عووك يا حمار السجم، إذا ذهب الحمار بأمر عمرو.. فلا رجعت ولا رجع الحمار)، أم عمرو دي إنتو ديل يا بجم).

الأستاذ والزعيم مشيا نحو المسجد يدعوان في سرهما على الظالمين بأن يفتن الله فيما بينهم، لأنهم سراق، وإذا اختلف السراق ظهر المسروق، هؤلاء السراق سرقوا من عيون الناس الكحل، سرقوا منها النوم، ويدعون للثوار بالثبات والنصر المؤزر.

أمريكا، روسيا، دنا عذابها

تغييرات كبرى طرأت على خارطة المجال البحري في الشرق الأوسط، أصبح الوضع في البحر الأحمر بالغ الخطورة مع تنامي الصراع فيه، بلغ حد تهديد حركة تدفق النقل التجاري البحري بين الشرق والغرب، بدأت القوى العظمى، والإقليمية تتصارع لإيجاد مداخل وقواعد لها على سواحل الدول المطلة عليه ومن بينها بلدنا الحبيب.

في ظل استمرار الاحتجاجات، وجه رئيس لجنة العلاقات الخارجية في مجلس النواب الأمريكي، رسالة لوزير الخارجية الأمريكي، يطلب من خلالها تقريراً حول ممارسات أجهزة الأمن تجاه المتظاهرين، واعتبر أن الأحداث الأخيرة قد تكون لها تداعيات سلبية على المرحلة الثانية من الحوار الاستراتيجي بين البلدين، السبت السادس عشر من مارس زيارة وفد الكونجرس الأمريكي، طالبوا النظام بالإفراج عن معتقل يحمل جنسية أمريكية شارك في الاحتجاجات الأخيرة، والإفراج عن جميع السجناء السياسيين المحتجزين، وطالبوا بالدخول في مفاوضات بخصوص التعويضات المتعلقة بتفجيرات سفارتي دار السلام ونيروبي، والهجوم على المدمرة الأمريكية كول.

بعد زيارة الرئيس لروسيا وطلبه لبوتين بحمايته من أمريكا، بدأت روسيا في مساعدته على بناء قوة عسكرية رادعة، وظلت تسعى من أجل بناء قاعدة عسكرية على سواحل البحر الأحمر، السودان يثير أطماع روسيا النووية باحتياطيها من اليورانيوم، الشركات الروسية

مُنحت الأولوية في هذا المجال، رشح أخيراً أن مرتزقة روس يساعدون النظام في قمع المظاهرات.

كل هذه التحركات مع القوتين العظميين لا تتسق مع أدبيات النظام وشعاراته، على شاكلة (أمريكا روسيا قد دنا عذابها إن لاقيتها ضرابها)، التي أدخلت البلاد في متاهات يصعب الخروج منها في وجوده أو غيابه، فنظرة العالم حالياً أننا مجرد إرهابيين، بعد أن كنا نحظى بتقديرهم واحترامهم.

التأم شمل الشلة الثورية في يوم جديد من ثورتهم السلمية الظاهرة، أصبحت أخبار بلادهم تتصدر صفحات كبريات صحف العالم، يتناولها بتحليل معمق كبار محللين سياسيين، قنوات التلفزيون العالمية دأبت على تغطية الأحداث لحظة بلحظة، نقلاً مباشراً، رافق هذا الزخم الإعلامي زيارة لوفدين أمريكي وروسي، السياسة الدولية لعبة مصالح، هم لا يأتون حباً في عيون الثوار أو عيون النظام، لا يهمهم هذا ولا ذلك، تهمهم مصالحهم فقط، الأمريكان يبتزون النظام بورقة المحكمة الجنائية ضد الرئيس ليأخذوا منه كل ما يريدون من تنازلات، الروس يقدمون له الحماية ضد الأمريكان، وضد شعبه، ليجنوا ما يستطيعون من مكاسب.

النظام يعلم هكذا الأعيب ولكنه ضعيف معزول عن شعبه، في سبيل البقاء مستعد لتحالف مع أعداء أفواههم فاغرة لابتلاعه، ومع شيطان شياطين، إبليس نفسه، مع علمه أنه يضلّه ولن يهديه سواء السبيل، القوة الغاشمة يبيديها أمام شعب مسالم، أما أمام حكام عالم أقوياء، مستعمرين جدد، لا يظهر إلا ضعفاً، خوراً، ومذلة.

الشعب ذكي لمّاح، على وعي ودراية بالأعيب الداخل والخارج، ماض في طريقه، مصمم على تحقيق أهدافه، نعم يعلم أنهم جميعاً لن يتركوا سفينة حريته تمخر بسلام، سيثيرون في وجهها عواصفاً،

يزرعون ألغاماً بحرية، يصبون في طريقها كل ما يستطيعون من عراقيل، مع كل ذلك مصمم، ومستعد لتقديم تضحيات، مهما بلغ حجمها، ومستعد لقبول نكسات، مسيرته طويلة، والثورات مد وجزر، النتيجة الحتمية أن الغلبة في نهاية المطاف للحق الأبلج.

ابتدر أميرو الكلام متسائلا:

(سبحان الله، أمريكا، وروسيا، وأروبا، كل الخواجات، لعنة الله عليهم، وجوهم وجوه شر وخبث ومكر، بدأوا يهتمون ببلدنا، أين كانوا قبل الثورة؟).

رد عدولة بنبرة متفائلة:

(قربت، قربت، دنا قطفها، يا أخوانا الثورة دي غيرت حاجات كثير جوه وبره البلد، جوه، النظام انكسر خلاص، وبره، العالم عرف أنه في شعب مضطهد، يقوم بصناعة ثورة عظيمة، رغماً عن مواجهته لكم هائل من قمع وبطش).

رد الأستاذ باقتضاب:

(إذا الشعب يوماً أراد الحياة، لا بد أن تستجيب كل حكومات العالم).

رد أميرو مازحا:

(يا أخوانا، سبحان مغير الأحوال، عدولة حولته الثورة إلى فيلسوف، إلى أرسطو).

رد تفتيس بنبرة متحمسة:

(ثورتنا ثورة جد، مش لعب، ثورة سحرية، حولت كل شيء، حتى أطفالنا الصغار الذين يتبولون على فرشهم وملابسهم، جعلتهم يهتفون في لهوهم (تسقط بس)، الأمهات لما يغضبن منهم يسخرن يصرخن في وجوهمهم (غور يا سجم تسقط بس)، في بيوت الأفراح يغنون (وسقطت، ترم ترم، سقطت، تترم، تترم، وتسقط بس)).

رد شنو ساخرا:

يا أخوانا قالوا ظهرت فانيلات، مكتوب عليها (ميسي)، مكتوب عليها
(تسقط بس)).

رد عدولة بحنق:

(ميسي، يا حليل ميسي، ويا حليل موسى للرجال خوصة، ويا حليل
فنيلة ميسي، قربت، قربت، دنا قطاقها، فنيلة قال، (تسقط بس)، ميسي
قال، نيلة في ميسي وفنيلته، و(تسقط بس)، لا ميسي لا زفت، لابس
فنيلة إنت تبع النظام، ما لابسها، قناصة بالمرصاد، رصاصة
على طول).

رد أميرو ضاحكا:

(يا أخوي الشباب مخهم مش زفر، زي مخك، جوه البيوت لابسها
بالمقلوب، وبره البيوت بالعدلة).

رد تفتيس مازحا:

(الله يجازيك يا عدولة، بقيت من ناس كوميديا، فكاها وفاكها، يا ولد،
يا متمرد، يا أيها النمروذ، يا أيها الفرفور، نحيا ونشوف الثورة ح
تعمل منك إيه، جيفارا، مانديلا، عرفات، إن لله في خلقه شؤون،
يخرج الحي من الميت).

تساءل عدولة بأوداج نفخها الإطراء:

(الله يسامحك يعني أنا ميت يا ميت، ومع ذلك قربت، قربت، دنا
قطاقها، طيب يا جماعة، عرفنا بوتين وعينه على البحر الأحمر،
بترول، ذهب، ومعادن، وأمريكا دي عينها على شنو في بلدنا الخربان
الجربان ده؟).

رد أميرو مستنكرا:

(يا أبو مخ تخين، كلما رفعناك ل فوق تنزل لتحت، أمريكا سيدة العالم، مثلما الرئيس سيد البلد، جائية تلعب علينا لعبة الثلاث ورقات، لعبتها المفضلة، مأخذه فيها كأس العالم، (حرية، ديموقراطية، وحقوق إنسان)، من قيمها العليا، لا تلتزم بها، تلعب بيها ورقة ضغط عند اللزوم، قيمها كوم ومصالحها العليا كوم ثاني، المصالح أولاً ثم القيم ثانياً، عين حمراء هنا، وضحكة هناك، قرصة هنا وكمشة دولارات هناك، ويا دار ما دخلك شر، وتحت الترايبز تمر أجندة سرية خطيرة).

رد شنو ساخطا:

(ده مش أبو مخ تخين، ده أبو مخ ما في، ده كلام تقولوا).

رد وليد غاضبا:

(يا أخوي حكاية أمريكا دي لعبة من ألعيب النظام، في واحد منا متجنس بحريني، فاتح مكتب علاقات عامة هناك، في بلد أكبر تمثال حرية، اشتغل سمسار بين نظامنا وبينهم لعمل شغل استعراضى، قال أمريكا تموت في ريسنا، الجنائية في خبر كان، لأن الجنائية تطاولت شويتين، نسيت أنها والأمم المتحدة صناعة أمريكية، زي البوينج والهوت دوق، صنعنا لتأديب رؤساء دجالين، ولحماية جنود معصومين).

رد أبو علي بنبرة فرحة:

(أنتم قائلين الثوار بره مسطحين، لا والله فهمانين، يفهموها وهي طائرة، هربوا من الظلم هنا، والآن ينتسمون عبير الحرية هناك، مشطوا أمريكا شارع إثر شارع، حارة إثر حارة، زنفة إثر زنفة، زنقوا ناس النظام هناك، ضايقوهم، كرهوهم العيشة، قالوا ليهم: نحن هنا لكم بالمرصاد، من يحميكم يا قتلة هنا؟ أوصلوا صوتهم إلى البيت

الأبيض، جعلوا الشعب الأمريكي كله يغني معهم على أنغام الجاز (تسقط بس، ترم ترم ترم، وتسقط بس، ترم ترم)).

رد الأستاذ بنبرة لا تخلو من زهو وخيلاء:

(يا راجل ثوارنا يهتفون في أمريكا، في بريطانيا، في فرنسا، في بلجيكا، في النمسا، في ماليزيا، في أستراليا، في سقط لقط، في جزر واق واق، رافعين علمنا، خواجات، آسيويون، يرقصون ويهبصون معهم على أنغام (تسقط بس، ترم ترم ترم، وتسقط بس، ترم ترم)).

صمت لفترة، مر أمام عينيه شريط لمشاهد شعوب عربية، أفريقية، وآسيوية حولتهم تدخلات أجنبية إلى جماجم مقابر جماعية، لاجئين، نازحين، ومنتسولين، رواندا، الكونغو، سوريا، ليبيا، اليمن، التدخلات تأتي من جهتين، دول غربية، تملك قوة وسلاح، تهيمن على مؤسسات دولية، تتحكم بقراراتها في مصائر الشعوب؛ دول خليجية، تملك مالاً، تريد تكريس حكم فرد واحد، شعبه مجرد سوائم قطع من معيز.

قال في نفسه:

(نعم مسرحية حوارهم الوطني فشلت، عيون الأطراف المتحاوره على غنائم وليس على آلام، مآسي، وعذابات تطاولت على شعب مغلوب على أمره، تدخلات الأطراف الخارجية لن تأتيه بنتيجة مرضية، لأن هذه الأطراف معنية أولاً وأخيراً بإيجاد موطنٍ قدم لها في بلد دمره ظلم وفساد، أدرك الشعب أنه لن يظل في حالة لا حرب ولا سلم إلى الأبد، عليه أن يكسر بإرادته الحرة، هذا القيد، هذا الطوق، وهذه الدائرة الخبيثة).

ثم استطرد قائلاً:

(أها يا أيها الثوار، وسكنت شهرزاد الثورة عن الكلام المباح،
والصباح رباح، حل وقت النوم، ولا نامت أعين الجبناء، وتصبحون
على خير، وثورة حتى النصر، وتسقط بس).

قضى ليلته تلك وهو يجري مقارنات بين مجتمعات خواجهات
متقدمة، ومجتمعات عربية، أفريقية، وآسيوية متخلفة، الخواجهات
يعيشون حياةً مستقرة، منعمة، مرفهة، لأنهم معنيون بماضيهم،
حاضرهم، ومستقبلهم، مسيرة التطور عندهم مستمرة لأنهم نبذوا كل
خلافات تفرق بينهم، وعضدوا كل عوامل تجمع بينهم، ولأنهم
يرقصون، ويعنون ويهيجون، في عطلاتهم، ويعودون بعدها بهمة
عالية إلى ساحات عملهم وإنتاجهم، أما المتخلفون يعيشون حيات
أفضل منها حيات حيوانات أولئك الخواجهات، المتخلفون بعضهم
مخدر، يعيش على أمجاد ماضي بعيد، لا يستوعبون حاضراً ولا
مستقبلاً، بعضهم يتقاتلون في سبيل من منهم يحكم، جلمهم في عبودية
غيبوبة فكرية أن الخواجة هو السيد، وهو الأفضل.

أشرقت شمس النهار، قبل أن تشرق على أوروبا وأمريكا، مثلما
عندما كنا في عصور نور، وهم في عصور ظلام، الآن انقلبت الآية
هم صاروا كل شيء ونحن صرنا لا شيء، يتحكمون في قوتنا
وسلاحنا، وحتى في مزاجنا، وطريقة حلاقة شعر رؤوس شبابنا،
الأدهى والأمر يتحكمون حتى فيمن يحكمنا، من يهتم بمصالحهم
ويغضي الطرف عن مصالحنا، يدعمونه بقوة، لا يهم كيف أتى،
انقلاب، اغتيال، ديموقراطية مفبركة، المهم يبقى غصبا عن عين
شعبه عيناً ساهرةً يحركونها من مكانهم بالروموت كنترول.

خلاص، أصبحت الأمور مكشوفة للثوار، نعم، لا يستطيعون أن يغيروا قوانين اللعب في العالم، ولكن عليهم أن يتقنوا فن هذا اللعب، أن يأخذوا منهم ما يحقق أهدافهم، ويتركوا لهم ما يعطل مسيرتهم، نعم التوليفة صعبة، وتحتاج إلى جهد خارق، لأن الأطراف الدولية أكثر فهماً وحرَفنةً لما يعرف بلعبة الأمم.

مر كعادته قبل موعد آذان صلاة الظهر في طريقه للمسجد على شلته النهارية. ثلاثتهم موجودون، إلى أين يذهبون؟ مجبورون، إما إلى مظاهرات نقية جذابة، وذلك يحتاج إلى شدة وقوة تحمل، وهم فاقدون لها، أو الجلوس كمعيز في حظائرها، أو يأتون إلى هنا، نقّة الثورة ولا نقّة البيوت؛ بعد أن حيا وجلس فوق كرسي الحديد كرسي الملك والعز، خاطبهم قائلاً:

(يا أخوانا الروس والأمريكان وصلوا، دخلوا بلدنا، بلد دخلوها الجماعة ديل خليها وفوت، ديل ألعن من البوت، أي بلد دخلوها دمروها شر دمار، وفاتوا خلوها لصقور حدآن وغربان).

رد الزعيم بنبرة متشائمة:

(الله يكفينا شرهم، ديل جراد ساري الليل، أي بلد تتركب، هم جاهزون، فننن يطيرون عليها، يمصوها مص، لا يتركوا فيها أخضر ولا يابس).

رد أبو العباس قائلاً:

(ما على الثوار إلا أن يبلوهم سم جراد، يدوهم سم ثقيل، إما ريحنا من أذاهم أو أجبرهم على العودة من حيث أتوا).

رد شنيبو بخبث:

(أنا زول ساكت، كلامي اسمعوه وانسوه، قالوا في حمار زهق من ذيله قام قطعه، وبعدين قعد متحير يططق في أذنيه، بدون ذيل كيف يقدر يهش الذباب عن جسمه، أنا خائف ما صار على الحمار يصير عليكم).

رد الأستاذ مستنكراً:

(يا أخوانا شيخ العرب ده حكايته معنا شنو، قاعد لنا بالمرصاد، الكلمة بالكلمة، لا يفوت كلمة أبدا، يهرب مثل الثعلب، وبلدغ مثل العقرب).

رد الزعيم بنبرة حانقة:

(العقارب كلها ما زي بعض، في عقرب ود ناس، يقرصك قرصة خفيفة وتنوم نوم العافية، وفي عقرب ود ستين ألف كلب، إن قرصك على طول يوديك الآخرة).

رد أبو العباس متسائلاً:

(يعني الروس والأمريكان ديل عقارب؟).

أجابه الزعيم قائلاً:

(الروس، والأمريكان، والنظام كلهم عقارب، درجة أولى).

رد شنيبو بنبرته الماكرة:

(أنا مو متعلم، وكلامي أي كلام، لكن للمفهومية وللمعلومية، العقرب أنواع كثيرة، في عقرب الرمل، وعقرب الجبل، وعقرب الطين، في عقارب سامة، وعقارب غير سامة، وفي ناس تأكل عقارب، يعني العقارب تهرب منهم، وفي ناس سم العقرب عندهم مثل شراب المويه).

رد أبو العباس مازحاً:

(خذوا الحكمة من أفواه المجانين أرباب الحمير).

رد الأستاذ بنبرة ساخرة:

(أخوانا المصريين يقولون: ما تبقى حمار وتحوش الأفكار، خليك قنبلة دائما ما تبطل انفجار).

رد شنيبو بخبث:

(أنا زول عربي ساكت، لكن الحمار والله في نعمة، لأنه حائش لكثير من الأفكار، ولأنه إن طلعتها، ما في الناس الذين يفهمون ويقدرّون له هذه الأفكار).

نهق حماره نهيقا غير عادي، لم يسمعوا مثله من قبل، قالو له:

(اذهب وحل مشاكل حمارك المسكين، بدلا من أن تقعد تتفصح معنا).

رد قائلاً:

(حماري والله جاء الصباح رائق ومبسوط، مزاجه عشرة سنجة، رويان مويه، بطنه شبعانة عيش وبرسيم، ما نكد عليه إلا عيونكم الفي عيونه دي، ما نكد عليه إلا إز عاجكم، حميتو المقيّل الحلو، ما نكد عليه إلا وجوهكم الزفرة دي).

تركوه مع حماره وهرولوا نحو مسجدهم وقلوبهم تدعو للثوار بالمدد من عند الله، ناصر المستضعفين في الأرض إلى يوم الدين.

داخل وخارج

أصبحت الثورة صانعة أحداث، وفي نفس الوقت تتفاعل مع أحداث المنطقة والعالم، منظمات المجتمع المدني في تونس، طالبت باعتقال الرئيس فور وصوله إلى هناك لحضور جلسات قمة عربية على خلفية قرارات محكمة الجنايات الدولية، مظاهرات الأحد الموافق السابع عشر من مارس كانت حاشدة، نهائية وليالية، في وجود عضو الكونجرس الأمريكي، القصد منها أن ترى أمريكا بأعينها بطش النظام، وهضمه لحقوق الإنسان، وكذب إعلامه وتضليله للعالم.

مظاهرات الخميس الموافق الواحد وعشرين من نفس الشهر، مواكب العدالة، كانت حاشدة حسب وصف قنوات التلفزيون، أدخل الثوار أساليب جديدة، نبل، ورشق بحجارة، في الأحياء أدخلوا أسلوب اتخاذ أسطح المباني سواتر، يرشقون منها سيارات الأمن بالحجارة، تمادى النظام في قصر نظره، وغبائه، فكر في إعادة تخطيط أحياء بري، لأن طرقها الضيقة تعوق حركة مركباته العسكرية، ظهر موضوع حلايب على السطح مرة أخرى لأن الحكومة المصرية وقعت عقوداً مع شركات عالمية للتنقيب عن البترول والمعادن في المثالث المتنازع عليه بين البلدين، حاول النظام غض الطرف عنه لمدة طويلة بعد ضلوعه في محاولة اغتيال الرئيس المصري الأسبق حسني مبارك، رد النظام على الأمر رد عاجز ضعيف، صدور قرار رئاسي بحظر تخزين العملة الوطنية، والمتاجرة فيها، (للمواطن مليون جنيه وللجهة الاعتبارية خمسة مليون، في حالة المخالفة المصادرة والسجن لفترة أقصاها عشر سنوات).

الإسلام فوبيا أو إرهاب الإسلام، والتي تعني التحامل، والكرهية، والخوف من الإسلام أو المسلمين، دخلت كمصطلح في اللغة الإنجليزية في نهاية تسعينات القرن الماضي، أسفرت عن وجهها القبيح من خلال سلسلة من الأحداث التي هزت العالم في خلال هذا الشهر، مذبحه نيوزيلندا، تدمير المساجد في إنجلترا، وحرقت القرآن على يد رئيس حزب يميني متطرف في الدنمارك.

ظاهرة الفقر في السودان لها شواهد عديدة، منها أطفال الشوارع الذين يعيشون في مجموعات خارجة على القانون، لهم طقوسهم وعاداتهم وتقاليدهم الخاصة، كيفهم السلس يون، دمر صحتهم وعافيتهم، جعلهم يمشون مجانين، يندشون مكبات النفايات بحثاً عن طعام أو أي شيء ذو قيمة، ثمانية منهم مهنتهم جمع الخردة المعدنية، قضاوا في انفجار جسم غريب كان مدفوناً بين الأنقاض.

الخميس الموافق الثامن والعشرين من نفس الشهر شهد خروج مواكب حاشدة بشعار الحياة للأطفال، كرد فعل من الثوار على إهمال دولة متعمد لهذه الشريحة الضعيفة من المجتمع، لكسر الجمود في الوضع السياسي الراهن في البلاد، تقدمت الحكومتان الكندية والأسترالية بمبادرة لم تلق القبول من كل الأطراف.

جمعة اليوم التالي شهدت مباراة المريخ السوداني والنجم الساحلي التونسي بإستاد المريخ بأمر درمان، تحولت الهتافات من تشجيع للعبة إلى هتافات سياسية (تسقط بس)، سيرت الجماهير الثائرة مواكبها الهادرة خارج الإستاد.

التأم شمل الشلة الثورية في يوم جديد من أيام لن نقول أنها ستكون (أياماً مضت) ولكننا نقول (لن ننسى ذكراها)، أيام مصبوغة بدم، مروية بعرق، مشبعة بكفاح ونضال، تداخلت فيها الأحداث بشكل رهيب، السؤال الذي يطرح نفسه هل يوجد رابط ما بين ما يجري في

بلادنا، والجزائر، وغزة، وفرنسا، وبريطانيا، والدنمارك، وفنزويلا، ونيوزيلندا من أحداث؟، الإجابة قطعاً نعم، لم يعد العالم كما كان في السابق مجتمعات معزولة عن بعضها البعض، أي حدث اليوم يحدث في أي بقعة فيه، نتيجة لتفاعل عوامل ومؤثرات عالمية ظاهرة وخفية، قديمة وجديدة، تتولد منه ردود أفعال في باقي أنحاء العالم.

النظام في ظل هرج ومرج يجتاح العالم، محشور في ركن لا يحسد عليه، حلايب، شماسه، كورة، وثورة أطفال حجارة.

شعب بطل، يختزن من رصيده الثوري القديم الكثير، يعينه على تبصر المزالق، والحفر، التي يصنعها الداخل والخارج لعرقلة مسيرته المقدسة، ومنعه من بلوغ مبتغاه، يملك القدرة على خلق وإبداع أساليب، آليات، وأدوات تذهل عدو الداخل والخارج قبل الصديق، إرادة وتصميم يحركان الجبال، وفوق هذا وذاك أكفه مرفوعة يطلب العون من رحيم بالمظلومين، ربهم ورب آبائهم الأولين.

ابتدر أميرو الكلام قائلاً:

(الله، الله أكبر، دنيا دبنقه دردقي بشيش، الحكاية خربت جوه وبره، يتخبطون كمجانين، ظهرت بينهم الخلافات، على الثوار اغتنامها، قدموا تنازلات كثيرة، مرفوضة لأنها الأعيب، تحايل لامتصاص مد ثوري بات حركة جماعية لكل الشعب).

رد عدولة بنبرة طارت من الفرحة:

(قربت، قربت، دنا قطافها، يا أخوانا حبل الظلم قصير، ثلاثين سنة، ونحن غرباء في بلادنا، لما نشم نسم الحرية نعمل كيف؟ لما نكسر حاجز الخوف نعمل كيف؟ لما نشوف الظالم يترنح نعمل كيف؟ لن تسعنا الفرحة، لن تسعنا أرض الوطن، لن يسعنا العالم كله، ياهو ده انحنا الغبش، يا أيها الكجر، ويا أيها العجر).

رد تفتيس بنبرة باسمة فرحة:

(معنوياتنا بالأمس في الأرض، أما اليوم الحمد لله، في السماء، يا ما أنت كريم يا رب، كل يوم يأتينا مددك، رحمتك شملت كل شيء).

رد وليد ساخرا:

(ربنا سخر المصريين في اليومين دي، أخرجوهم بقصة حلايب، لا قادرين يتكلموا ولا يسكتوا، الثوار يقولون: (حقارتي بس بوليد مرتي)، و(المديدة حرقنتي منو البشيله مني)، حمالتك علي عاملين (أضان الحامل طرشه) نائمين في ضل الضحا، لا مديدة، لا روب، ولا أدروب، فانت وين الدايرنا يجي يقلعنا).

رد شنو في نبرة واثقة:

(يا أخوانا الحاصل شنو، حالتنا دي سموها الأمريكان الفوضى الخلاقة، والفوضى درجات، الحمد لله نحن في درجة معقولة، ولكن المهم، عارفين هذه الفوضى ستقود في النهاية إلى شنو، إلى زوالهم، يتباهون بقوتهم وتماسكهم، وأن المظاهرات لعب عيال، لن تهز شعرةً في رؤوسهم، وأنهم سيخرجون أكثر قوة ومتانة، صدقوني، ده كله كذب في كذب، الصحيح عكس ما يقولون، والأيام بيننا وبينهم، والحساب ولد).

رد أبو علي بنبرة لا تخلو من شعور براحة:

(ناس الكورة قلبوها ثورة، لا هلالنا فوق، لا مريخنا فوق، تسقط بس هي الفوق).

رد سولومون ضاحكا:

(خلي ناس الكورة، تعال للشماسة، وأطفال الشوارع العائشين في عالم ثاني، تركوا عالمهم وعادوا لعالمنا، بوعي أو بدون وعي يهتفون، وهم يتعاركون أو يتخاطفون الكارتا، تسقط بس، وبس، وبس، والكدايس من حولهم تموء بس، بس، بس).

رد عدولة بمرارة:

(قربت، قربت، دنا قطفها، يا أخوانا ثلاثين سنة تحت ضغط عنيف، وكبت مخيف، وظلم بائن، نصف أهل البلد تحولوا إلى شماسة، مساطيل، مجانيين، مخبولين، متسولين، ماشين بدون رسين).

رد تفتيس متسائلا:

(والنص الثاني عامل كيف؟).

رد شنو بنبرة ساخطة:

(واحدين عارف شنو كسحوا، هجوا خلوا البلد، ساحوا في أرض الله الواسعة، واحدین قعدوا راضين بقسمة رزق اليوم باليوم، واحدین كان دار أبوك خربت شيل ليك منها شيلة، أما أسياد البلد، ناس الحل والعدق، يخلبوا في البقرة، البقرة المريضة العجفاء، بقرة تغم الناظرين، يشربوا السم).

رد الأمير بنبرة مقتضبة:

(البقرة لبنها قَطَّ طَبَّ، أهملوها، لا علف، ولا رعاية، بقت تحلب دم).

رد الأستاذ قائلا:

(يا أخوانا لنا في التاريخ عبر ودروس، سنة الله ماضية في الكون، في خلال ثلاثين سنة فعلوا كل ما يريدون أن يفعلوه، وصلوا قمة جبل الجيروت والطغيان، وصلوا قمة الفحش في غنى، وصلوا قمة كل شيء، وماذا بعد القمة؟ ما بعدها إلا الانحدار، ثم السقوط، والسقوط أسرع مما يتخيلون، شعب فجر ثورتين لن يغلبه تفجير ثالثة).

صمت لفترة، مر أمام عينيهِ شريط لمشاهد ثوار يسقطون حكومة الجنرال عبود في أكتوبر، تلاحم الشعب تلاحما فريدا، بمختلف أطيافه السياسية، وأعراقه، وألوانه، ودياناته، في حدث مجلج هز العالم، نسوة بأثواب بيض، رجال بعراييق، وجيب، وعمائم، يحملون فروع أشجار نيم، يجوبون شوارع، يهتفون هتافاً شهيراً (إلى القصر حتى النصر)، مر أمامه شريط مظاهرات ثوار أبريل، في توقيت واحد

جابت مظاهرات شوارع أربع مدن سودانية، الخرطوم، الأبيض، عطبرة، وود مدني، ثم عمت بعد ذلك جميع ربوع السودان، إضراب ثلاث فئات عمالية، مهن صحية، عمال سكة حديد، وقضاء، ثم سارعت باقي نقابات العمال والموظفين بإعلان الإضراب، بلغ الغضب الشعبي مداه ضد سلطة أخفقت في قيام بواجباتها تجاه مواطنيها، شعارات الثورة الغاضبة (رأس نميري مطلب شعبي)، (لن تترتاح يا سفاح)، (وينو، وينو، السفاح شرد)، (الحل، الحل لجهاز الأمن)، التزم الجيش الحياد طيلة أيام المظاهرات كونها مؤسسة قومية، الساعة الثالثة والنصف صباح يوم السبت السادس من أبريل كانت هي لحظة إعلان انحيازها للشعب، ونهاية عهد المشير، ومنظومة مايو.

قال في نفسه: (نعم شعب بهذه إرادة وجسارة، سيفعلها للمرة الثالثة، والرابعة، وسيفعلها لعشرات المرات، شعب أبي، مرفوع الهامة، لا يرضى ذل ومهانة، زاده ووقوده ثورتان أذهلتا العالم، إرثه تليد مجيد في صنع الثورات، متى ما توفرت له الأسباب، ظلم، قمع، وتسلط، فإنه على أهبة الاستعداد للثورة، مارد جبار، يقتلع كل عنف، وسخ، وزبالة).

ثم استنطرد قائلاً:

(أها يا أيها الأحرار جاء وقت السكون، وسكنت شهرزاد الثورة عن الكلام المباح، والصباح رباح، ولا نامت أعين الجبناء، وتصبحون على خير، وثورة حتى النصر، وتسقط بس).

قضى ليلته تلك وهو يغوص في بحور ثورات ثلاث، يبحث عن اللؤلؤ والمرجان، كلها اندلعت وعلى رأس هرم النظام جنرال، كلها اندلعت وأوضاع الناس المعيشية أسوأ ما يكون، عدد الضحايا في تزايد من ثورة لأخرى، بعد كل ثورة تأتي حكومة مدنية، يعقبها

انقلاب عسكري، دائرة خبيثة ابتلي بها شعب طيب، صعب الفكاك منها، السؤال إلى متى هكذا حال؟ دول ظروفها شبيهة بظروفنا، نالت استقلالها من بعدنا، مواردها أضعف من مواردنا، تطورت، سبقتنا بمراحل بعيدة في كافة مجالات النماء، ونحن ما زلنا لا نعرف كيف نحكم أنفسنا، ولا نملك القدرة على توفير غذاءنا، ملابسنا، وسلاحنا.

أشرقت شمس النهار، كما أشرقت من قبل في صباح كل من واحد وعشرين أكتوبر قبل ستين سنة، والسادس من أبريل قبل تسعة وثلاثين سنة، الشمس هي الشمس لا تتغير، والشعب هو الشعب، ولكنه في كل مرة يكون أكثر وعياً، وامتلاكاً لأساليب تكنولوجية حديثة، عدو الشعب واحد، لكنه في كل مرة يكون أكثر دهاءً وشراسة، نهاية الفلم ثابتة، يموت الخائن عدو الشعب، ويحيا الشعب البطل.

خلاص، طريق الثورة أصبح واضح المعالم، سار عليه الشعب مرتين فوصل بتوفيق من الله سالماً إلى منتهاه، ما عليه إلا أن يسلك نفس الطريق لا يحيد أبداً عنه، صحيح به مطبات، حفر، وألغام، ولكنه بالعزيمة والإصرار، قادر على تجاوزها جميعاً، مهما عظم حجم التحديات.

مر كعادته قبل موعد آذان صلاة الظهر في طريقه للمسجد على شلته النهارية، ثلاثتهم جالسون، بدا وكأنهم في انتظاره يتربقون وصوله، صاروا إخوة كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، وحدثهم الثورة بعد أن كانوا أشتاتا متفرقين ينبذ كل منهم الآخر، وبعد أن ألقى التحية وجلس على كرسي الحديد، كرسي الملوك الغابرين خاطبهم قائلاً:

(أخونا الزعيم، مد الله في عمره من الذين عاصروا الثلاث ثورات، أكتوبر، وأبريل، وديسمبر، يعني صاحب خبرة وتجربة في الثورات، يلا أضرب أخماسك في أسداسك، ورينا الأمور ماشه على وين يا أبو الشباب، الحكاية طالت ده الشهر الثالث، وداخلين على الرابع).

رد الزعيم بنبرة واثقة:

(كل هذه الأنظمة كانت تبدو قويةً متماسكة، ماسكة بزمام الأمور حتى ربع الساعة الأخيرة، في هذا الأثناء يجري في الخفاء في الغرف المظلمة ما يجري، فجأة تسمعون صوت مارش السلطان علي دينار، (ترتي.. ترتي.. ترتتا... ترر.. تتررا.. تررا..تررتا.. ترتررتا.. ترتررتا.. ترتررتا)، وينتهي الأمر كأن لم يكن هناك زيطة ولا زمبليطه).

رد الأستاذ قائلاً:

(يعني يا زعيم خلاص الثوار يرقدوا قفا، (ترتي.. ترتي.. تررتا) قربت، في الساعة ديك كل فأر يدخل جحره).

رد أبو العباس قائلاً:

(تحليل جميل يا زعيم، لكن هذه المرة خصم الثوار عنيد، عمل كل احتياطات لازمة لمواجهة مثل هذا اليوم، أجهزة أمنية رسمية، وموازية، ومليشيات مسلحة، أمن شعبي، كتائب ظل، ملثمين، وهلم جرا).

رد الزعيم قائلاً:

(هلم جرا دي حلوة، سرقتها من وين يا حرامي، غيرهم كان أشطر، غيرهم كان أقوى، ذهبوا كلهم مع رياح الثورة، غير مأسوف عليهم وبقي الشعب).

رد شنيبو بخبث:

(أنا كلامي عارفه ما عنده قيمة، لكن حرم نقوله، العجبُ عجبوا والمأ عجبوا إن شاء الله ما يعجبوا (إذا أدبرت بال الحمار على رأس الأسد، والغنماية تلحس قفاه)).

رد الأستاذ بنبرة مستنكرة:

(يا شيخ العرب الشعب غلط غلطة كبيرة جدا، من البداية سكت على الحبة لمن بقت قبة، والمثل يقول (الراجل أفجخي بصلة قبل ما يبقى أصلة)).

رد أبو العباس قائلاً:

(يا أخوانا المال السائب يعلم السرقة، المال العام نهب للحرامية إلا من رحم ربي، لا موظف، لا عسكري، ولا تاجر خائف من الله، أولاد صغار تملكوا الأبيض، والأصفر، والأخضر، في غياب قانون من أين لك هذا، وحاميتها حراميتها، حتماً، ولا بد، وقسما بالله يعم الفساد البر والبحر والجو كمان).

رد الزعيم قائلاً:

(زمن عبود في حرامية، لكنهم قليل، والخمش بسيط، والحكاية مستورة، في زمن أبعاج حرامية بالدس، إن مسكهم الله قال بي قولهم، أما في الزمن ده الحكاية بقت على عينك يا تاجر، ده ود عم ده، ده ود خالة ده، ده مننا، ده من تنظيمنا، ده بلدياتنا، والنظام يقول لشعب منهوب منهوك: (من يملك مستندات ضد حرامي يبقى راجل ويتقدم بيها للمحكمة)، وريسهم الهمام بعظمة لسانه يقول: (ما جري من فساد في أراضي الدولة في عهدنا لم يحدث في أي عهد سابق)).

رد شنيبو بلهجة متحدية:

(يا ناس هوي كلامكم بقي كثير، أنا سامعه كله، لكن كلامي ما في زولاً بسمعه، ما أنا عربي أمي ساكت، كلامي لازم توقعوه الواطه (الحمير ما بتمشي إلا بالقوة وكذلك الشعوب المتلكم عشان تمشي لا بد من حكمها بالقوة)).

رد أبو العباس وابتساماً عابرة تغمر وجهه:
(يا أخوانا الحكاية شنو، الناس تكون فاتحة موجة معينة، يطلع شيخ
العرب يفتح موجة ثانية حسب مزاجه).

رد الأستاذ بنبرة مازحة:
(الظاهر حكاية أمي، لا يقرأ، ولا يكتب، ولا يعرف فيس بوك، ولا
وات ساب، عاملة لشيخ العرب عقدة).

رد شنيبو بخبث:
(فعلاً أنا عربي ساكت، وأمي، وحماري حمار عرب ساكت، وأمي،
اعتبروني حمار من الحمير المتقفة المحظوظة، لأنه (أي عالم لا بد
من يبقى حمار بعد مجالستكم والاستماع لكم)).

رد الأستاذ قائلاً:
(الحمد لله يا شيخ العرب إنك أمي، لو كنت متعلم، كنت حكمت البلد،
خليتها تمشي عدل زي الحمير).

رد شنيبو بنبرة مقتضبة لا تخلو من ذكاء فطري:
(الرئاسة تطير، كان فيها خير ما كان رماها الطير).
نهق حماره، وقف وقال:

(هل فهتمم ماذا يقول حماري؟ يقول حبل رباطه قصير، يطولوه ليهو
شوية، عشان يلقى راحته، الظاهر عليكم أنتم كمان حبال رباطكم
قصيرة، عياطكم، ولغظكم، وصخبكم كثير).

تركوه مع حماره وهرولوا نحو مسجدهم وقلوبهم تدعو للثوار
بأن يعجل الله لهم نصراً مؤزراً، لا يبقي ولا يذر لدولة ظلم
طغى وانتشر.

من خرطوم، إلى كراكاس، عبر جزائر، باريس، لندن

خمسٌ من عواصم العالم شهدت سلسلة احتجاجات متزامنة في وقت واحد، بنظرة ثاقبة متأنية لتقصي أوجه شبه واختلاف بين احتجاجاتهم واحتجاجاتنا، احتجاجاتنا ضد نظام حكم عمره ثلاثين سنة، الجزائر نظامهم عمره عشرين سنة، فنزويلا نظامهم متهم باستلام سلطة عبر انتخابات مزورة، فرنسا يطالبون بتخفيض ضرائب، تحسين أوضاع معيشية، وإجراء إصلاحات اقتصادية ضرورية، بريطانيا يطالبون بإجراء استفتاء جديد على خروجهم من الاتحاد الأوروبي، كل هذه الاحتجاجات تستحق بجدارة اسم (ثورات شبابية)، لأنهم هم من يقودونها ويحركونها، واسم (ثورات سلمية) ما عدا بعض تشوهات حدثت في الجزائر وفرنسا، واجه النظام الاحتجاجات بعنف مفرط أدى إلى سقوط عشرات الشهداء، وباعتقالات تعسفية، وبمحاكم طوارئ، الجزائر واجهتها بعنف ناعم خراطيم مياه، ومسيل دموع، فرنسا واجهتها بعنف في نعومة حرير، بخراطيم مياه، بريطانيا واجهتها في نعومة أنعم من الحرير، فنزويلا، عقلية ريسهم الأمنية لا تختلف عن عقلية ريسنا، القاسم المشترك بينهما الضرب بيد من حديد، بلدنا يختلف عن كل هذه الدول، صراعات مسلحة في بعض الأماكن أضعفت من جيشه، وانعدام ثقة شعبه في نظام قرر رأسه الترشح ضاربا بالدستور عرض الحائط، يتأرجح بين حزب وجيش وميليشيا يبحث عن حامى وضامن لبقائه في السلطة، القاسم المشترك بين كل هذه الثورات، أن ثورة الاتصالات،

الثورة الرقمية، الشبكة العنكبوتية (الإنترنت)، الحواسيب، والهواتف الذكية المرتبطة بالإنترنت عبر الأقمار الصناعية، أدوات في يد الشعوب تديرها بنفسها وليست الحكومات، المضايقات التي تمارسها الحكومات على برامج التواصل الاجتماعي (تويتر، فيسبوك، واتساب) تعكس مدى خوفها وقلقها، هذه الاحتجاجات من الخرطوم مرورا بالجزائر، ثم باريس، ولندن، إلى كراكاس، جعلت حكوماتٍ وعروشا استبدادية هشة ترتجف وترتعد، وهامات شعوب مسحوقة ترتفع إلى عنان السماء.

التأم شمل الشلة الثورية في يوم جديد، حفر فيه الثوار بأظفارهم ملحمة من ملاحم صمود خالدة، واجهوا عدوا استخدم في وجوههم كل ما يستطيع من وسائل قمع مادية ومعنوية، عدو لا يفهم إلا لغة رصاص، ضرب، وسحل؛ المضحك المبكي يتم ذلك باسم الدين، والدين بريء من مثل هذه الأفعال الهمجية براءة الذئب من دم بن يعقوب، في بلاد الكفر، بلاد الصليبيين يستخدمون أساليباً ناعمة ضد المحتجين، أما في بلاد الإيمان بلاد الدين، الذي انتشر ولم ينتشر بحد السيف، يستخدمون أساليب في منتهى الوحشية، غايتها تدميراً، دكاً، ومحواً للإنسان من الوجود.

نسي النظام أن العالم أصبح أصغر من قرية صغيرة، ثورة اتصالات وثورة رقمية جعلتا من أي تائر يملك هاتفا ذكيا، صحفيا، وإعلاميا، ومراسلا حريبا، يلتقط الصورة في لحظة خاطفة، يرسلها مباشرة إلى قنوات تلفزيون عالمية، يعني أية حركة إرهابية يأتي بها أي نظام أضحت مكشوفة لا قدرة له على إخفاء أو تستر عليها، كل هذا مكن الثوار من إيصال صوتهم للعالم، شارحين قضيتهم وتمسكهم بمبدأ السلمية، التي لن يحدوا عنها، مهما تصاعدت وتيرة البطش.

الثورة الشعبية كما استخدمت وسائل التكنولوجيا الحديثة، تنادى لها اخوتهم المشتتون في جميع أصقاع الأرض، فجروا بدورهم الثورة في كل مكان تواجدوا فيه، تضامنت معهم الشعوب، احترمتهم لأنهم ينحدرون من شعب ثائر ندر وجوده بين الشعوب، شعب يمتلك من قيم وكرامه وأخلاق رصيد لا ينفد أبداً، شعب شعار ثورته سلمية، حرية، كرامة، وعدالة، سبحان الله إنها ثورة تقفز فوق كل الحدود الجيوسياسية، ثورة تملأ الفضاء، تملأ الأرض، تملأ كل الكون.
ابتدر أميرو الكلام قائلاً:

(يا أخوانا والله الواحد فينا لما ينظر لصور مظاهراتنا، والجزائر، وفرنسا، يتعجب، مظاهراتنا معارك كر وفر بين مسعورين مدججين بسلاح وثوار عزل، ومظاهراتهم عسل ولبن، عند الضرورة القصوى لأجل تفريقهم يرشوهم بخراطيش المياه).
رد تقطيس بنبرة حائقة:

(من هم هؤلاء المسعورون الذين يفتكون بالمتظاهرين؟ إنهم أمن شعبي، كتائب ظل، وملثمون غير معروف لهم أصل ولا فصل).
رد عدولة بنبرته المتفائلة قائلاً:

(قربت، قربت، دنا قطاقها، والله لا ينفعهم ده، ولا ده، خلاص الشعب قال كلمته، ثورة حتى النصر، وتسقط بس).
رد أبو علي قائلاً:

(يا جماعة، الإنترنت ده في ولا ما في، ما دام في، قيامتهم قامت، قطارهم صفر، خلاص باي باي، كفاية ثلاثين سنة، إن قاعدين بينوا في إرم ذات العماد كان بنوها).

رد وليد قائلاً:

(الإنترنت ده، حاجة خطيرة، حاولوا يعطلوه بأي طريقة، ولكنهم فشلوا فشل ذريع، شباب الثورة أذكى منهم بألف مليون مرة، ده شباب واتساب وتويتر وفيسبوك، يجنن الجن الأزرق).

رد الأستاذ قائلاً:

(يا أخوانا عندي ليكم معادلة صحيحة مائة في المائة، شباب غيور مؤمن بقضيته، زانداً معرفة تكنولوجيا متقدمة، زانداً إرادة قوة وجسارة، نتيجتها واحدة، تساوي نصر مؤكد).

رد أبو علي قائلاً:

(يا سلام عليك يا أستاذ، المعادلة دي جبتها من وين، لا في كتاب رياضيات ولا كيمياء ولا فيزياء، ده جيل خطير، الشافع الصغير إن مسك التلفون، يطلع ليك حاجات تحيرك، يجرجك، يطلعك أمي ما فاهم حاجة).

رد أميرو قائلاً:

(فعلا المفاهيم تغيرت في الزمن الحالي، الأمي ليس هو الشخص الذي لا يقرأ ولا يكتب، إنما الأمي هو من لا يعرف استخدام الحاسوب والهاتف الذكي).

رد تفتيس بنبرة منشرحة:

(عقلياتهم قديمة، ديناصورات، عفا عليها الزمن، تواجه في سبيل البقاء عقليات جديدة، مستنيرة، ذكية، متفتحة على الحياة).

رد عدولة بنبرة شامته:

(قربت، قربت، دنا قطافها، الديناصورات انقرضت في كل أنحاء العالم إلا في بلدنا، ما زالت تقاوم بضراوة خطر الانقراض، يعني ماشين عكس التيار، ماشين عكس الهواء، ماشين عكس سنة الحياة التي تقول البقاء للأصلح).

رد سولومون بنبرة غاضبة، بأوداج منتفخة قائلاً:
(البلطجة، والقرصنة، وسوء الأدب عمرها ما جابت نتيجة).
رد الأستاذ قائلاً:

(يا أخوانا الثورات لم تعد مجرد مواجهات بين مسحوقين ومستبدين،
لم تعد مجرد رصاص، مسيل دموع، كرباج، وكر وفر، لأ ثم لأ،
هناك مواجهات إعلامية شرسة، سلاحها حجج متماسكة، أدلة منطقية،
وبراهين عقلانية، العالم لا يفهم خزعبلات غوغائية، الدنيا تغيرت،
الأمور تشابكت وتعقدت).

صمت لفترة، مرّ أمام عينيه شريط لإخوة للثوار في مهاجر
قصية، يأتون من كل فج بعيد، يتجمعون في مكان واحد يلوحون بعلم
بلدهم الحبيب، يهتفون لحرية بيضاء، ينظمون مهرجانات تبين
مضامين ثورة سلمية، يضحون بوقت ومال، يعيشون ثورة أحاسيس
ومشاعر، همهم، شاعلمهم، وهدفهم الأوحد نجاحها مهما غلى ما
يدفعون من أثمان، خاطبوا الأمم المتحدة، الحكومات، الشعوب،
ومنظمات حقوق الإنسان، شرحوا لهم أبعاد القضية، طلبوا منهم سنداً
وعضداً ودعماً؛ مر شريط آخر، لآخرين منهم، يجرون اتصالات
مضنية، يجمعون معلومات عن أحداث تجري في بلادهم، يقومون
بتحليلها بطرق علمية معمقة، يواجهون بها رموز إعلام كذب، نفاق،
وضلال، على شاشات قنوات تلفزيونية، وعلى صفحات صحف
محترمة تلهث وراء الحقيقة، تقول لهم هل من مزيد، مر شريط آخر
لعلماء وخبراء منهم، يضعون استراتيجيات، خطط، وبرامج، لانتشال
بلادهم من وهبتها التي وقعت فيها، فأعدتها عن بلوغ تطور، تقدم،
ورفاه مثل سائر الأمم.

قال في نفسه: (شعب يمثل هذا الفهم، وهذا الوعي، وهذه الحداثة إنه لشعب يملك القدرة على قهر أي فرعون، وطاغوت، ومتجبر، إنه لشعب يعرف كيف ينتزع حقوقه من برائن مستبدين).

ثم استطرد قائلاً:

(أها أيها الأحرار الثوار، جاءت ساعة الهجوع، ونسيان البكاء والدموع، وسكنت شهرزاد الثورة عن الكلام المباح، والصبح رباح، ولا نامت أعين الجبناء، وتصبحون على خير، وثورة حتى النصر، وتسقط بس).

قضى ليلته تلك وهو يحاول أن يفهم الروابط التي تربط ما بين ثوار داخل وخارج، إنهم فتية جمع بينهم حب وطن، ثوار الداخل يكتوون بنار أزمات اقتصادية، وسياسية، يعيشون غرباء في بلاد اختطفها فئة قليلة، شكلتها، وصاغتها، ووجهتها كما تريد، أورثتها فاقة، فقر، جوع، ومرض؛ ثوار الخارج عانوا الأمرين حينما كانوا يعيشون داخل بلادهم، ولما ضاق بهم الحال ركبوا الصعب، ركبوا البحر فراراً من جحيم وبحثاً عن جنة مفقودة، لعلمهم يجدونها في مكان آخر، الاثنان الرابطة بينهما، حب وطن جميل، وحلم بوطن عزيز شامخ، يسع الجميع كطيور مغردة في عش أنيق هادئ، يوفر لهم حياة حرة كريمة.

أشرقت شمس النهار على ثوار داخل أولاً، ومن بعدهم على ثوار خارج وراء البحار، في الداخل، تحت أشعتها الحارقة، كتب الثوار تاريخاً ناصعاً باحتجاجاتهم، ومظاهراتهم، وحراكهم، وفي الخارج، تحت أشعتها الدافئة، أضاف الثوار سطوراً مشرقة لما كتبه إخوانهم في الداخل.

خلاص، ضاقت حلقات الثورة على النظام داخليا وخارجيا،
حاضنته الشعبية معزولة ممقوتة، الشعب لا يحب أو يكره بدون
أسباب، ثلاثون سنة، والتوجه الحضاري انتهى بدولة يحكمها قطط
سمان، غابت فيها شفافية، رقابة، مساءلة، وقانون.

مر كعادته قبل موعد أذان صلاة الظهر في طريقه للمسجد على
شلتته النهارية، ثلاثتهم كأفيال بحر مكومون، ليس لهم شاغل هذه الأيام
إلا تتبع والتقاط أخبار الثورة، التي يأملون أن تعيد لكل أمر مائل
نصابه، وتحقق حياة كريمة لشعب عزيز لا يستحق مرمطة، ذل،
وهوان، عسى ولعل أن تجعلهم يفارقون الدنيا وهم عنها راضين.
جلس على كرسي الحديد، ملك الفولاذ والمعادن النفيسة بعد أن ألقى
التحية، خاطبهم باسمًا قائلا:

(سلام من صبا بردى أرق ودمع لا يكفكف يا دمشق، قالوا لكم إن هم
راحوا والله تروحوا روحة ما بعدها روحة، تصيرون شذاذ آفاق
كالسوريين أهل دمشق، واليمنيين أهل صنعاء، وتصبحون مضربا
للمثل في بؤس، وتيه، وضياع).

رد الزعيم بنبرة غاضبة:

(يخوفونا بسوريا ويمن، غيرهم كان أشطر، (دخان غيرك يعور
عينك)، الشعوب ما كلها حاجة واحدة، هل أصابع اليد الواحدة
متساوية؟).

رد أبو العباس قائلا:

(يعني معنى الحديث، إما تكونوا شذاذ آفاق تتيهون في الجهات الأربع،
ويا السمع والطاعة، اختاروا بينهما، لا ثالث لهما).

رد شنيبو بمكره المعهود:

(أنا عربي ساكت وأنتم ناس محترمين، وكلامي ده لولا أنكم محترمين
ما قلته، (المطرة لما تنزل ما بتشاور بيوت الطين)).

رد الزعيم بنبرة متحيرة قائلاً:

(الزول العربي ده أبدا ما تقدر تمسكوا، تجيئه من هنا، يجيئك من هناك، كلامه مُعلَب جاهَز، أي كلمة عنده ليها غطاية).

رد أبو العباس بنبرة مقتضبة قائلاً:

(من عاشر قوما أربعين يوماً صار منهم).

رد شنيبو بخبث:

(شوفوا يا جماعة الخير، أنا مو متعلم لكني أفهمها وهي طائرة، حماراً أركبه أحسن من مائة حصان يرموني على الأرض)).

رد الأستاذ قائلاً:

(يا أخونا هوي خلونا من قصص شنيبو الميتة دي، ما شفتم إخوة لنا في أوروبا وأمريكا عاملين كيف، ديل عاملين حاجات لا تخطر على بال واحد منكم، لولا ميان فخمة، وشوارع نظيفة لا تشبه شوارعنا، وخواجات، لظننت أنهم يتظاهرون في شوارع أم درمان، إنهم ينقلون الثورة، روحها وزخمها، إلى هناك).

رد الزعيم بنبرة فرحة:

(الثوار هنا مثقفون، مهنيون، أطباء، صيادلة، ومهندسون، وغيرهم كثير، وكذلك هناك، عقول جبارة، لو عادوا إلينا، لتغير حالنا، ولأكلنا من فوقنا وتحتنا).

رد شنيبو قائلاً بخبث:

(أنا أمي وود ستين ألف أمي، ولكن هه (القلم ما بزيل بلم)).

في هذه الأثناء اهتاج حماره، طفق ينهق ويضرب الأرض بحوافره، ويهز رقبته بعنف.

خاطبه الزعيم قائلاً:

(حمارك ده لازم عنده مشكلة: إما جوعان، أو عطشان، أو مرضان).

رد بنبرة ماكرة:

(واحد من دليل ما عنده، لكن نرجع ليكم كلمة قتلوها، (من عاشر قوما
أربعين يوماً صار منهم)).

رد الأستاذ بنبرة مستنكرة:

(يا شيخ العرب أنت حمارك ده ما عنده إجازة، حكايتك شنو؟ ما
سمعت بجمعيات الرفق بالحيوان، التي تنادي بحق الحيوان في حياة
كريمة، والله ليك حق تدافع عن الباطل، لأنه الطينة واحدة).

رد قائلاً:

(أها خليتم حقوق إنسان، ودائرين تفتحوا باب آخر اسمه حقوق
حيوان، حماري ده ذاته ما قبلان بكلمة حيوان، أها اسمعوا كلامي،
كلامي أنا الزول الأمي ساكت (لو كانت القروش على قدر التعب لنام
حماري على سرير من ذهب)، حماري حمار عمل، وأنتم وغيركم ما
عندكم غير فصاحة، لغو في لغو، وقولات).

نهق حماره، نثاءب شيخ العرب، قال:

(اليوم أنا تعبان وحماري كمان تعبان، يمكن سمع كلامكم عن
الإجازة، الخوف يتعلم منكم سوء الأدب، يقوم يلم الحمير، يعمل
مظاهرة ويهتف: (شنيبو يسقط بس، شنيبو يسقط بس)، وأنتم تعلمون،
إن رفسني المكار رفسة واحدة، علي وعلى رويحتي السلام، لكن!
عندي ليكم طلب، لما يتم الأجل ما تنسوني من الفاتحة، وادعوا لي
بحسن الخاتمة).

تركوه يؤنس حماره، هرولوا نحو مسجدهم بقلوب خاشعة،
واجفة، خائفة من غضب الله، مملوءة بالدعاء، أن يثبت الله أقدام
الثوار، يمدهم بالقوة، ويفت في عضد الظالمين.

العد التنازلي،

خطاب الرئيس في البرلمان

يوم الإثنين غرة أبريل أبي الرئيس إلا أن يخاطب برلمان، قرأ آيتين من القرآن الكريم تحضان على الأمانة، والاعتصام بحبل الله المتين ونبذ الفرقة والتشتت، خطابه أتى في مفتتح دورة الانعقاد التاسعة لبرلمان الموقر، أشار إلى أن خطابه يأتي استكمالاً لدورات سابقة كانوا فيها خير رقيب على جهاز الدولة التنفيذي، اتسم خلالها البرلمان بروح وطنية عالية، ومسئولية رفيعة، في مناخ سادته قيم حرية، شورى والتزام، وإلى أن الدورة الراهنة تأتي في ظل ظروف استثنائية، مليئة بتحديات وتطلعات، استكمالاً لحلقات بناء وطني، دعم وحدة، سلام، واستقرار، تحدث عن تحديات اقتصادية تواجه الشعب، دفعته للخروج للتعبير عن ذلك، وأن بعض الفئات أحدثت خلا في النظام، وأتلفت بعض الممتلكات، مما جعل البعض يقفز على الاحتجاجات، ويعمل على استغلالها لتحقيق أجندة تبت سموم الكراهية، ترحم على أرواح شهداء الأحداث، أشار إلى أن كل ذلك حتم الدعوة لخارطة طريق، لانتقال سياسي يركز على حوار واسع ملتزم بالدستور، وحل الجهاز التنفيذي، وتشكيل حكومة مهام جديدة، وإعلان حالة طوارئ، وأن الأيام القادمة ستشهد مزيداً من القرارات والتدابير التي تعزز مسار حوار يؤدي إلى خلق بيئة صالحة، تتحد فيها الجهود لتعبئة المجتمع، وتوجيه طاقاته نحو الإنتاج، خاصة في الزراعة، التعدين، والصناعات التحويلية، التزم بأن يكون على مسافة واحدة من جميع أبناء الوطن، وكافة رؤاهم السياسية، مع اتخاذ وثيقة

الحوار الوطني مرجعية أساسية، خص شريحة الشباب بالذكر، وبأنهم أثبتوا أنهم المتغير الاجتماعي، دعا كافة القوى السياسية لاستيعاب طاقاتهم، رؤاهم، أفكارهم، واستحداث آليات تتيح لهم إسهام فاعل في بناء الوطن، وجه حكومة المهام الجديدة باتخاذ التدابير لاستكمال حلقات هيكل الدولة، إصلاح الخدمة المدنية، والالتزام بمحاربة الفساد والمفسدين، أشار إلى أن السلام ما زال هدفا استراتيجيا للدولة، تحدث عن نجاحات حققتها الجهود الدبلوماسية، في مجال التعاون مع الدول الشقيقة والصديقة، كل ما جاء في خطابه، يعني بكل وضوح شيئا واحداً، أن النظام يريد أن يلعب بأخر أوراق اللعبة، لأنه يعلم علم اليقين أنه يترنح على شفا حفرة هاوية.

التأم شمل الشلة الثورية في ذلك اليوم، ولكن التنامها لم يكن كاملا، غاب تفتيس بسبب عودته لعمله بالسعودية، كان في إجازة طويلة مدتها ستة أشهر، تزامن آخرها مع اندلاع الثورة، عاش مع الثورة وجدانيا وفكريا وروحيا، لولا أن المعاييش جبارة لما غادر أرض الوطن، سافر وفي قلبه حسرة، بكى لحظة الوداع، كأنما التاريخ يأبى إلا أن يعيد نفسه، أبريل الأولى كانت مجرد بداية، لم تكتمل فيها الثورة، أصبحت واحدة من حلقاتها، وهذه أبريل الثانية، من يدري أتكون حلقةً أخرى أم خاتمة مطاف، خاطب الرئيس برلمانه، لأنه حقيقة لا يمثل الشعب، برلمانات العالم الحية تقوم بدورها على أكمل وجه، تسحب أصوات الثقة من حكوماتها، تناقش ميزانيات الدولة وتردها من حيث أتت لعدة مرات لخلل فيها، نوابها يشتمون ويسدون لكماتٍ لبعض البعض لأجل الوطن، وهل يعقل أن يكون البرلمان وطنياً وأعضاؤه همهم الأول غنائم، سيارات، حوافز مالية، قطع أراضي، وإرضاء حكام، كل تمريرة أو صمت على مصيبة تطعن البلد في الخاصرة ثمنها لهم مدفوع، مراجع عام، عام من بعد

ابتدر أميرو الكلام بنبرة فيها نوع من الاستياء:
(نفس الخطاب المتعالي الذي يقول نحن الكل وأنتم الجزء، نحن الرأس
وأنتم الذنب، نحن شيء وأنتم لا شيء، نحن وطن وأنتم شذاذ آفاق
أعداء وطن، بيننا وبينكم الشارع، أيتها شارع يقصدون، الشعب الآن
في الشارع، قتل شغال، اعتقال شغال، نط في البيوت شغال، ضرب
شغال، والحشاش يملأ شبكته، ثلاثين سنة، اتقوا الله يا فجرة، ثلاثين
سنة وطامعين لسه في زيادة؟ أعود بالله من الذي لا يستحي ولا
يخجل، قالوا لم نفعل شيئاً نخجل عليه، فعلاً الأعمى لا يبصر
ضوء النهار).

رد عدولة بنفس مسدودة:

(قربت، قربت، دنا قطافها، لم يتعلموا أبداً، لا يزالون في غيهم
سادرين، يشغلون لنا أسطوانات مشروخة، مللنا سماعها).

رد وليد بنبرة متشائمة:

(تحت أي نظام مثل هذا النظام لن يرى الناس أبداً جديداً تحت
الشمس).

رد الأستاذ بنبرة ساخرة:

(النظام ما زال مستمرا في ترديد نفس كلامه المردود عليه، كلام فقد
رائحة، طعم، ولون، يا أخوانا مخزونه الاستراتيجي من أفكار،
الأعيب، وحيل نفذ، عداده صفر).

رد أبو علي قائلاً:

(النظام يرقص في وادي، والشعب يموت في واد آخر).

رد شنو بمرارة:

(شنو قلت شنو يا أبو علي، النظام حكايته مش برقص في وادي ده يرقص ويغني لليلاه، السلطة حلوة جميلة، حبها يعمي البصر، ويسد البصيرة).

رد أميرو بلهجة حانقة:

(النظام يقول: رسالة المتظاهرين له وصلت، وعليهم العودة إلى بيوتهم، وبصفتهم معلمين كبار والثوار تلاميذ صغار، ما على التلاميذ إلا أن يسمعوا كلام المعلمين الكبار، يذهبوا، يخلدوا للنوم، ولا يشغلوا بالهم بأمور لا تعقلها أمخاخم الطرية الهشة الصغيرة، من المؤكد أن المعلمين الكبار لم يفهموا الرسالة، أو فهموها وتجاهلوها).

رد عدولة بنبرة ساخرة:

(قربت، قربت، دنا قطافها، يا أخوانا من يرفعون التقارير، يرفعون له تقاريراً مغلوطة، عسى أن ترفع معنوياتهم المنهارة).

رد وليد متعجباً:

(النظام ما زال متمسكا بالحوار، حوار الطرشان، حوار تحت أسنة الرماح، تحت قانون الطوارئ، والقوانين المقيدة للحريات).

رد الأستاذ بنبرة مستنكرة:

(قالوا مخرجات حوارهم الوطني أساس كل حوار قادم، حوارهم الذي صاغوا بنوده بمزاجهم، بمباركة الموالين لهم، وببصمة أحزاب الفكة من جامعي فئات موائد الاجتماعات الفجة، ومع ذلك ضربوا بعرض الحائط كل مخرجاته التي لا تعجبهم، وما زالوا يرددون في غياب (من) يريد تغيير نظام عليه انتظار صندوق الانتخابات)، طبعاً معروفٌ صندوقٌ، ملعوبٌ، مخرومٌ، ومقدودٌ).

رد شنو قانلاً:

(يا أخوانا، من قبيل نحن قاعدين نلت ونعجن في شنو، وخالصة الكلام شنو، إذا كان المتحدث يعاني من مشكلة، ليس من الضروري أن يعاني المستمعون من نفس المشكلة).

رد أمير وبنبرة مغناظة:

(قالوا لا يريدون جلوساً مع إقصائي، سبحان الله، إن كانوا لا يعلمون فليعلموا أن هذه الصفة تنطبق عليهم، شردوا الناس بحجة صالح عام، أموال الشعب وجهوها لغير صالح عام، جعلوا وظائف الدولة حكراً على موالين وأهل حظوة، فرقوا شعبهم شيعاً، بين سيد ومسود).

رد الأستاذ بنبرة هادئة متزنة:

(يا خوانا ريسكم العبقري أمر بتوفير تمويل لمشروعات شباب فردية وجماعية في إنتاج حيواني، زراعي، صناعات صغيرة، وبرمجيات، عبر مصارف، ومؤسسات تمويل حكومية، برؤية جديدة تمكن من جعل هذه المشاريع حقيقة واقعة، وبناء مدن سكنية للشباب لتوفير سكن لائق لهم عبر تمويل ميسر، إحياء وتأهيل دور وأندية شبابية، رعاية أي مبادرة إبداع شبابي، واستيعاب روح الوطنية العالية التي أبادها الشباب، لازم تسمعوا أبيات من شعر شاعر العراق الساخر مطر، تحلية للقعدة:

زار الرئيس المؤتمن بعض ولايات الوطن

وحين زار حيناً قال لنا: هاتوا شكواكم بصدق في العلقن

ولا تخافوا أحداً فقد مضى ذلك الزمن

فقال صاحبي (حسن): يا سيدي أين الرغيف واللقين؟

وأين تأمين السكن؟ وأين توفير المهن؟

وأين من ... يوفر الدواء للفقير دونما ثمن؟

يا سيدي... لم نر من ذلك شيئاً أبداً

قال الرئيس في حزن:
أحرق ربي جسدي
أكل هذا حاصل في بلدي
شكرا على صدقك في تنبيهنا يا ولدي
سوف ترى الخير غدا

وبعد عام زارنا ومرة ثانية قال لنا: هاتوا شكاكم بصدق في العلن
ولا تخافوا أحداً فقد مضى ذلك الزمن
لم يشترك الناس... فقامت معلنا... أين الرغيف واللبن؟
وأين تأمين السكن؟ وأين توفير المهن؟
وأين من يوفر الدواء للفقير دونما ثمن؟
معذرة يا سيدي... وأين صاحبي (حسن)!!!).
رد شنو بشنوءته التي لا تنتهي قائلاً:
(قربت، قربت، دنا قطفها، مطر ده مننا ولا شنو؟ الظاهر عليه ساكن
أم بدة السبيل ولا شنو؟ بالله العظيم شعره كله في المليان، يعني
صاحبه حسن المسكين راح شمار في مرقة ولا شنو، المسكين سجنوه،
فرموه، سكتوه للأبد ولا شنو).
رد عدولة غاضبا:

(شنو دي كرهتنا بيها الدنيا، من جئنا شابكنا شنو، شنو، شنو، قالوا
ليك الشاعر عراقي يا أب مخ تخين تقول مننا، وتقول كمان ساكن أم
بدة، ثقافة ضحلة، خلونا من جهل وجهلاء قالوا من أعد خطاب الرئيس
واحد خبيث، دائر يورطه، يخليه يظهر ضعفه أمام الشعب، وزى ما
شافيين قدم تنازلات تلو تنازلات، والثوار سادين دي بطينة ودي
بعجينة، كلمتهم واحدة، أعمى ومسكوه عصا (تسقط بس)).

رد أميرو متسائلا:

(المحير في الخطاب، كيف يقول الشباب أبدو روحاً وطنيةً عالية، وميليشياته تبيدهم كالصراصير، وتسحقهم كالضفادع، والقمل، في الأزقة، الزنقات، والشوارع؟).

رد أبو علي قائلاً:

(يا أخوانا حبل الكذب قصير، من أين تأتي المصارف بنقود لتمويل مشاريع شبابية، وهي لا تستطيع توفير مرتبات العاملين في الدولة، أو توفير سيولة لعمالها).

رد عدولة قائلاً:

(قربت، قربت، دنا قطافها، يفوتوا يعني يفوتوا، غصبا عنهم يفوتوا).

رد وليد ساخرا:

(يا أخوانا مطبوعة النقود جاهزة، رب، رب، رب، وكل شيء يكون تمام في التمام).

رد شنو مستنكرا:

(قلته شنو يا أبو عريف كيف يكون تمام التمام؟ والاقتصاد أصلاً واقع وقعة بيت طين جالوص في الخريف، ورب، رب دي، توقعه وقعة ما يقوم منها ثاني).

رد أميرو بمرارة:

(لا يهمهم، ما يقع كان وقع، في سبيل البقاء في السلطة، يهون عندهم كل شيء).

رد الأستاذ متسائلا:

(أنا عندي سؤال، الناس ديل شرقوا وغربوا، غجر، ما عندهم غير الشحاتة، عادوا بخفي حنين، من أين لهم فلوس للمشاريع التي يريدون بها إسكات أصوات المحتجين من الشباب، الشباب مفتحين عارفين البئر وغطاءها، الكلام ده من زمان وين؟ يعني الشباب نزلوا فجأة من القمر، ألبوها على غيرهم، وقت اللعب انتهى، جاء وقت الجد).

صمت لفترة مرّ أمام عينيه شريط لمئات الآلاف من الشباب، يحملون شهادات جامعية، منهم من يجابهون مخاطرًا عبر صحراء كبرى، ومن يركبون مراكب بلاستيكية عبر بحر أبيض متوسط، شكة دبوس تجعلهم في خبر كان، كثيرون منهم أصبحوا مفقودين منسيين، قليلون منهم أصبحوا لاجئين يتلقون هبات تعيشهم في أيام سوداء، يرسلون فتاتها لأهل بؤساء، منهم من يعملون في شوارع محفرة ذات أخاديد، سواق لسيارات أمجاد، توك توك، ركشات، كارو، ودرداقات، ومنهم من يحملون باقات بلاستيك يبيعون الماء في الأسواق، ومنهم من يجلسون تحت ظلال أشجار نيم وسط الأحياء يندبون حظاً عاثراً جعلهم يولدون في هذا مكان وهذا زمان، في بلد مُحيط، هذا ما جناه علي أبي وما جنيته على نفسي.

قال في نفسه هؤلاء الشباب ما دفعهم لمرّ إلا الأمر منه، دولتهم قصرت في حقهم، لم توفر لهم وظائف، ورفضواهم وزملاؤهم في مقاعد الدراسة، الذين كانوا أدنى منهم تحصيلًا يشغلون مناصب عالية لأنهم أهل حظوة وأهل نظام، الأدهى والأمر، أن دولتهم الفاشلة هذه تطاردهم وهم يمتنون مهناً هامشية، لتأخذ منهم قسراً جزية، دقنية، مكوس وإتاوات لتصرفها حوافز لموظفين فاسدين عاطلين مقتعين، وعلى جيش جرار من دستوريين، وغيرهم من طفيليين لا يشبعون أبداً، الظلمات تراكمت عليهم، غبنٌ، بغضٌ، وكره، استكنت في النفوس، قنابل نووية وهيدروجينية موقوتة تنتظر لحظة الانفجار، حانت هذه اللحظة، لذلك لن يحوشهم رصاص، بمبان، تاتشر، ولا دبابة.

قال في نفسه: (شباب بمنثل هذا الكم من مخزون شعوري سالب، لن يقف في طريقه شيء، إنهم سونامي مدمر يقتلع أي شجرة من جذورها، أي عمارة شاهقة من قواعدها، يرفع سيارات، قوارب، قطارات، وطائرات فوق أسطح المباني، يجرف كل ما ومن يقف أمامه، ولذلك فليحذر النظام من غضبتهم، لن يوقف هذه الثورة الكاسحة الماحقة شيء أبداً، خلاص، بلغ السيل الزبا).

ثم استطرد قائلاً:

(أها أيها الثوار، جاءت ساعة السبات، وسكتت شهرزاد الثورة عن الكلام المباح، والصبح رباح، ولا نامت أعين الجبناء، وتصبحون على خير، وثورة حتى النصر، وتسقط بس).

قضى ليلته تلك يقلب أفكاراً ويضرب خمسيات في سداسيات، يحاول أن يتفهم ما جاء في خطاب الرئيس، هناك اعتراف صريح بتحديات اقتصادية تواجه البلاد، نظامه أدخلها في متاهات نفق ضيق مظلم، ترحم على أرواح ضحايا قتلهم كلابه المسعورة وعدهم شهداء!! حاول بكل ما يملك من قوى عقلية أن يفهم مغزى الكلام، ولكن هيهات، إما أن يكون من كتب الكلام ليس في كامل وعيه، وإما أن يكون الرئيس لا يتدبر بما يقول، وإما أن أعضاء برلمانهم لا يكثرثون لما يقول، على أية حال، خطابهم يعتبرونه وثيقة تاريخية جديرة بتقدير واحترام، والثوار يعتبرونه كلام طير في باقير.

أشرقت شمس النهار، هذه المرة رآها شمسا سراجاً منيراً، أشعتها قوية شابة، ضوءها يعم الكون بدرجات متفاوتة، الثوار رضعوا من ثدي ضوءها، أصبحوا شموسا صغيرة تضيئ السبل لأمة طيبة مغلوبة على أمرها، استنقوا من رونقها وبهائها وهم يفرون ويكرون بوجوه متألقة، وأيدي طاهرة، تحت هجيرها الحارق وسط سحب عجاج، غبار، ودخان، استنقوا من لهيبها حرارة، جعلت قلوبهم حارة جمر،

يخوضون بها بحوراً أمواجها متلاطمة، ونيراناً مستعرة، وغابات داخل إليها ميت وخارج منها ميت، لولا هذه الشمس لانعدمت الحياة، لا نبات، لا حيوان، ولا إنسان، ظلام وبرودة أبدية، الحرية كذلك شمس للإنسان من رب العالمين، تجعله حراً في اختيار أفكاره وتصرفاته، ولولاها لما كان معنى لتكليف وابتلاء، ولولاها لما كانت حياته سوية.

الثوار من شدة إيمانهم بقضيتهم يرون كل مخلوقات الله في الكون منحاذاة لهم، لإيمانهم المطلق بأن الله حرم الظلم على نفسه وحرمه على عباده، وبما أنهم مظلومون ظلم الحسن والحسين، فإن الله لن يخذلهم، ولم لا وكل مخلوقات الله في الكون يسبحون بحمد ربهم ولكنهم لا يعلمون تسبيحهم.

مر كالعادة قبل موعد آذان صلاة الظهر في طريقه للمسجد على شلته النهارية، ثلاثتهم كالعادة جالسون وهم ينتظرون وصول إمامهم الغائب، جلس على كرسي الحديد الذي بات ثائراً لكثرة ما سمع من حكايات الثورة والثوار، بعد أن ألقى عليهم التحية، خاطبهم بابتسامة رائعة قائلاً:

(أنا متأكد أنكم تتحدثون فيما جاء من درر ولآلي في خطاب الرئيس).
رد الزعيم بنبرة لا تخلو من استياء:

(متوقعين نسمع كلام مليون، على قدر مصائب البلد، ولكن كالعادة خطاب باهت، يا حليل الخطابات، يا حليل أبعاج دراج المحن، خطابات في المليون، البلد كلها حول الراديو والتلفزيون، في البيوت، المقاهي، المدن، والضاهري، ريسنا ده مما عرفناه، خطاباته في وادي، وشعبه المسكين في وادي آخر).

رد أبو العباس بنبرة ساخرة:

(الرئيس قال حاجات كثيرة مهمة، حوار وطني، وما أدراك ما حوار وطني، قال يدوهم فرصة يتحاوروا ثاني سنة سنتين، حوار موسع، انتظروا وامسكوا الخشب، حل ليكم حكومة قديمة وشكل حكومة جديدة، سماها حكومة مهام خاصة، يعني قوات خاصة، خلاص أرقدوا قفا، مشاكلكم طب محلولة، وبلدكم طب في أيد أمينة).

ضحك شنيبو حتى وقع على قفاه ثم رد بنبرة ضاحكة:
(تمام أنا عربي، فهمي على قدر حالي، لكن راكوبة مسوسة مائلة يا أخوانا بينوها بقش وخطب قديم، ده كلام شنو؟).

قفز الأستاذ من على كرسيه، لا شعورياً صرخ قائلاً:
(الله.. الله.. ظهر الحق وزهق الباطل.. سبحان الله، شنيبو آمن، أول يوم يقول كلمة حق).

رد الزعيم قائلاً:

(كلمة حق أريد بها باطل).

رد أبو العباس قائلاً:

(الليلة شنيبو ده يا جماعة، حصلت عليه حاجة ما مفهومة، ألف ثلاثمائة وستين درجة، سيبك منه، نرجع لريسننا، قال سوف يكون على مسافة واحدة من جميع أبناء الوطن، ومن هم أبناء الوطن، طبعاً هم ناس زعيط ومعيط ما عدا الثوار).

رد الأستاذ متسائلاً:

(طيب، الرئيس مرة للأمام سر مع حزبه الحاكم، ومرة ثانية خلف دور، دي يفهموها كيف؟).

أجاب أبو العباس قائلاً:

(أفهمها زي ما تفهمها، ليه موجع رأسك؟ ده ما زمن مفهومية، ده زمن حاضر فندم، سمعاً وطاعة وبس).

رد الزعيم قائلاً:

(يا أخوانا الناس ديل شغالين بمقولة: (من لم يكن ذنباً أكلته الذئاب، ومن يكن عظماً أكلته الكلاب)).

رد شنيبو بنبرته الماكرة:

(الحمير كان تداوسوا بخت شيخ العرب).

التفت الأستاذ نحو شنيبو وخاطبه قائلاً:

(أسمع الحكاية دي يا شنيبو، ولد الحمار كان زعلان شديد، قال لأبيه الحمار العجوز: يا شيخ الحمير الزول من بني آدم كان زعل من ولده يقول عليه حمار، المعلم كان تلميذه غلط يقول عليه حمار، هؤلاء الأزوال ربطوا أي فعل بليد بالحمار، الحكاية شنو؟، بعد أن هز أذنيه رد عليه قائلاً: نعم يا ولدي كلامك صحيح، ربنا فضل الأزوال علينا نحن الحمير، ولكنهم لم يفهموا معنى هذا التفضيل، لأنهم أحياناً يكونون أخس من الحمير، هل رأيت حماراً يسرق؟ هل رأيت حماراً يقتل؟ هل رأيت حماراً يكذب؟ هل رأيت حماراً يغتصب؟).

دخل شنيبو في موجة ضحك هستيرية وطقق يقول:

(الله يجازيك، المرة دي غلبتني يا أستاذ، الكلام ده جيته من وين؟ دي مكيدة عملتها مع حماري ده).

وقبل أن يكتمل ضحكهم الذي وصل إلى أسماع المارة في الطريق، سمعوا صوت الإقامة للصلاة، هرولوا نحو مسجدهم وبقايا ضحكاتهم ما زالت تعربد على صفحات وجوههم، حمدوا الله الذي منحهم النعمة لأن تهب عليهم نسائم البهجة وهم في أحلك اللحظات، وأن يتسلل الضحك إلى نفوسهم، وفيها ما فيها، من جبال هم، غم، بؤس، وشقاء.

مواكب ذكرى أبريل

يصادف يوم السبت ستة من أبريل مناسبة وطنية عظيمة خالدة في قلب شعب بطل، ذكرى انتفاضة شعبية أطاحت بريس حكم البلاد بحديد ونار لفترة ستة عشر عاما، دعا تجمع المهنيين إلى مواكب مليونيه باسم وطن واحد، اتخذ هذا الموكب أهمية خاصة، وزخماً مغايراً لكل ما جرى منذ بدء موجة الاحتجاجات الشعبية قبل حوالي أربعة أشهر، تقرر أن تكون وجهته مقر القيادة العامة للجيش، بدلا من القصر الجمهوري لتسليم مذكرة تطالب بتنحي الرئيس ونظامه، تزامن ذلك مع دعوات زعيم حزب الأمة لأنصاره للخروج، ودعوته للرئيس لإطلاق سراح المعتقلين، رفع حالة الطوارئ، والاستقالة من حكم البلاد، حاول النظام استباق هذا الموكب، بأن يلقي ريسه خطابا على الشعب، بعد اكتمال كافة الترتيبات، تراجع عن إلقائه، واستعاض عنه بلقاء نائبه، مساعديه، هيئة تنسيقية عليا لحوار وطني، قوة مجتمعية، وقادة إعلام، في خطابه في هذا اللقاء لم يأت بجديد، وإنما كرر نفس كلامه القديم عن حوار وطني، حوار طرشان، مضیعة وقت، لا يقدم ولا يؤخر؛ كان خطاباً ركيكاً بمعنى الكلمة، وردت فيه كلمة حوار أكثر من ثلاثين مرة، مسكينة هذه الكلمة، فقدت معناها من كثرة ترديد لسانه لها، الجديد في الأمر، أن فلاسفة النظام تفتقت أذهانهم عن ترهة جديدة، سموها حوار موسع، لأن حوارهم القديم بعد أن التهم أخضراً ويابساً لأكثر من سنتين، تخطاه الزمن، وأن هناك شريحة مؤثرة من المجتمع أهملت، ولا بد من أن تستنشر، وهي شريحة الشباب.

يوم السبت شهدت الخرطوم مظاهرات حاشدة، تحولت إلى اعتصام أمام مقر القيادة العامة للجيش، دعا التجمع إلى اعتصام مفتوح هناك، اعتباراً من ذلك اليوم وحتى إسقاط النظام، خاطب الجيش بالانحياز للشعب، شهدت عدة ولايات سودانية مظاهرات غاضبة، واجهتها القوات الأمنية بمسيل دموع، وعنف مفرط، لم يكتف النظام بالمواجهة الأمنية فقط، وإنما تمادى في إصداره لبيانات مضللة كاذبة، حاولت قوات الأمن بشتى السبل قفل الطرق المؤدية إلى القيادة العامة، ولكنها فشلت في ذلك تحت إصرار المحتجين وحشودهم الكبيرة.

تكررت نداءات تجمع المهنيين لجموع الشعب بالعاصمة للتوجه نحو القيادة العامة للانضمام لإخوانهم ليكون الاعتصام مليوني، جاءت المواكب الحاشدة من كل حذب وصوب، تشكل مشهد خرافي لجموع بشرية ضخمة حاشدة هادرة، فاقت أعدادها توقعات كل المتفائلين من مراقبين وثور.

في يوم الاثنين قامت قوات الأمن في محاولة منها لتفريق المتظاهرين بإطلاق الرصاص والغاز الكثيف عليهم، لإجبارهم على فض الاعتصام، مما جعل قوات الجيش تتحاز لهم، بالسماح لهم بدخول مبنى القوات البرية لحمايتهم؛ حدثت هذه المحاولات لمرتين متتاليتين في الساعة الثانية والنصف والخامسة صباحاً، أدت هذه المحاولات إلى اشتباكات بين الطرفين مما أدى لوقوع عدة إصابات، أعلنت لجنة الأطباء المركزية سقوط خمسة قتلى نتيجة لذلك، في عصر نفس اليوم امتلأت شوارع العاصمة بالمواطنين رجالاً ونساءً، أطفالاً وصبية، شباباً وشيوخاً، مبهجين، يهتفون، ويلوحون بالأيدي وسط زغاريد النساء، بعد أن سمعوا بأن خطاب تنحي الرئيس وشيك، وأن النصر قريب المنال، تحت تناول اليد، وأن ساعة الخلاص من

الكابوس الذي جسم على صدورهم طيلة ثلاثين سنة قد دنت، ولكن فرحتهم لم تكتمل في ذلك اليوم، لأن النظام الذي يحكمهم عنيد ومتمسك بالسلطة، ويعلم أنه أمام خيارين أحلاهما مر، إما التنحي، وإما ارتكاب مجزرة كبيرة لا يقدر على تحمل تبعاتها، ولذلك ما زال يراوغ، ظنا منه أن في جعبته ما يزال كثير من حيل والأعيب، وأن الزمن في مصلحته.

فشلت قوات أمنية غير معلومة فجر الثلاثاء في فض الاعتصام، شكل الجيش طوق أمني حول المتظاهرين لحمايتهم، بالإضافة إلى فتح أبواب القيادة العامة أمامهم للدخول والاحتفاء من الرصاص، أدى ذلك إلى مقتل جنديين على الأقل، اندلع حريق في مباني الفرقة السابعة مشاة بالقيادة العامة عقب تبادل إطلاق النار بين الطرفين، في نفس اليوم قطعت الكهرباء في عموم البلاد، نقل أمينيون موالون للحزب الحاكم بسيارات وحافلات خاصة بالقرب من مكان الاعتصام، قاموا بمحاولة فضه بالقوة وأسفر عن ذلك عدد من قتلى وجرحى بين صفوف الجيش والمعتصمين، أعاد المعتصمون تنظيم صفوفهم بأعداد كبيرة مرة أخرى في مكان قريب من ذلك المكان، في هذا الأثناء أعلن المتحدث الرسمي باسم الجيش نبأ فض الاعتصام بشكل نهائي، وبأنهم لن يسمحوا بأية مظاهرات أو اعتصامات غير شرعية، وسيفضونها بالقوة، وأن الجيش منحاز للدستور وللريس، وأن استهداف أفراد الجيش بالرصاص جاء من داخل جموع المعتصمين، الجيش اسمه قوات شعب مسلحة، وليس قوات جبهة أو حزب، المتحدث غALT نفسه بنفسه، جعل المستمع في حيرة، أجبره على أن يضع عدة علامات استفهام حوله، من البديهييات التي لا يتغالط حولها اثنان، أن الشعب هو مصدر السلطات، يمنحها لمن يشاء، وينزعها ممن يشاء، وقتما يشاء، وبالكيفية التي يراها انتخابات أو ثورة، وما يجري من

احتجاجات، مظاهرات، واعتصامات، يعني أن الشعب سحب ثقته من ريسه، ومن نظامه؛ ومع ذلك، النظام يراوغ، غير مقتنع بواقع ماثل أمامه، لا يسمع، لا يرى، ولا يستوعب، فاقد للإرادة، ولا يعي أن التغيير أصبح للشعب ضرورة حتمية، وأنه كنظام حاكم، أصبح من الماضي، وبقي فقط أن يصدر شعبه شهادة وفاته، تزامن ذلك مع قيام مظاهرات حاشدة في بعض المدن وأحياء العاصمة، عقد زعيم حزب الأمة مؤتمراً صحفياً بمنزله بأمر درمان، دعا فيه الجيش إلى التوسط بين الحكومة والمعارضة، للاتفاق على حل سياسي يجنب البلاد الدخول في مصير مجهول، منذ السبت ستة أبريل وحتى الثلاثاء بلغ عدد الشهداء اثنين وعشرين شهيدا منهم تسعة عشر من المدنيين وثلاثة من العسكريين، لما ضاقت الحلقات على النظام حزم الرئيس أمتعته ورحل من أحضان حزبه إلى أحضان الجيش، بعد أن شعر بعدم الاطمئنان لولاء الجيش بالكامل عاد مرة أخرى إلى حزبه، وفي نفس الوقت كان يركن إلى طرف آخر سماه (حمائتي)، ميليشيا الدعم السريع، واحدة من أخطائه الكبرى التي لن تغتفر، لم يعد له أمان ولا اطمئنان، لا مع هذا ولا ذاك، انتهت اللعبة، الثوار كانوا يتحسرون وهم يرون ثورة الجزائر وقد أنهت مهمتها، أجبرت بوتفليقة على التنحي في عشرين يوما، بينما ثورتهم قرابة الأربعة أشهر وراء وقدام، وما زال هدف التنحي بعيد المنال.

أطل يوم الأربعاء ولهيب الثورة وحنفوانها قد بلغ مداها، رتب المعتصمون أمور ساحة الاعتصام من النواحي الأمنية، الخدمية، والتنظيمية، بتكوين لجان مراقبة، لجان تنظيم، ولجان تفتيش، كما قاموا بوضع متاريس تفوق العشرة في مختلف المداخل، أدت تفاعلات داخلية بين المعتصمين إلى هذه التنظيمات بدون أن يكون لها ترتيب مسبق، مأكّل ومشرب بالمجان، حلاقة بالمجان، شعارهم (عندك خت

ما عندك شيل)، شحن موبایل ببلاش، حلق رأس ببلاش، دورات مياه متحركة لقضاء الحاجة متوفرة في المكان ببلاش، مجتمع فاضل مثالي، لا تعكر صفوه حكومة جائعة نهمة، تشيل منك بس، ما عندها حاجة ببلاش، (كنداكات) يقفن في خط المواجهة في ساحة الاعتصام، يخاطبن الجماهير، يصددن هجمات مليشيات النظام، يعددن الطعام، يطببن الجرحى والمرضى، يجمعن التبرعات، ويخططن لاستمرار المقاومة حتى النصر، كنداكة نحيفة، ترندي ثوباً أبيضاً تقليدياً، من أذنيها تدلى قرطان كبيران، صدحت من فوق سيارة صغيرة بأبيات من شعر حماسي أمام المعتصمين، ما كانت تحلم بأن إقدامها على هذه الخطوة سيكون له ما بعده على الحراك الثوري، لو وضعت خطواتها هذي في كفة الميزان الثوري لرجحت بالآف الخطب، ومن ثم أصبحت، بعد أن أطلق عليها في مواقع التواصل الاجتماعي (حبوبتي كنداكة)، أيقونة لحركة الاحتجاجات في البلاد قاطبة، أطلق البعض عليها (تمثال الحرية). كان لوجود مجموعة كبيرة من ضباط الجيش والجنود المنشقين، أثر كبير في وضع وتنفيذ الترتيبات الأمنية، الأنباء التي سرت حول تجريد قوات الجيش في القيادة العامة من أسلحتهم، وإبدالهم بعناصر من ميليشيا الدعم السريع، والأمن الشعبي، والأمن الطلابي، ألهمت حماس المعتصمين، كما وخرجت مدرعات الجيش إلى خارج القيادة العامة، ربما لتطمين المعتصمين بأن الجيش على الحياد، دعت قيادات أمنية حكومية إلى فض الاعتصام بالقوة، على طريقة فض اعتصام "ميدان السلام السماوي" ببكين في نهاية ثمانينات القرن الماضي، حينما وجه الجيش الصيني مدفعيته الثقيلة لصدور آلاف العمال والطلاب المعتصمين خلف المتاريس، ودهس بعجلات الدبابات المئات؛ أو على طريقة فض اعتصام رابعة بمصر قبل ست سنوات من اشتعال الثورة، حينما قتلت الشرطة والجيش آلاف

المعتصمين؛ رغما عن ذلك استمر قدوم المعتصمين الجدد إلى ساحة الاعتصام أمام القيادة، أشار قائد ميليشيا الدعم السريع وهو يخاطب قواته بأن مهمتهم تنحصر في حماية المواطنين وممتلكاتهم، ومؤسسات الدولة، أعلنت الشرطة بأنها لن تتصدى للمتظاهرين السلميين، وستكفي فقط بحماية المواقع الاستراتيجية، ثم عادت ونفته مدعيةً بأن موقعها الإلكتروني تعرض لقرصنة، قامت السلطات بإضعاف شبكة الإنترنت والاتصالات، وحجب مواقع الاتصال الاجتماعي، منعا لتغطية المظاهرات السلمية، وفعاليات الاعتصام، دعا الحزب الحاكم مناصريه، والموالين له من أحزاب الحوار الوطني، إلى الخروج يوم الخميس في مسيرات حاشدة، كرد عملي على حشود المعارضة، في هذا الأثناء تغيرت لهجة الحكومات الغربية، حيث أصبحت أكثر قوة ووضوح، وبها الكثير من التهديد المبطن للنظام، دعت أمريكا، والاتحاد الأوروبي، والحكومات الغربية، إلى وقف العنف فوراً، إطلاق سراح المعتقلين، رفع حالة الطوارئ، والشروع في الانتقال السلمي للسلطة، دعت سفارات غربية الحكومة إلى تقديم خطة للانتقال السياسي تتسم بالمصداقية، دعت بريطانيا، وأمريكا، والنرويج، السلطات إلى الكف عن استخدام القوة، دعت الأمم المتحدة الحكومة إلى احترام الحق في التجمع، وحرية التعبير، ثم تفاقم الوضع بأن قامت مظاهرات واعتصامات أمام الوحدات العسكرية ببورتسودان، مدني، عطبرة، وبمعسكرات النازحين في دارفور، أضطر الحزب الحاكم إلى إلغاء مسيرة يوم الخميس، وتأجيلها لوقت آخر، لأن لجنة الأمن رأت أنه ليس من الحكمة تسيير هذه المسيرة خوفاً من حدوث صدام غير محسوب العواقب بين المؤيدين والمعارضين.

مع إطلالة صباح الخميس، عند الساعة الخامسة صباحاً، دخلت مجموعة من الضباط مبنى الإذاعة وطلبوا من العاملين ضم جميع الموجات العاملة، ثم بدأت الإذاعة في بث الموسيقى العسكرية، والإعلان عن أن القوات المسلحة سوف تذيع بياناً هاماً بعد قليل، وصلت الرسالة لجموع الشعب، فهموا أن انقلاباً عسكرياً مجهول الهوية قد تم، خرجت جموع المواطنين بصورة عفوية إلى الشوارع منذ الصباح الباكر، رجال، شباب، وصبية يهتفون ملئ حناجرهم، وهم يلوحون بالأعلام، النسوة يزغردن، ويصهلن كأحصنة أصيلة، حرة، وطيقة؛ أبواق السيارات التي تزحم الشوارع تملأ الفضاء بالضجيج؛ عرس ما بعده عرس، عرس وطن لم يذق طعم الفرح منذ زمن طويل، مسيرات الشباب المبتهج تسير فوق أسفلت الشوارع جيئةً وذهاباً، وهم يحملون أعلاماً، طبولاً، ومزاميراً، يرددون بلا توقف (سقطت، سقطت، يا كيزان)، وجموع غفيرة، راجلة، وعلى متن شاحنات، دفارات، حافلات، ركشآت، وتوك توك، تشق طريقها نحو القيادة العامة، ساحة الاعتصام، مضت ساعتان، ثلاثة، أربع ساعات، استطالت المدة ولم يذع البيان، شعر الناس بشيء غير عادي يجري في الخفاء، تملكتم شكوك، ريب، ومخاوف، بدأوا يتساءلون عن حقيقة ما يجري، سرت إشاعات بأن الرتب المتوسطة وصغار ضباط الجيش هم الذين يمسون الآن بزمام الأمور، وهم في صف الثورة والشعب، وإشاعات أخرى تقول بأن القيادات العليا الموالية للنظام هم من يتصدرون المشهد.

قال في نفسه: (بعد إذاعة البيان، إن ورد فيه ما أود، ويود ويشتهي الثائرون، سأحمد الله وأشكره على نعمته الجليلة التي من بها علينا، وأمسك بقلمى لأخط خاتمةً عصماء، أنهى بها توثيقي لآمال، أحلام، أشواق، تطلعات، دموع، وزغاريد، شعب كريم عزيز، أنهى

بها توثيقي لعذابات ومجاهدات مخاض عسير، لليل طويل، لشعب عظيم، قدم تضحيات جسام، مواكب شهداء، جرحى، معتقلين، سهر، تعب، نوم على رصيف، عطش، جوع، ومرض، وإن كان ما فيه مخيب للأمال، ما علي إلا أن أمشق سيف قلبي من جديد، أرقب المعركة مرةً أخرى، أكتب، وأكتب إلى أن ييزغ فجر الحرية، على ربوع بلدي الحبيب).

حانت ساعة الصفر، ساعة إذاعة البيان، وليتها لم تحن، أذاع البيان وزير دفاع النظام، البيان خلا من كل معاني تجسد طموحات ثورة شعبية، عريضة، عارمة، ظلت تناضل لسنوات طويلة، وكأنه صادر عن اتحاد طلاب مدرسة ثانوية بعد إضرابهم عن الدراسة بسبب سوء الطعام، سبحان الله، أجمع الشعب على رفضه جملةً وتفصيلاً، ورفض من تلاه، قالوها: (راجعين، راجعين، لساحات النضال) ... سكنت أصوات الناس، صمتت أبواق السيارات، نكست الأعلام، تساقطت دموع الحسرة، غابت الابتسامات من الوجوه، في لحظة خاطفة تحول مشهد الفرح، إلى مشهد خيبة، ألم، ودموع، زادت الحشود أمام القيادة العامة، مطالبة برحيل القائد الجديد، وتسليم السلطة إلى حكومة مدنية، دعوا لمحاسبة رموز النظام وهم يرددون شعارات جديدة (باقون في الاعتصام حتى اقتلاع النظام)، (شالوا حرامي وجابوا حرامي)، (شالوا وداد وجابوا أماني زي ما سقطت تسقط ثاني)، (البيان مرفوض مرفوض)، حاول قادة من الجيش امتصاص غضب المعتصمين بزيارتهم في مكان الاعتصام، ومحاولة فتح باب الحوار، فشلت المحاولة، اعتصم المعتصمون في عدد كبير من المدن، كسلا، الجنيينة، بورتسودان، ود مدني، القصارف، بلغ عدد الضحايا في هذا اليوم مائة وخمسين حسب بيان لجنة الأطباء المركزية، منهم ستة عشر قتيلاً، وتسعة وثلاثين حالتهم حرجة، رغباً عن الشعور

بالإحباط، وبأن الثورة ناقصة، والطريق أمامها لكي تحقق أهدافها، ما زال شاقا وطويلا، إلا أنه تحققت بعض المكاسب، منها وضع نهاية لحكم بغيض، إطلاق سراح جميع المعتقلين السياسيين والنشطاء، التمتع بمواقع التواصل الاجتماعي مرةً أخرى بعد حجبها، وعدم مباشرة أي نوع من الرقابة على حرية الصحافة.

توالت في نفس اليوم ردود أفعال داخلية وخارجية، داخليا، الرفض التام لبيان وزير الدفاع، لأنه محاولة لإعادة إنتاج واستنساخ النظام التعيس من جديد، والبيان يبقي على الدولة العميقة للنظام البائد، مطلب الشعب فترة انتقالية حقيقية بقيادة قوى مدنية، النظام هو من نفذ انقلابا عسكريا، والقيادات العسكرية التي تنصدر المشهد السياسي كانت جزءاً من النظام، ولذلك هي مرفوضة من الشعب، الثورة لم تصل بعد إلى مبتغاها لذلك يجب مواصلة النضال، أعلن زعيم حزب الأمة أن صلاة الجمعة المقبلة سوف يقوم بإمامتها في ساحة الاعتصام أمام القيادة، أعلنت قيادة ميليشيا الدعم السريع رفضها لأية حلول لا يرضى بها الشعب، خارجياً، طلبت الولايات المتحدة، وبريطانيا، وألمانيا، وفرنسا، عقد جلسة عاجلة لمجلس الأمن الجمعة لمناقشة الوضع في البلاد، البريطانيون يريدون أن يروا انتقالا كاملا وسريعا تجاه حكم مدني، الروس يريدون اللجوء إلى الطرق الديمقراطية والحوار الوطني لحل الأزمة والاستجابة إلى متطلبات الشعب، الاتحاد الأوروبي يدعو جميع الأطراف إلى الدخول في حوار شامل يلبي طموحات الشعب، تركيا على لسان رئيسها الانقلابات تأتي بكثير من المشاكل وترجو أن يتم تجاوز المحنة، قطر تدعو إلى تحقيق تطلعات الشعب ومطالبه في الحرية، والعدالة، واتباع الوسائل السلمية، والحوار، منظمة (هيومن ووتش) دعت السلطات إلى الاستجابة إلى مطالب المتظاهرين، الأمم المتحدة الرئيس مطلوب لمحكمة الجنايات

الدولية ومطلوب تسليمه، المفوضية الأوروبية تدعو إلى نبذ العنف، وإطلاق سياسات وإصلاحات اقتصادية، واجتماعية، وسياسية، الخارجية الأمريكية تقول: ما حدث لحظة تاريخية للشعب، وتعلق المرحلة الثانية من تحسين العلاقات بين البلدين، وتشير إلى أن الوضع متغير ولذلك لا توجد لديهم سياسات واضحة، صحيفة الواشنطن بوست الأمريكية كتبت: على الرئيس الأمريكي أن يعلم، أن ما حدث في الجزائر والسودان، يدل على أن الدعم الأعمى للمستبدين العرب، بمن فيهم السيسي وبن سلمان رهان سيء.

عقد في نفس اليوم أول مؤتمر صحفي للمجلس العسكري، أكد فيه عدم وجود أي تنسيق بينهم وبين الحزب الحاكم، وأنهم قاموا بالتغيير استجابةً إلى طلب الشعب للجيش للوقوف إلى جانبه، وأنه ليس لديهم أي طموحات في الحكم، ودعوا المعارضة للجلوس مع بعضها البعض وتشكيل حكومة مدنية تشمل جميع الحقائق ما عدا الدفاع والداخلية، بأخذ العبر والدروس من الثورات العربية السابقة ما زال المعارضون ينظرون بعين الريبة والشك لهذه التطمينات، ويصرون على الإبقاء على الاعتصام، إلى أن يتبلور رد مشترك من كافة أطراف المعارضة على ما جاء في هذا المؤتمر الصحفي.

أعلن الجيش أنه سيفرض حظر التجوال ليلاً بالقوة، وفي المقابل أعلن المعتصمون أن اعتصامهم سوف يتواصل في تحد سافر للقرار. تطورت الأحداث في سرعة مذهلة أربكت المشهد برمته، سرت إشاعات بعيد الساعة السابعة مساءً بحدوث انقلاب جديد، ثم أعلن التلفزيون عن بيان لرئيس المجلس العسكري الانتقالي بعد قليل. أعلن رئيس المجلس الانتقالي في بيان مقتضب التنازل عن منصبه، وعين بدلاً عنه جنرالاً آخر، وأشار إلى استقالة نائبه.

على العكس من البيان الأول بلغ الفرح في ساحة الاعتصام أقصى مداه، علت التهتافات مرةً أخرى (ثوار أحرار ح نكمل المشوار)، (يومين سقطنا اثنين)، (حرية سلام وعدالة والثورة خيار الشعب)، فرحة هستيرية ليس لها مثيل عمت كافة أرجاء البلاد، جابت المواكب الليلية الشوارع، علا صوت أبواق السيارات والتهتافات في العاصمة والولايات مرةً أخرى، فرحة ما بعدها فرحة، فرحة شعب على أعتاب غد مشرق، صنع بداياته بيديه، صنعه بعد نضال طويل، وتضحيات جسام.

أعلنت المعارضة أن ما تم خطوة إلى الأمام، ولكنها ليست كافية، وأن مطالب الجماهير لم تتحقق بعد، وأن يوم السبت القادم سوف يشهد اجتماع مشترك بين قوى إعلان الحرية والتغيير مع المجلس العسكري، لمناقشة الترتيبات الانتقالية، ومطالبهم محددة في مجلس مدني بمشاركة عسكريين، تقليل فترة المجلس من عامين، إلغاء قوانين الطوارئ وحظر التجوال وإطلاق الحريات، وعلى الجماهير البقاء في الشارع إلى أن تتحقق هذه المطالب.

صدر بيان لقائد ميليشيا الدعم السريع يؤكد فيه انحيازه لثورة الشعب، وحوى البيان فتح باب الحوار مع مختلف شرائح المجتمع، والإسراع في تنفيذ لقاءات الحوار مع قيادات ورؤساء الأحزاب السياسيين، وتجمع المهنيين السودانيين، وقادة الشباب، وقيادات تنظيمات المجتمع المدني، ووضع برنامج واضح لفترة انتقالية بين ثلاثة وستة أشهر يتم خلالها تنقيح الدستور من خلال لجنة صياغة تشارك فيها كافة القوى، تشكيل مجلس عسكري انتقالي، ويكون التمثيل فيه عسكريا، ومجلس وزراء حكومة مدنية متفق عليها، تكون مهمة المجلس الانتقالي التركيز على إنقاذ الوضع الاقتصادي، وتوفير الاحتياجات الأساسية للمواطنين، والإشراف على لجنة صياغة تنقيح الدستور دون التدخل في مهامها، تشكيل محاكم ونيابات عامة لمكافحة

الفساد بكافة صورته وأشكاله، قيام انتخابات حرة ونزيهة تحت رقابة محلية ودولية وفق قانون انتخابات يتفق عليه مع أصحاب المصلحة، وعدم مشاركتهم في المجلس العسكري، إلى حين الاستجابة لمتطلبات الشعب، والبدء في الخطوات الواردة أعلاه.

جاء في البيان الأول لرئيس المجلس الانتقالي الجديد إلغاء قانون الطوارئ وحظر التجوال، وإطلاق سراح جميع المعتقلين خلال الاحتجاجات، دعوة كل أطراف المجتمع السوداني، من أحزاب، ومجتمع مدني، إلى الحوار، مع التزام المجلس بفترة انتقالية مدتها كحد أقصى عامان، تفضي إلى حكومة مدنية، وقف إطلاق النار في كل مناطق البلاد، التعهد بملاحقة كل المسؤولين عن الفساد، ومحاكمة كل من تورط في قتل الأبرياء، العمل على إعادة هيكلة مؤسسات الدولة المختلفة وفق القانون، مهمة المجلس تتمثل في إنفاذ، وتهيئة المناخ السياسي، بما يفضي إلى انتقال السلطة، وأثنى على شباب الحراك، ووعدهم الثوري، وسلمية حراكهم، داعياً الجميع للعودة للحياة الطبيعية.

عقب صدور هذا البيان دعا التجمع المواطنين السودانيين إلى مزيد من التوافد إلى ميادين الاعتصام في كافة أنحاء البلاد وذلك كضمان لحماية الثورة، كما وافقت تحالفات المعارضة على الجلوس وإجراء حوار مع المجلس يوم السبت حول الانتقال إلى سلطة مدنية، بدأت الشكوك تساور المحتجين بأن الذي يحدث هو مجرد تبديل ألقنة بين أفراد النظام، وحذروا من محاولات تلميع صور الرموز الجدد كمحاولة لسحب البساط من تحت أرجل المعارضة، وبعد ساعات من البيان ردد المحتجون شعارات (لم تسقط بعد)، (تسقط ثاني)، (سقطت ثاني وتسقط ثالث)، (أسقطنا اثنين في يومين ثوار أحرار ح نكمل المشوار).

وقف قلمه تحيةً وإجلالاً لشعب بطل...

كتب القلم البيان التالي:

بيان من شعب حر لكل شعوب العالم الحرة

نحن جند الله جند الوطن إن دعا داعي الفداء لم نخن
نتحدى الموت عند المحن نشترى المجد بأعلى ثمن
هذه الأرض لنا فليعيش سوداننا علما بين الأمم
يا بني السودان هذا رمزكم يحمل العبء ويحمي أرضكم

اليوم الخميس الموافق ٢٠١٩/٤/١١ م

نحن شعب السودان سطرنا في سفر التاريخ
بمداد من ذهب وبالبنط العريض نجـاح
ثورتنا الثالثة بإسقاط طاغية ونظامه.

تلاه يوم السبت الموافق ٢٠١٩/٤/١٣ م

إسقاط وزير دفاعه.

ثورة مجيدة انطلقت شرارتها بمظاهرات

مدينة (الدمازين) الباسلة يوم الثلاثاء الموافق ٢٠١٨/١٢/١٨.

(٢٨)

دموع فرح

في مساء ذلك اليوم المشهود السبت الموافق ٢٠١٩/٤/١٣م، بعد صلاة المغرب، لأول مرة تلتقي شلنا الأوس الثوري في صعيد واحد، أمام ورشة أميرو، لا يريد أن يحكي ما كانوا يخوضون فيه من حديث، لأن اللحظة كانت أكبر، أعمق، وأشمل، من كل حديث، كانت لحظة انفجار حقيقي لمشاعر، أحاسيس، وعواطف أمة، كانت مكبوتة داخل نفوس وقلوب طيبة لمدة ثلاثين سنة، كانت لحظة انطلاق مارد جبار، كان مسجوناً داخل قمقم لمدة ثلاثين سنة، كانت لحظة انتصار ثوار أحرار، رزحوا تحت قيود ظلم وعبودية لمدة ثلاثين سنة، كانت لحظة شعور شعب بعافية، بعد أمراض عويصة أفعدهت لمدة ثلاثين سنة، كانت لحظة تدفق شلالات فرح هستيري، لم تشهد لها البشرية مثيلاً من قبل.

تهليلات، تكبيرات، هتافات، وزغاريد كانت تأتيهم من كل مكان، ومن كل اتجاه، تعانقوا عنق الأحرار للأحرار، عنق الثوار للثوار، عنق الأبطال للأبطال، منهم من انحدرت من عينيه دموع فرح دموع الرجال، منهم من أجمته رهبة الموقف فعجز لسانه عن الكلام، منهم من طار عقله وما عاد يفهم ما يدور، انقلبت الموازين إلى عكسها، من يأس وقنوط إلى أمل ورجاء، من ظلام دامس إلى نور أبلج، من لغة تهديد، وعيد، وتقتيل، إلى لغة أمن، سلام، ومحبة.

في هذا اليوم الأغر من تاريخ الأمة، لو جُمع فرحها بالاستقلال، بثورة أكتوبر، وبثورة أبريل، وأفرغ في بوتقة فرح واحدة، لما عادل الفرح الغامر، الذي طفح وكسى وجوهاً طيبة، عانت من قهر وظلم طيلة نظام ذهب غير مأسوف عليه إلى مزبلة التاريخ، لينضم إلى غيره من أنظمة فاسدة، حكمت ببلادة وغباء شعوبها.

فقدوا في ذلك اليوم المشهود أخاهم الثائر تفتيس، الذي غادرهم إلى السعودية، تمنوا وجوده بينهم يشاركهم الفرحة، التي جاءت بعد طول مخاض، طول انتظار، طول عنت، رهق، دموع، آلام، وتضحيات جسام، لم يفوتوا الفرصة، اتصلوا عليه هاتفياً في تلك اللحظة التاريخية، قال: (الآن أنا معكم، على شاشة التلفاز أسمع وأرى، دموع انحدرت من عيوني، لا أستطيع وصفها، هل هي دموع فرح بالانتصار، انتصار ثورة شعب، ووفائها بالعهود والشعارات التي رفعتها، أم دموع عزاء في شهداء الثورة، الذين رووا بدمائهم الزكية أرضاً طاهرة، لتنمو شجرة الحرية وارفة، تظلل الجميع، أم دموع شعور بألم نحو آباء وأمهات فقدوا فلذات أكبادهم، أم دموع شعور بندم لأي تقصير بدر منا تجاه الثورة والثوار). أما شيخ العرب، شنيبو، سكت، صمت، تحاشى بعيونه الناس، لأن صدمته كانت كبيرة، من الصعب عليه أن يتحملها، ما زال بين شك ويقين أن ما حدث فعلاً حدث، وأن النظام أصبح في خير كان، وأن ريسه أصبح ريساً مخلوعاً، وبعد أن فاق من صدمته قليلاً قال:

(يا ناس خلوا في قلوبكم الرحمة، ارحموا عزيز قوم ذل، وغنيا افتقر، وعالما ضاع بين جهال، والصقر كان وقع كثر البتابت عيب). بدون ترتيب مسبق، مع قائد الكورال (عدولة)، غنوا معا رائعة وطنية، ظلت تتردد في ضمير الشعب بلا انقطاع، وحيطان العمارات، والبيوت، والأشجار، وأعمدة النور من حولهم تردد صدى غناهم:

أنت لست رعديدا يكبل خطوه ثقل الحديد
وهناك أسراب الضحايا الكادحون
العائدون مع الظلام من المصانع والحقول
ملؤا الطريق
وعيونهم مجروحة الأغوار ذابلة البريق
يتهامسون
وسياط جلاذ تسوق خطاهم
ما تصنعون؟
يجلجل الصوت الرهيب
كأنه القدر اللعين
وتظل تغفر في الدجى المشؤوم أفواه السجون
ويققمون
نحن الشعوب الكادحون

.....

وغدا نعود
حتما نعود
للقرية الغناء للكوخ الموشح بالورود
ونسير فوق جماجم الأسياد مرفوعي البنود
تزرعد الجارات
والأطفال ترقص والصغار
والنخل والصفصاف
والسيال زاهية الثمار
وسنابل القمح المنور في الحقول وفي الديار
لا لن نحيد عن الكفاح
سيعود السودان لنا
وتعود أنغام الصباح

روى الراوي بكل صدق وأمانة هذه الدردشة، نيابةً عن شلتي الأُنس الثوري، وعمره المديد قد شارف السبعين عاماً، شطره الأول شهد طفولته، وصباه، وزهرة شبابه التي قضاها في كنف وطن كريم، أحسن تربيته، سقاه من فيض مائه الزلال الطاهر، أطعمه لقيماته المجانية الشهية، أسكنه خلال مراحل التعليم من الأولية وحتى الجامعة نزله المجانية (الداخليات الميري)، كساه وعلمه، عالجه وداواه، وبعد أن استوى عوده وفر له وظيفة مرموقة، كل ذلك كان لوجه الله بلا من ولا أذى، كل ذلك الخير كان مكفولاً له ولكل أتراه من أبناء جيله، وللأجيال من قبلهم، ومن بعدهم، بلا خيار وفقوس. أما شطره الثاني قضاها في كنف ما يعرف بالإفقاد، في البدء كانت أحلام الناس عريضة، غاياتهم طموحة، أفندتهم طاهرة نقية، (لا لدنيا قد عملنا نحن للدين فداء)، (نأكل مما نزوع ونلبس مما نصنع)، وبالفعل في سنوات الطفرة البترولية تحققت بعض هذه الشعارات، تحققت مشروعات لا ينكرها إلا جاحد، ثورة تعليم عالي، جامعات جديدة، مستشفيات، ثورة اتصالات، صناعات دفاعية، طرق، جسور، سدود، تعليية خزانات، مطارات، موانئ بحرية، استخراج البترول، مصافي بترول، محطات أقمار فضائية، مشاريع زراعية، وخلافه، ثم جاءت الانتكاسة بعد انفصال الجنوب، فساد ينخر في جسد الدولة، وعود وردية كذوبة، وخطب طنانة رنانة، كانت المحصلة نقشى مرض، جوع، جهل، وتراجع آمال وغايات حضارية عراض، (دولة إسلامية تقوم على شرع الله المتين)، إلى أمنيات بسيطة وفي نفس الوقت

صعبة المنال، الحصول على رغيف خبز، جرعة دواء، شربة ماء نظيفة، مساواة وعدالة اجتماعية، كرامة إنسانية، ومحاربة فساد.

صحاب شلتي الأنس، مواطنون غيرون على دينهم ووطنهم، يتشوقون لأن يروا بلادهم تنعم بمساواة وعدالة، في ظل دولة ترعى حقوقاً وحرماناً، تستقي قوانينها من شرائع الله وقيم مجتمعية سمحة، يتشرب أفراد مجتمعها بمعاني ود، محبة، رحمة، شفقة، أثر، وتواضع، يتسلحون بعلم ومعرفة، وبإعلاء قيمة علم وعلماء، يضرب قاداته المثل الأعلى في زهد في حطام الدنيا، وتطلع إلى رضوان الله.

يريدون ألا يضطروا لرفع شعارات (حرية، كرامة، عدالة) و (سلمية، سلمية ضد الحرامية) مرةً أخرى في وجه حاكم مستبد، وأن تنمحي هذه الشعارات من ذاكراتهم الشعبية إلى الأبد.

إنهم يؤمنون بأن مجتمعهم يستحق الأمن، والسودد، والخلود، لأن أفرادهم يملكون الإمكانيات، وبالتوجه المبدع المتفرد يستطيعون تحقيق ما يريدون، فقط عليهم الاستفادة من تجارب الآخرين في كل أنحاء العالم، عليهم أن يدرسوا كل تجربة بدقة، ليعرفوا الأسرار والمفاتيح الخفية التي أدت بتلك الدول إلى أن تتحول في زمن وجيز من غرق في طين مستنقعات تخلف إلى تحليق في فضاءات نماء ورفاه، إنهم على وعي بأنهم لكي يطيروا ويحلقوا لا بد لهم من أن يدفنوا المستنقعات التي تولد لهم بعوضاً، جوعاً، مرضاً، جهلاً، وما المستنقعات إلا نظم سياسية فاسدة.

يريدون أن يتشكل عصر جديد في بلدهم، يشع حرية، ديموقراطية، وحقوق إنسان، يعود مشردوه إلى حضنه، ويعود هو إلى حضن المجتمع الدولي. يريدون أن يروا وشائج الأخوة والمحبة حرةً طليقة تربط بين جميع أفراد الشعب، بلا قيود فئوية أو ذاتية تكبلها، وأن تكون أقوى بكثير من روابط أخوة تجمع بين أنصار حزب، طريقة صوفية، منطقة، مدينة، قرية، حارة، أو بيت.

يريدون أن يروا وطناً صحيحاً معافى يحترم فيه مواطنوه تعاليم أديان سماوية، أعراف مجتمعات محلية، وتقاليد سمحة، يطبق فيه القانون بما يحفظ حقوق الجميع، يمنع فوضى ممارسات غوغائية، وتشوهات أمنية، مزقت نسيجه الاجتماعي، أورثته ضغائن وفتن عميقة.

يريدون أن يروا وطناً، مواطنوه يفهمون ويستوعبون ويقدرّون معاني كلمات: حرية، ديمقراطية، وحياة مدنية، ويعلمون تمام العلم أن حرية لا تعني فوضى، وإنما تعني احترام للغير، احترام للقانون، إعلاء قيمة الوطن؛ حباً، تنميةً، وتضحية في سبيله بغالي ونفيس، إعلاء قيمة الإنسان؛ سلوكاً، أدباً، وأخلاقاً، وإعلاء قيمة العمل؛ ترقيةً، تزكيةً، وإنتاجاً.

يريدون أن يروا وطناً عيونه مفتوحة، لأن أعداءه خارجياً وداخلياً كثر، أعداء الخارج لهم أطماع لا أول لها ولا آخر، كواسر جارحة يتصيدون دائماً الصيد الأضعف، أعداء الداخل لهم مآرب، ونزوات، لن يتخلوا عنها أبداً، سبيلهم الأوحى لتحقيقها، الإمساك بزمam السلطة.

يريدون أن يروا حكامهم وهم يفصلون بين دولة، وأهواء، وطموحات شخصية، لا يحكمون لأجل أسر، أقرباء، أصدقاء، معارف، وأحزاب، وإنما يحكمون فقط لأجل وطن كبير.

يريدون أن يروا العالم من حولهم ينظر إليهم، وإلى وطنهم، نظرة عادلة من خلال سلوكيات حضارية؛ تماسك ووحدة صف، شعارات مرفوعة تجسد ميلهم نحو السلام، وأشواق نبيلة لتحقيق كل حقوق الإنسان، لا من خلال نظرة إلى مصالح أنية ضيقة عبارة عن كسب مادي اقتصادي رخيص.

يريدون منه أن يساعدهم في كيف يحصنون مجتمعهم من جرائم
أنظمة مستبدة، لا تعيش إلا في ظلام جحور مقاصل، زنازين، وقبور.
يريدون أن يروا دستوراً، لا يعطي حكماً سلطات وصلاحيات
مطلقة، شبه إلهية، مما يجعلهم يقومون بتغليب سلطاتهم الأمنية على
السلطات الأخرى، وما من طاغوت استبد إلا وأورد قومه مورد
التهلكة، وحولهم من أمة مواطنين أحرار، إلى أمة معيز بجم.

يريدون أن يروا مجتمعهم خال من أجهزة أمنية قمعية، خال من
سيارات تاتشر تجوب الشوارع، تطل منها عيون غير آدمية لا تعرف
رحمة، وأيدي باطشة، تمسك بعصي، خراطيش، وسياط.

يريدون مجتمعاً ينام فيه أفراد الشرطة والقضاة ملئ جفونهم،
لاندعام الجريمة، والمجرمين، والمتخاصمين، والمتباغضين،
والمتشاحنين، ينام فيه المواطن، وباب داره مفتوحاً على مصراعيه، لا
يخشى عليه إلا من هبة الرياح.

يريدون لوطنهم أن يعود كما كان، لا جائع يستجدي لقمة عيش،
لا مريض يموت لعدم قدرة على حصول على دواء، لا تلميذ يطرد
من مقعد دراسة لعدم قدرة على سداد رسوم دراسية، ولا مواطن
يضرَب، يهان، يسحل، ويقتل، لهتاف نطق به في لحظة يأس.

لا يريدون لمجتمعهم أن يتحول إلى مجتمع طبقي، طبقة متخمين
مكتنزين بلحم، وشحم، يمتلكون سلطة ومال، يتمتعون بكل خيارات
البلد، وطبقة معدمين، هياكل عظمية، يتنفسون الهواء بصعوبة،
يضرَبون في فجاج الأرض بغير هدى، يسألون الله خلاصاً، طوفاناً،
خسفاً، صيحةً، أو حجارة من سجيل.

لا يريدون لمجتمعهم أن تستخدم فيه قوة أمنية لسحق طبقة
وسطى قوامها أطباء، مهندسين، موظفين، ومدرسين... الخ.

لا يريدون لقواتهم النظامية أن تكون عقيدتها وولاءها لغير الوطن، لا لجماعة، لا لحزب، ولا لفئة.

لا يريدون لمجتمعهم أن يضلل بميراث فكري، سنن الله في الكون فيزيائية أو اجتماعية ثابتة لا تتغير، لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، والمقصود بالتغيير تغيير فكري، لأنه لا خوارق، ولا معجزات ستسيرنا وتعدل طريقنا، كل ذلك مرهون باعترافنا بأخطائنا، لأن معرفة الداء تقود الى معرفة الدواء.

لا يريدون أن يروا زعماءهم وقادتهم يعيشون في بروج عاجية، من خلف زجاج واق للرصاص، تحت حماية شركات أمنية أجنبية، ومن حولهم بطانات طفيلية فاسدة، تزين لهم كل ما يقولون، وكل ما يفعلون، حتى إن أخرجوا الهواء من عوادمهم فهم لهم يصفقون ويستملحون.

لا يريدون أن يروا قادتهم يكررون تجربة هتلر، كان يعيش في عالمه الخاص، ولأجل تحقيق نزواته الشخصية دمر العالم.

يؤلمهم، المرور بسنوات جذب، قحط، وابتلاءات، تكاد لا تنتهي بسبب سوء حكم، سوء إدارة، ضعف وازع إيماني وحس وطني، إلى أن وصلوا إلى درجة صاروا فيها يستجدون حق تظاهر سلمي، في وجه حكومة ظالمة، فاشلة، وفاسدة.

يؤلمهم، أن يروا بأم أعينهم أجهزة أمنهم تمارس بقسوة ووحشية، سحلاً في الشوارع، قتلاً رميّاً بالرصاص في الهواء الطلق، اختفاءً قسرياً، جلدأً بسيطاً وخراطيش، ركلاً بأحذية وبوت، ضرباً مذللاً مهيناً لكبار سن، اقتحاماً لحرمات بيوت، جامعات، وقاعات محاضرات، وتنكيلاً بأعضاء هيئات تدريس وطلاب.

يؤلمهم أن يروا دولتهم تعطي حق الاقتراع ولا تعطي حق التعبير، كيف لا، ومؤسساتها التي تشرف على تنظيم عمليات الانتخابات، قائمة على تزييف، ولف ودوران.

يؤلمهم الشعور بإحباط، ويأس، وبأن الأمور في بلدهم إذا ما استمرت على ما هي عليه، بدون سلطة مدنية حقيقية، سوف تسير من سيئ إلى أسوأ، وبأنها مقبلة على أيام سود، حبلى بمصائب، ويلات، وكوارث.

يؤلمهم أن يروا بعض النبوءات تتحقق، نبوءة شيخهم الترابي: (إن البلد مقبلة وبلا شك على ثورة قوية مثل ثورتي أكتوبر وأبريل.. وأن تلك الثورة ستأتي بغتة وبصورة مفاجئة، لتقتلع النظام إذا استمر النظام في ذات المنوال العضوض، وإذا لم تحدث تغييرات في طريقة إدارة البلاد من تلقاء نفسه. أما عن البديل، أن مثل هذه الثورات لا تنشغل بالبحث عن البديل، بل هي تنفجر بغتة، وبصورة مفاجئة، ويكون الناس وقتذاك قد بلغ بهم الضيق مبلغا عظيما، لا يبالون منه لو كان البديل هو الشيطان نفسه...).

ويؤلمهم أن يقرؤوا للمفكر الإسلامي راشد الغنوشي وهو يقول: تجربة الإنقاذ السودانية قدمت أسوأ نموذج للإسلام والمسلمين والإنسانية.

يؤلمهم أن يروا فرصة عظيمة تضيع على وطنهم، في أن يطبق فيه شرع الله بما يرضي الله ورسوله، بصورة تجعل منه نموذجا يحتذى في كل أنحاء العالم، لا نموذجا ينفر منه الناس، وإنهم ليعلمون أن الدين الإسلامي ليس ملكا لأحد، وأن لهذا الدين رب يحميه.

ويؤلمهم أن يروا أن دعوة ربعي بن عامر لرستم الفرس لا تتحقق في بلدهم حين قال له: الله بعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى وسعها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

ويؤلمهم أن يروا أن الشعار الجميل النبيل (هي لله لا للسلطة ولا للجاه) كان شعارا أجوفا زائفا، أثبتت الأيام أن بعض الذين رفعوه كانوا أبعد الناس عن روحانيته السامقة، وشفافيته النورانية العلوية السامية، وذلك بأن ما فعلوه عكسه تماما (لا لله بل للسلطة بل للجاه).

يؤلمهم أن يروا أن أهل النظام الحاكم لا يتعلمون من التاريخ، ولا من سنة الله في الكون، (إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر)، (كم من حكومات سادت ثم بادت)، (دوام الحال من المحال)، (لو دام الكرسي لغيرك لما وصل إليك)، وما الأمثلة ببعيدة، شاه إيران، بن علي تونس، حسني مبارك مصر، قذافي ليبيا، والقائمة تطول.

يؤلمهم أن يروا وطنهم تعصف به رياح الاختلافات بين مكونات الثورة، بعد تحقيق النصر على طغمة حاكمة، الشيطان دائما يدخل بين الناس في مرحلة ما بعد النصر، وشواهد التاريخ الحديث عديدة، وما طالبان ببعيدة.

حينما كان الثوار يشاهدون ما يجري تجاه المتظاهرين في فرنسا والجزائر من جهة وما يجري من أفعال خارج القانون في بلدهم من جهة أخرى، كانوا يرون عالمين، عالم حر، جميل، مستنير، متحضر، وعالم آخر، متعفن بجهل، تخلف، وعنصرية حزبية ضيقة. ما كانوا مصدقين لأنفسهم أبدا، أن ما كانوا يعيشون فيه من ظلام دامس، يمكن أن يكون في القرن الواحد والعشرين، قرن شهد فيه العالم طفرة لا نقول غير مسبوقة في حقوق الإنسان، ولكن نقول مسبوقة، ثم مسبوقة، لأنه سبحانه لم يفرط في الكتاب من شيء.

وماذا بعد:

إن الشعب الآن يمتلكه خوف مرعب من الدخول في مغالطة كبرى، من الذي أسقط النظام ثوار أم عسكري؟ الذين يقولون الثوار يستندون على أنهم ظلوا في الشوارع لمدة تقارب الأربعة أشهر، في احتجاجات ومظاهرات مستمرة، ووجهت بممارسات قمعية قانونية وغير قانونية، شلت البلاد من أقصاها إلى أقصاها، مما جعل النظام الحاكم فاقدا للحركة، وللأهلية داخليا وخارجيا؛ والذين يقولون العسكري، يستندون على أن الشعب المحتج، لجأ في النهاية إليهم واحتمى بهم، وفي لحظة فارقة بين أن يترك العسكر النظام يرتكب مجزرة دموية في حق الشعب، أو أن يستلموا السلطة، قاموا مجبرين باستلامها، وأنهم لو تركوا الشعب يتظاهر لمئة سنة لما أسقط النظام. ربما نتيجة لهذه المغالطة بدلاً من أن يكون الاثنان شريكان متضامنان، يصيران ندان متناحران، والمتربصون من الخارج من لاعبين إقليميين، ودوليين، يتحينون مثل هذه الفرص ليمرروا أجندهم الخاصة على حساب مصالح الوطن، والمتربصون من الداخل، من بقايا نظام بائد، فلول، ألام، وأذئاب، لا يزالون موجودين في أحياء سكنية، ومفاصل دولة، منهم من يحمل سلاحاً، لن يترددوا في زعزعة أمن اقتصادي واجتماعي كنوع من أنواع ثورة مضادة.

التاريخ يقول: هكذا الثورات، دائماً، يصنعها الكادحون، والنتيجة إما أن يجهضها، أو يسرقها، أو يغير اتجاه مسارها، الانتهازيون، المنافقون، أو المغامرون من عسكري وتجار سياسة، وذلك إن لم يقبض

الله لها مفكرين، زعماء، قادة، مناضلين، محنكين، صادقين، يحققون لها نصراً نهائياً، يحقق لها كافة شعاراتها التي رفعتها، والتي كان دونها، عرق، دمع، دم، ألم، ومهج.

وأخشى ما أخشى على شعب طيب أن يكونوا لم يعدوا عدتهم ولم يتهيؤوا لما بعد (تسقط بس)، لما بعد زوال النظام، أخشى عليهم من تبعات حديث رسولنا الكريم الصادق المصدوق (صلعم)، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، قال: دعانا النبي ﷺ فبايعنا، فكان فيما أخذ علينا " أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا، وألا ننازع الأمر أهله، إلا أن تروا كفراً بواحا عندكم من الله فيه برهان".